٣٥ درس

التفسير المحرر للقرآن الكريم

سورة الفرقان

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (فرع طنطا)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

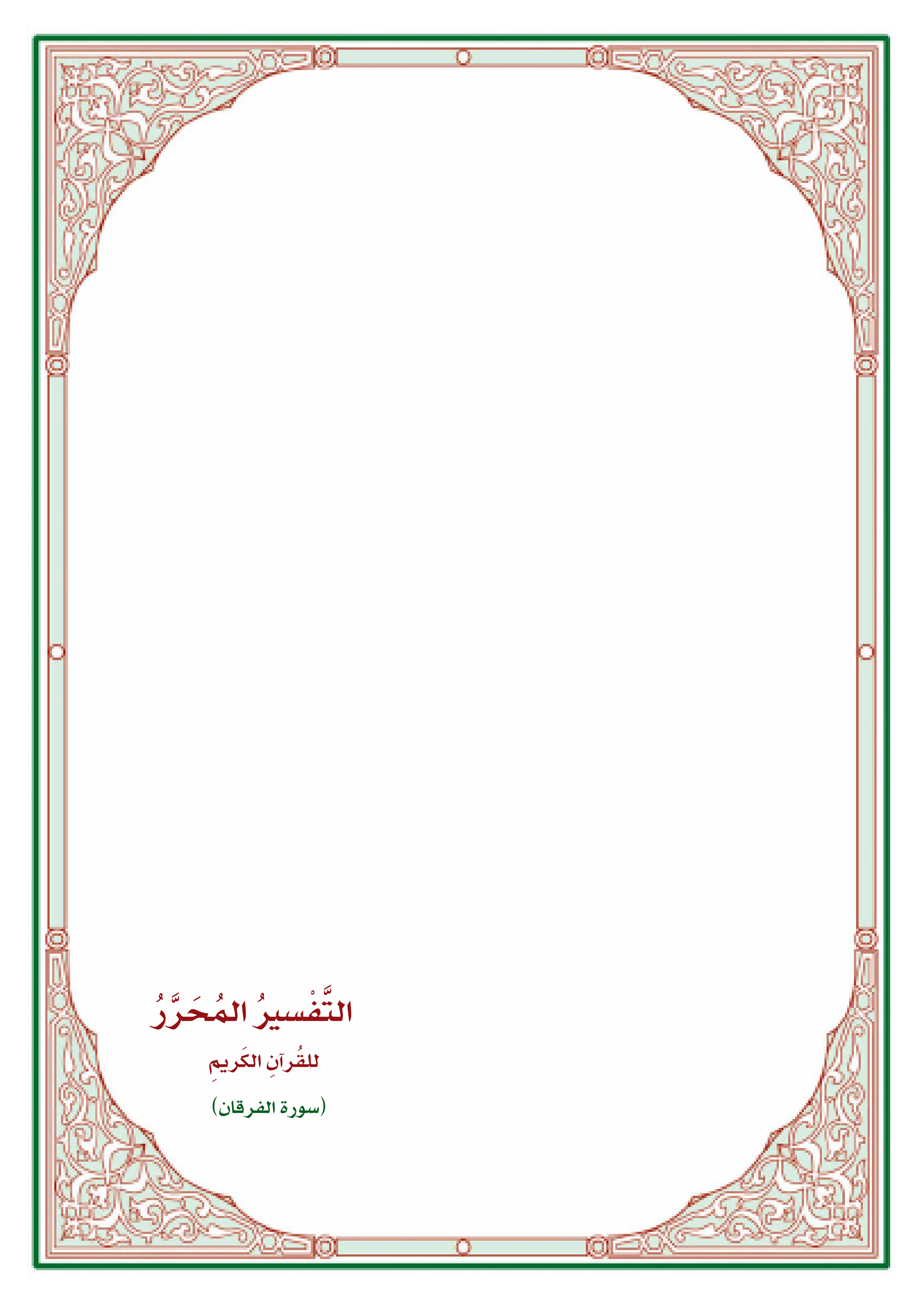
المجلد العشرون

الدرر السنية
www.dorar.net



للحصول على نسخة إلكترونية شرعية

بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)



التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفرقان)



ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد العشرون: سورة الفرقان/ القسم العلمي

بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤١ هـ

٤١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٧٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤١/٤٤٣٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٤٤٣٣

ردمك: ٢-٧٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ -بريد إلكتروني nashr@dorar.net



التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفرقان)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

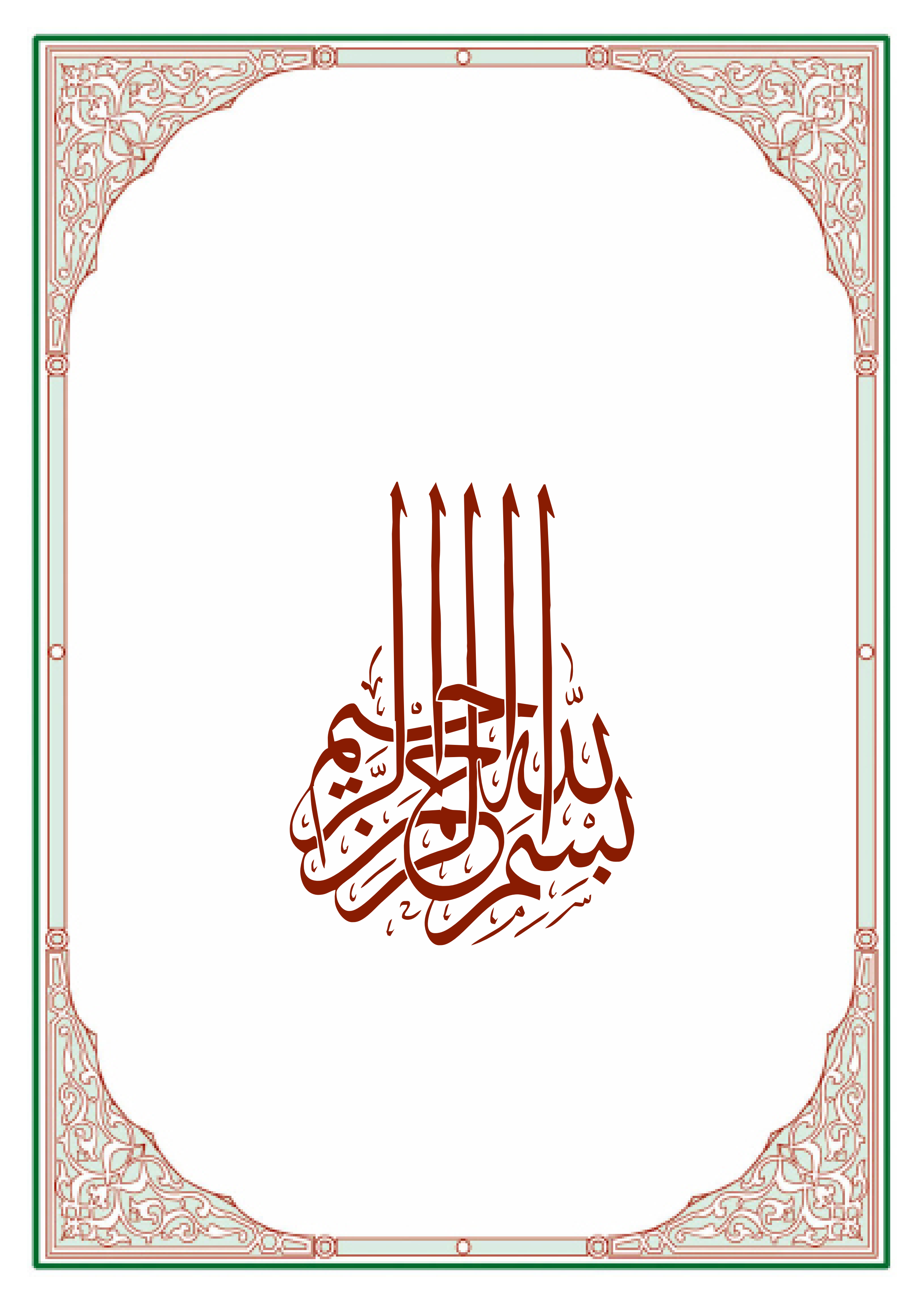
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

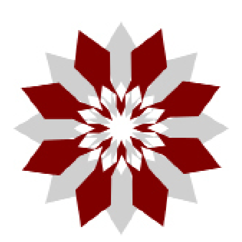
الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

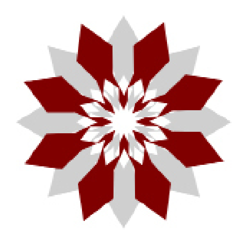
المجلد العشرون

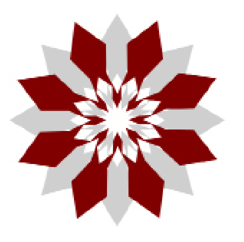



بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفُرقانِ







سورةُ الفُرقانِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفرقان)[1].

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ هِشامَ بنَ حَكيمٍ يقرأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستمعتُ لِقراءتِه، فإذا هو يقرأُ على حُروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكِدتُ أُساوِرُه[2] في الصَّلاةِ، فتصبَّرتُ حتى سَلَّمَ، فلبَّبتُه[3] بردائِه، فقلتُ: مَن أقرأَك هذه السُّورةَ التي سمِعتُك تقرأُ؟ قال: أقرأَنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقلتُ: كذَبْتَ؛ فإنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهشامٍ: اقرأْ، فقرأَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت. ثمَّ قال: اقرأْ يا عُمَرُ، فقرأتُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ[4]، ....

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الفُرقانِ؛ لأنَّ في فاتحتِها ذِكرَ الفُرقانِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) أساوِرُه: أي: أُواثِبُه وأقاتِلُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٢٠).

(٣) فلَبَّبْتُه: أي: جَمَعتُ ثيابَه عند نَحْرِه ثمَّ جَرَرْتُه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٢٩٦).

(٤) سَبعةِ أحرُفٍ: اختُلِف في المرادِ بالأحرفِ السبعةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أقربِها: أنَّ المرادَ سبعةُ أوجُهٍ مِن الاختلافِ لا يخرُجُ عنها، أو: سبعُ لُغاتٍ مِن لُغاتِ العَرَبِ، أو: سبعةُ أوجهٍ مِن المعاني المتَّفقةِ بألفاظٍ مختلفةٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٦٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٦٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٥٢).

فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه))[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

في سورةِ (الفرقان) سجدةُ تلاوةٍ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[٢] [الفرقان: ٦٠].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الفُرقانِ مكِّيَّةٌ[٣]، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ الفُرقانِ:

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ، وإثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنَزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ دلائِلِ صِدقِه، والتَّنويهُ بالذين اتَّبَعوه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٢) واللفظ له، ومسلم (٨١٨).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ حزم، وابنُ قُدامة، وابنُ حجر. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((الكافي)) لابن قدامة (١/ ٢٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها نزَلت بالمدينةِ؛ وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ...﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى قَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقيل: مَدَنيَّةٌ. وقيل: مَدَنيَّةٌ، وفيها آياتٌ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبِقَاعي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣١٦).

وعزا القرطبيُّ القولَ بأنَّها مكيَّةٌ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أُقيمَت هذه السُّورةُ على ثلاثِ دَعائِمَ:

الأُولى: إثباتُ أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المُنزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، =

٢- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه، والتَّسْريةُ عنه[١].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الفُرقانِ:

١- تمجيدُ اللهِ تعالى والثَّناءُ عليه، ووَصفُه بصِفاتِ الإلهيَّةِ والوَحدانيَّةِ فيها، واتِّخاذُ المُشرِكينَ مع ذلك آلهةً مِن دُونِه تعالى مخلوقةً مَوصوفةً بالعَجزِ.

٢- حِكايةُ بَعضِ أقوالِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم حولَ القُرآنِ وحولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الرَّدِّ عليهم، ودَحْضِ شُبُهاتِهم.

٣- المُقارنةُ بيْنَ مَصيرِ المُشرِكينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم، وبينَ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمؤمِنينَ.

٤- ذِكرُ جانِبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم.

٥- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِنَ المُشرِكينَ مِن تَطاوُلٍ عليه، وتَكذيبٍ له.

= ودلائِلِ صِدقِه، ورِفعةِ شأنِه عن أن تكونَ له حُظوظُ الدُّنيا، وأنَّه على طريقةِ غَيرِه مِنَ الرُّسُلِ، ومِن ذلك تَلَقِّي قَومِه دَعوتَه بالتَّكذيبِ.

الدِّعامةُ الثَّانيةُ: إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، والإنذارُ بالجزاءِ في الآخرةِ، والتَّبشيرُ بالثَّوابِ فيها للصَّالِحينَ، وإنذارُ المُشرِكينَ بسُوءِ حَظِّهم يومَئذٍ، وتكونُ لهم النَّدامةُ على تكذيبِهم الرَّسولَ، وعلى إشراكِهم واتِّباعِ أئمَّةِ كُفْرِهم.

الدِّعامةُ الثَّالِثةُ: الاستِدلالُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلْقِ، وتَنزيهُه عن أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ، وإبطالُ إلهيَّةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زَعَموه مِن بنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى.

وافتُتِحَت في آياتِ كُلِّ دِعامةٍ مِن هذه الثَّلاثِ بجُملةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ١٦٧).

٦- الحديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

٧- عَرضُ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ، وأخلاقِهم، وعبادتِهم لرَبِّهم، ودُعائِهم له، وتضَرُّعِهم إليه.



الآيات (١-٣)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[(١)].

﴿الْفُرْقَانَ﴾: أي: كلامَ اللهِ تعالى؛ لِفَرقِه بينَ الحقِّ والباطِلِ، وأصلُه: يدُلُّ على الفَصلِ بيْن شيئَينِ[(٢)].

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا مخوِّفًا، وأصلُه: يدُلُّ على التَّخويفِ[(٣)].

﴿فَقَدَّرَهُ﴾: أي: سَوَّاه وهَيَّأه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

﴿نُشُورًا﴾: أي: حياةً بعْدَ المَوتِ. وأصْلُه: يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتِحًا السورةَ بالثناءِ على نفْسِه: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ بين الحَقِّ والباطِلِ آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ؛ ليكونَ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، وهو الذي له وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه ولدًا، ولم يكُنْ له شَريكٌ في سُلطانِه، وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، وجعَلَه مُحكَمًا بحِكمتِه وتقديرِه، وهيَّأه لِما يصلُحُ له.

ثمَّ يُبيِّنُ انحرافَ المشركينَ، فيقول: واتَّخذ المشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ المزعومةُ مَخلوقةٌ لا تستطيعُ أن تدفَعَ عن نَفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لِنَفسِها نَفعًا، ولا تستطيعُ أن تُميتَ أحدًا، ولا أن تُحييَه، ولا أن تبعَثَه بعدَ مَوتِه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

أي: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتت بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ ببيانِه بيْن الحَقِّ والباطِلِ، آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: لِيَكونَ محمَّدٌ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، يحَذِّرُهم عذابَ اللهِ إن لم يُخلِصوا له العبادةَ[1].

= (١٣/ ١، ٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤).

قال ابنُ كثير: (﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزَّل: فعَّل، مِن التكرُّرِ والتكثُّرِ، كما قال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأنَّ الكتُبَ المتقَدِّمةَ كانت تنزِلُ جُملةً واحدةً، والقرآنُ نَزَل منجَّمًا مفرَّقًا مفصَّلًا آياتٍ بعدَ آياتٍ، وأحكامًا بعدَ أحكامٍ، وسُوَرًا بعدَ سُوَرٍ، وهذا أشدُّ وأبلغُ، وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزِل عليه، كما قال في أثناءِ هذه السُّورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۞ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

وقال البِقَاعي: (نزَل مفرَّقًا بحسَبِ المصالحِ؛ فسُمِّيَ لذلك فُرقانًا، ولأنَّه الفارقُ بيْن ملتبِسٍ؛ فلا يدَعُ خفاءً إلَّا بيَّنه، ولا حقًّا إلا أثبته، ولا باطلًا إلَّا نفاه ومحَقَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن جملةِ البَرَكةِ التي هي مِن صفةِ الله سبحانه وتعالى: أنَّه نزَّل الفرقانَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

مِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ عائدٌ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزيٍّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٦). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[(١)].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقَدَّم ذِكرُ مُنَزِّلِ الفُرقانِ سُبحانه، وذِكرُ الفُرقانِ والمنَزَّلِ عليه على طريقِ الإجمالِ؛ أتبَعَ ذلك تفصيلَه على الترتيبِ، فبدأ بوَصفِ المنَزِّلِ سُبحانه بما هو أدَلُّ دَليلٍ على إرادةِ التَّعميمِ في الرِّسالةِ لكُلِّ مَن يريدُ، فقال[(٢)]:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وهو اللهُ الذي له وحْدَه سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، يصَرِّفُ شُؤونَهما ويدبِّرُهما وجميعَ ما فيهما[(٣)].

= ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٦٠).

ومِمَّن قال: إنَّ الضميرَ يعودُ على القرآنِ، أي: لِيَكونَ القرآنُ نذيرًا: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٨).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ إنسيٍّ وجِنِّيٍّ عاصَرَه أو جاء بعْدَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠، ٢٠١)، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾.

أي: ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه وَلدًا؛ لا عيسى، ولا عُزَيرًا، ولا الملائكةَ، ولا غيرَهم مِن خَلقِه[١].

كما قال تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص: ٣].

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾.

أي: ولم يكُنْ لله شريكٌ في مُلكِه وسُلطانِه كما يزعُمُ المُشرِكون[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾.

أي: وأوجَد اللهُ كلَّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، فأتقَنَه وهيَّأه لِما يَصلُحُ له، وجعَلَه مُحْكَمًا، لا تفاوُتَ فيه ولا خَللَ، على ما أراد سُبحانَه بحِكمتِه[٣].

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨، ٣١٩). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن كَمالَه وعظَمتَه وكَثرةَ إحسانِه، وكان ذلك مُقتَضيًا لأن يكونَ وحْدَه المحبوبَ المألوهَ المعظَّمَ، المُفرَدَ بالإخلاصِ وحْدَه لا شريكَ له؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بُطلانَ عبادةِ ما سِواه، فقال[1]:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أي: واتَّخذ المُشرِكون من دونِ اللهِ معبوداتٍ مِن الأصنامِ وغَيرِها لا تَستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ مخلوقةٌ، بل منها ما هو مَصنوعٌ ومنحوتٌ بأيدي المُشرِكين[2]!

= قال ابن عطية: (تقديرُ الأشياءِ: هو حَدُّها بالأمكنةِ والأزمانِ والمقاديرِ، والمصلحةِ والإتقانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ أن تدفَعَ عن نفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لنَفسِها نفعًا(١).

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم اللهُ بالاختراعِ والإيجادِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم البشَرُ بالنَّحتِ والنِّجارةِ، وهذا التأويلُ أشَدُّ إبداءً لخَساسةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

ممَّن اختار المعنى الثانيَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والزمخشري، والبيضاوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٦).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

قال البقاعي: (﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بما يُشاهَدُ فيهم مِنَ التغيُّرِ والطَّواعِيَةِ لِمَشيئتِه سُبحانَه، ومن ذلك أنَّ عَبَدَتَهم افتَعَلوهم بالنَّحتِ والتَّصويرِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: المصادرُ السابقةُ.

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾... ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا﴾: لو أرادوا أن يَضُرُّوا أنفُسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدْفَعوا عنها ضَرَرًا ما دفَعوا عنها؛ ... قولُه: ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يعني: لا يَملِكونَ أن يجُرُّوا لأنفُسِهم نَفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفَعوه عن أنفُسِهم... وإبقاءُ الآيةِ على العُمومِ أَولى، يعني: لا يَستطيعونَ شَيئًا لأنفُسِهم، وإذا كانوا لا يَستَطيعونَ ذلك لأنفُسِهم، فمِن بابِ أَولَى لا يَستطيعونَه لعابِدِيهم!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨، ٢٩).

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ إماتةَ حَيٍّ، ولا إحياءَ مَيِّتٍ، ولا بَعْثَه بعدَ مَوتِه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ أنَّ هذا الربَّ المُنْعِمَ المتفضِّلَ القُدُّوسَ: هو الذي أنزلَ هذا الفرقانَ، فإذا أردتَ أن تَرقَى في درجاتِ الكمالِ، وتظفرَ بأنواعِ الإنعامِ، وتُزَكِّيَ نفْسَك الزَّكاءَ التامَّ؛ فعليك بهُدى هذا الفرقانِ، فهو بساطُ القُدُسِ، ومِعراجُ الكمالِ، ومائدةُ الإكرامِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا سمَّى الله كتابَه الفُرقانَ، عَلِمْنا أنَّه به يُفرِّقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ، وأهْلِ هذا وذاك. فهو الحَكَمُ العَدلُ، والقَولُ الفَصلُ بيْن كلِّ متنازعينِ يدَّعي كلٌّ منهما أنَّه على الحَقِّ فيما هو عليه مِن عَقدٍ أو قَولٍ أو عمَلٍ، فما تقابَلَ حقٌّ وباطلٌ، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ إلَّا وفي هذا الكتابِ الحكيمِ ما يَفرُقُ ما بيْنهما. وإنما يتفاوتُ النَّاسُ في إدراكِ ذلك منه على حسَبِ ما عندَهم مِن قوةِ عِلمٍ، وصِدقِ بصيرةٍ، وحُسنِ إخلاصٍ، فعلينا -إذَنْ- أن يكون أوَّلُ فزَعِنا في الفَرقِ والفَصلِ إليه، وأن يكون أوَّلُ جُهدِنا في استجلاءِ ذلك مِن نصوصِه ومَراميه، مستعينينَ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والعمليَّةِ على استخراجِ لآليه، فإذا حكَمَ قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكنَّا مع ما حكَمَ له، وفارَقْنا ما حكَم عليه؛ فالله سمَّاه الفرقانَ لِنَعلَمَ أنَّه فارِقٌ بنفْسِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

ولِنَعملَ بالفَرقِ به، ولا يَكمُلُ إيمانُنا بأنَّه الفرقانُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ نستفيدُ مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ التربويَّةِ: أن تتأكَّدَ وتزدادَ محبَّتُنا لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان عبدًا لله، قائِمًا بإبلاغِ الرِّسالةِ، وإنذارِ الخَلقِ[٢].

٤- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد أنْ تتبينَ له الأمورُ، فلْيَرجِعْ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه فُرقانًا[٣]، فكما أنَّه فُرقانٌ بذاتِه يَفرُقُ، فإنَّ مَن كان مِن أهلِه ولازَمَه وعَمِلَ به، أُوتيَ هذه الصِّفةَ، وصار له تَفريقٌ بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لِقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٤] [الأنفال: ٢٩].

٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا جَعَلَ تعالى غايةَ تنزيلِ الفُرقانِ أنْ يكونَ عبْدُه نذيرًا، اقتضى ذلك أنَّ نِذارتَه تكونُ بالقُرآنِ؛ لتَقومَ الحُجَّةُ، وتتِمَّ الحِكمةُ، وتحصُلَ الفائدةُ، وتشمَلَ النعمةُ، وقد صُرِّحَ بهذا في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فعلينا -إذَنْ- أن نَعلَمَ أنَّ القرآنَ هو كتابُ النِّذارةِ والهدايةِ، فنستخرجَ أصولَها وفُنونَها مِن آياتِه، وهذا حظُّ العِلمِ؛ وأن يكونَ اهتداؤنا في أنفُسِنا وهديُنا لغيرِنا به، وهذا حظُّ العمَلِ، وهما رُكنا الإيمانِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٥).

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ فِعلٌ مختَصٌّ بالله تعالى لم يُستعمَلْ في غَيرِه[1]، فلا يقالُ لغيرِ الله: (تَبارَك)[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لمَّا قال تعالى أولًا: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرةُ الخيرِ والبَرَكةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَه أمرَ القرآنِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القُرآنَ مَنشأُ الخيراتِ، وأعمُّ البَرَكاتِ[3]. وأيضًا فإسنادُه ﴿تَبَارَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، يدُلُّ على أنَّ إنزالَه الفُرقانَ على عبدِه مِن أعظَمِ البَرَكاتِ والخَيراتِ والنِّعَمِ التي أنعَمَ بها على خَلقِه[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ تكلَّمَ الله سُبحانَه وتعالى في هذه السُّورةِ في التَّوحيدِ والنبوَّةِ وأحوالِ القيامةِ، ثم خَتَمها بذكرِ صفاتِ العبادِ المُخلِصينَ الموقِنينَ، ولمَّا كان إثباتُ التوحيدِ يجبُ أنْ يكونَ مُقَدَّمًا على الكُلِّ؛ لا جَرَم افتتحَ اللهُ هذه السُّورةَ بذلك[5].

٤- اللهُ سُبحانَه قد أقام الحُجَّةَ على خَلقِه بكتابِه ورُسُلِه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكلُّ مَن بلَغَه هذا القرآنُ فقد أُنذِرَ به، وقامت عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٨).

حُجَّةُ اللهِ به[١].

٥- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فافتتَح هذه السُّورةَ بأنَّه تعالَى مُنَزَّهٌ في صفاتِه عن النَّقائصِ، كثيرُ الخيرِ، ومِن خَيرِه أنَّه نَزَّلَ الفُرقانَ على رسولِه مُنْذِرًا لهم؛ فكانَ في ذلك إطماعٌ في خَيرِه، وتحذيرٌ مِن عِقابِه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ كالتَّنبيهِ على أنَّه لا التفاتَ إلى المنافعِ العاجلةِ؛ وذلك لأنَّه سُبحانَه لَمَّا وَصَفَ نفْسَه بأنه الذي يُعطي الخيراتِ الكثيرةَ لم يَذْكُرْ إلَّا منافعَ الدِّينِ، ولم يَذْكُرِ البتَّةَ شيئًا مِن منافعِ الدُّنيا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، في إيثارِ اسمِ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بالذِّكْرِ هنا إيماءٌ إلى أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن الدَّلائلِ على الوحدانيَّةِ وإنزالِ القرآنِ دلائلُ قيِّمَةٌ تُفَرِّقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤].

٨- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ إذا أضاف إنزالَ شيءٍ إليه، ولم يكُنْ عينًا قائمًا بذاتِه ولا صفةً في عينٍ قائمةٍ بذاتِها؛ لزِم أن يكونَ صفةً مِن صفاتِ الله، فتعيَّن أن يكونَ كلامًا لله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢، ١٨).

٩- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، قَولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صِفةُ مَدحٍ وثَناءٍ؛ لأنَّ اللهَ أضاف نَبيَّه إلى عُبُوديَّتِه[1]. وقد وَصَف اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تبارك تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وذَكَره بالعُبوديَّة في مَقامِ الدَّعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وذَكَره بالعُبوديَّة في مَقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2] [الإسراء: ١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إشارةٌ إلى كثرةِ المستحقِّينَ للنِّذارةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» في قَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتَّعليلِ، فإذا كانت للتعليلِ دلَّ هذا على أنَّها تفيدُ الحِكمةَ؛ إذِ العلَّةُ هي الباعثةُ على الشَّيءِ، أو هي غايةُ الشَّيءِ؛ لأنَّ العلةَ إمَّا غائيَّةٌ أو باعثةٌ، وكلٌّ منها يدُلُّ على الحِكمةِ[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ، ووجهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن عُلُوٍّ؛ وإذا كان اللهُ نَزَّلَ الفُرقانَ، فإنَّ هذا يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ تبارك وتعالى[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ القُرآنَ كلَّه واضِحٌ صَريحٌ ليس فيه إشكالٌ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ فُرقانًا إلَّا على هذا الوجهِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فالمرادُ بالتَّشابُهِ فيه ليس اشتباهَ المَعنى، بل هو الموافَقةُ والمُشاكَلةُ في الكَمالِ والحُسنِ[٢].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يدُلُّ على عمومِ رسالتِه صلَّى الله عليه وسلَّم للأسودِ والأحمرِ، والجنِّ والإنسِ؛ لدخولِ الجميعِ في قولِه تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]، فهو يتناوَلُ جميعَ المكلَّفينَ مِن الجِنِّ والإنْسِ[٤].

ويَبطُلُ بهذا قولُ مَن قال: إنَّه كان رسولًا إلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ[٥]، فمَن قال: إنَّه رسولٌ إلى العَرَبِ فقط، فإنَّه كافرٌ به[٦].

١٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، دلَّتِ الآيةُ على أنَّه رَسولٌ للخَلْقِ إلى يَومِ القيامةِ؛ فوَجَبَ أنْ يكونَ خاتَمَ الأنبياءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣).
(٤) أمَّا الملائكةُ فقد حكى الرازيُّ الإجماعَ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ رَسولًا إلى الملائكةِ، وقد قدَح في هذا الإجماعِ البِقَاعيُّ في ((نظم الدرر)) (٧/ ٧٠) و(١٣/ ٣٣٢). ويُنظر تفصيلُ المسألةِ، والخلافُ فيها في رسالةِ: ((تزيين الأرائكِ في إرسالِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الملائكِ)) للسيوطيِّ.
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

والرُّسُلِ[(١)].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فضْلُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيثُ كُلِّفَ الرِّسالةَ إلى جميعِ الخَلقِ؛ لأنَّ هذا دَليلٌ على فضْلِه، وأنَّه أهلٌ لهذه المهِمَّةِ العظيمةِ؛ فلو أَرسلتَ إنسانًا لِيُصلحَ بيْن شخصينِ فهذا دليلٌ على فضْلِه، لكنْ لو أرسلتَ إنسانًا لِيُصلِحَ بيْن طائفتينِ أو أُمَّتَينِ فهذه زيادةُ فضلٍ؛ ولذلك لا يُرسَلُ لهذه المهمَّةِ الأخيرةِ إلَّا مَن هو جديرٌ بها، فكَوْنُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ لجميعِ الخَلقِ دَليلٌ على فَضلِه؛ حيث حُمِّلَ الرِّسالةَ إلى جَميعِ الخَلقِ[(٢)].

١٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكَرَ الله سُبحانه وتعالى إنزالَ الفُرقانِ، وهو تشريعٌ وتَنظيمٌ، ثمَّ أعقبَه بقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يجِبُ العمَلُ بما جاء في هذا الفرقانِ؛ لأنَّه جاء مِن مالكِ السَّمواتِ والأرضِ، والمالِكُ له حَقُّ التصَرُّفِ في مملوكِه، بأنْ يُشَرِّعَ له ما شاء، ويُنَظِّمَ له ما شاء، وهذه هي الفائدةُ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، فأتى بالتَّشريعِ أوَّلًا، أو بدُستورِ التَّشريعِ كما يقولون، ثمَّ أتى بعْدَ ذلك بعُمومِ المُلكِ؛ لأنَّه عزَّ وجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَ أن يكونَ ما شَرَعه حتمًا على المملوكينَ[(٣)].

١٨- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠).

﴿شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أثنى جلَّ وعلا على نفْسِه في هذه الآيةِ الكريمةِ بخَمسةِ أُمورٍ، هي أدِلَّةٌ قاطِعةٌ على عَظَمتِه واستحقاقِه وحْدَه لإخلاصِ العبادةِ له:

الأوَّلُ منها: أنَّه هو الذي له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ.

والثاني: أنَّه لم يتَّخِذْ ولَدًا- سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا.

والثالثُ: أنَّه لا شريكَ له في مُلكِه.

والرابعُ: أنَّه هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ.

والخامسُ: أنَّه قَدَّر كُلَّ شَيءٍ خَلَقه تقديرًا[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتراكَ في المِلكِ ينافي حقيقةَ المِلكِ التامَّةَ التي لا يَليقُ به غيرُها[٢].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيه ردٌّ على مُشْركي قُريشٍ، وعلى النَّصارى واليهودِ النَّاسبينَ للهِ الولَدَ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه خالقٌ لأعمالِ العِبادِ، وهذا مِن وجهينِ:

الأول: أنَّ قولَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يتناوَلُ جميعَ الأشياءِ؛ فيتناولُ أفعالَ العبادِ.

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

والثاني: أنَّه تعالى بعْدَ أنْ نفَى الشريكَ ذَكَر ذلك، والتقديرُ أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفَى الشريكَ كأنَّ قائلًا قال: هاهنا أقوامٌ يَعترفون بنَفيِ الشُّركاءِ والأندادِ، ومع ذلك يقولون: إنَّهم يَخلقون أفعالَ أنفسِهم؛ فذَكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ لتكونَ مُعينةً في الرَّدِّ عليهم(١).

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ إنْ كان الخلْقُ بمعنى التَّقديرِ، فكيف جاء ﴿فَقَدَّرَهُ﴾؛ إذ يَصيرُ المعنى: وقدَّرَ كلَّ شَيءٍ يُقدِّرُه تقديرًا، وكيف جمَعَ بيْنهما؟

الجوابُ: أنَّ الخلْقَ مِن اللهِ هو الإيجادُ؛ فصَحَّ الجمْعُ بيْنه وبيْن التَّقديرِ، والمعنى أنَّه أحدَثَ كلَّ شَيءٍ إحداثًا مُراعًى فيه التَّقديرُ والتَّسويةُ، فقدَّرَه وهيَّأَهُ لِمَا يَصلُحُ له. أو سمَّى إحداثَ اللهِ خلْقًا؛ لأنَّه لا يُحدِثُ شيئًا -لحِكْمتِه- إلَّا على وَجْهِ التَّقديرِ مِن غيرِ تفاوُتٍ، فإذا قِيل: خلَقَ اللهُ كذا، فهو بمَنزِلةِ قولِك: أحدَثَ وأوجَدَ، مِن غيرِ نظَرٍ إلى وَجهِ الاشتقاقِ، فكأنَّه قِيل: وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، فقدَّرَهُ في إيجادِه لم يُوجِدْه مُتفاوِتًا. وقيل: فجعَلَ له غايةً ومُنتهًى، ومعناهُ: فقدَّرَه للبقاءِ إلى أمدٍ معلومٍ، ولو سُلِّمَ أنَّه التَّقديرُ، فساغ الجمْعُ بيْنهما لاختلافِهما لفظًا(٢).

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ مَخلوقٌ لله تعالى؛ لأنَّه تعالى عابَ هؤلاء الكفَّارَ مِن حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلقُ شَيئًا، وذلك يدُلُّ على أنَّ مَن خَلَقَ يَستحقُّ أن يُعبَدَ، فلو كان العبدُ خالِقًا لكان مَعبودًا إلهًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠، ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٤٧).

٢٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لَمَّا اعتقَدَ المُشرِكون فيها أنَّها تضُرُّ وتنفَعُ، عبَّر عنها كما يعبَّرُ عمَّا يعقِلُ(١).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسوقَ للخَصمِ ما يُقِرُّ به لُزومًا؛ حتى تقومَ الحُجَّةُ عليه، فهؤلاء الذين جَعَلوها آلهةً لا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها تخلُقُ، ولا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها غيرُ مخلوقةٍ(٢).

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَرُدُّ مَشيئةَ العبادِ إلى أنفُسِهم؛ إذْ لو كانتِ المشيئةُ إليهم لكانوا مالِكينَ لضَرِّهم ونَفْعِهم، وقد نفاهما اللهُ تعالى عنهم، كما نفَى عنهم الموتَ والحياةَ والنُّشورَ(٣).

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على البَعثِ؛ لأنَّه تعالى ذَكَرَ النُّشورَ، ومعناه أنَّ المعبودَ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على إيصالِ الثَّوابِ إلى المُطيعينَ، والعقابَ إلى العُصاةِ، فمَن لا يكونُ كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٣).

قال ابنُ تيميَّة: (إنَّ العَبدَ له مَشيئةٌ، وهي تابِعةٌ لِمَشيئةِ اللهِ، كما ذكَرَ اللهُ ذلك في عِدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦]، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٤).

وقال أيضًا: (له مَشيئةٌ لكُلِّ ما يَفعَلُه باختيارِه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وكُلُّ ذلك إنَّما يكونُ بمَشيئةِ اللهِ وقُدرتِه؛ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بهذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٤٠).

وَجَبَ ألَّا يَصلُحَ للإلهيَّةِ[1].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ زيَّف الله تعالى فيه مذهَبَ عَبَدةِ الأوثانِ، وبيَّنَ نُقصانَها مِن وجوهٍ:

أحدُها: أنَّها ليستْ خالقةً للأشياءِ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على الخلْقِ والإيجادِ.

وثانيها: أنَّها مخلوقةٌ؛ والمخلوقُ محتاجٌ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ غنيًّا.

وثالثُها: أنَّها لا تَمِلكُ لأنفُسِها ضرًّا ولا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فهو لا يملكُ لغيرِه أيضًا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فلا فائدةَ في عبادتِه.

ورابعُها: أنَّها لا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، أي: لا تَقدِرُ على الإحياءِ والإماتةِ في زمانِ التكليفِ، وثانيًا في زمانِ المجازاةِ، ومَن كان كذلك كيف يسمَّى إلهًا؟! وكيف يَحْسُنُ عبادتُه مع أنَّ حقَّ مَن يحقُّ له العبادةُ أنْ يُنْعِمَ بهذه النِّعَمِ المخصوصةِ[2]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ افتتاحٌ بديعٌ؛ لِنُدرةِ أمثالِه في كَلامِ بُلغاءِ العرَبِ؛ لأنَّ غالبَ فواتحِهم أنْ تكونَ بالأسماءِ مُجرَّدةً أو مُقترِنةً بحرفٍ غيرِ مُنفصِلٍ، أو بأفعالِ المُضارَعةِ ونحوِها، أو بحروفِ التَّأكيدِ أو الاستفهامِ أو التَّنبيهِ، مثْلُ (إنَّ) و(قد) والهمزةِ و(هَلْ). وبهذه النُّدرةِ يكونُ في طالعِ هذه السُّورةِ بَراعةُ المَطلَعِ؛ لأنَّ النُّدرةَ مِن العِزَّةِ، والعِزَّةُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣١).

مَحاسنِ الألفاظِ، وضِدُّها الابتذالُ[١].

- وقولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ...﴾ على القولِ بأنَّه إخبارٌ عن عَظَمةِ اللهِ، وتوفُّرِ كَمالاتِه؛ فيكونُ المقصودُ به التَّعليمَ والإيقاظَ، ويجوزُ مع ذلك أنْ يكونَ كِنايةً عن إنشاءِ ثَناءٍ على اللهِ تعالى؛ أنشَأَ اللهُ به ثَناءً على نفْسِه كقولِه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، على طريقةِ الكلامِ العربيِّ في إنشاءِ التَّعجُّبِ مِن صِفاتِ المُتكلِّمِ في مَقامِ الفخرِ والعظَمةِ، أو إظهارِ غرائبَ صدَرَتْ[٢].

- كلمةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ لا تُستعمَلُ إلَّا للهِ بلَفظِ الماضي، وقد ذُكِرَت في هذه السُّورةِ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ تعظيمًا للهِ تعالى، وخُصَّتْ مَواضُعها بذِكْرِها؛ لِعِظَمِ ما بعْدَها:

الأوَّلُ: ذِكْرُ الفُرقانِ، وهو القُرآنُ، المُشتمِلُ على معاني جميعِ كُتبِ اللهِ.

والثَّاني: ذِكْرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُخاطَبةُ اللهِ له فيه.

والثَّالثُ: ذِكْرُ البُروجِ، والشَّمسِ والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، ولولاها -بعْدَ اللهِ- لَمَا وُجِدَ في الأرضِ حيوانٌ ولا نَباتٌ[٣].

- قَولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فيه إبرازُ تَنزيلِ الفُرقانِ في مَعْرِضِ الصِّلةِ الَّتي حَقُّها أنْ تكونَ مَعلومةَ الثُّبوتِ للمَوصولِ عندَ السَّامعِ مع إنكارِ الكَفَرةِ له؛ لإجرائِه مُجْرى المَعلومِ المُسلَّمِ؛ تَنبيهًا على كَمالِ قُوَّةِ دَلائلِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٢، ٤٠٣).

وكونِه بحيثُ لا يَكادُ يَجْهلُه أحدٌ[١]. والموصولُ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ يُومِئُ إلى عِلَّةِ ما قبْلَه؛ فهو كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الفُرقانِ وبَرَكتِه على النَّاسِ مِن ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، فتلك مِنَّةٌ عظيمةٌ تُوجِبُ الثَّناءَ على اللهِ. وهو أيضًا كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: المُفرَّقَ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-، وجاء في أثناءِ السُّورةِ بعْدَ آياتٍ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أنزَلْناهُ مُفرَّقًا، كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ فيكونُ وصْفُه بالفُرقانِ في أوَّلِ السُّورةِ -واللهُ أعلَمُ- كالمُقدِّمةِ والتَّوطئةِ لِمَا يأْتي بعْدُ[٣].

- ووَصْفُ النَّبيِّ بـ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ تَقريبٌ له، وتَمهيدٌ لإبطالِ طلَبِهم منه في قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] الآيةَ[٤]. وإيرادُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا بذلك العُنوانِ؛ لتَشريفِه، والإيذانِ بكَونِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أقصى مَراتبِ العُبوديَّةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلَّا عبْدًا للمُرسِلِ؛ ردًّا على النَّصارى[٥].

- قَولُه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

لمُراعاةِ الفواصلِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث اقتصَرَ في وصْفِ الرَّسولِ هنا على النَّذيرِ دونَ البشيرِ، كما في قولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]؛ لأنَّ المقامَ هنا لتَهديدِ المُشركينَ؛ إذ كذَّبوا بالقُرآنِ وبالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكان مُقْتضيًا لذِكْرِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ، وفي ذلك اكتِفاءٌ؛ لأنَّ البِشارةَ تَخطُرُ ببالِ السَّامعِ عندَ ذِكْرِ النِّذارةِ. وسيَجِيءُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ في هذه السُّورةِ [الآية: ٥٦][٢]؛ ففي اختصاصِ النَّذيرِ دونَ البشيرِ سُلوكُ طريقِ بَراعةِ الاستهلالِ، والإيذانُ بأنَّ هذه السُّورةَ مُشتمِلةٌ على ذِكْرِ المُعانِدينَ المُتَّخِذينَ للهِ ولدًا وشريكًا، الطَّاعنينَ في كُتبِه ورُسلِه واليومِ الآخِرِ[٣]. وقيل: اقتصرَ على النِّذارةِ؛ للإشارةِ إلى البِشارةِ بلفظِ ﴿تَبَارَكَ﴾[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ على القولِ بأنَّ مَحلَّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها[٥]. وعلى أنَّ قولَه: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]؛ فإعادةُ اسمِ الموصولِ لاختلافِ الغرَضِ مِن الصِّلتينِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

الصِّلةَ الأُولى في غرَضِ الامتِنانِ بتَنزيلِ القُرآنِ للهُدى، والصِّلةَ الثَّانيةَ في غرَضِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بالوَحدانيَّةِ(٦).

- وقولُه: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ توطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِه: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾، وأردَفَه بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ كَوْنَه بَديعَ السَّمواتِ والأرضِ، ومُفطِرَهما، ومالِكَهما، مُنافٍ لاتِّخاذِ الولَدِ والشَّريكِ(٧).

- وقد أُجْرِيَت على اسمِ اللهِ تعالى هذه الصِّفاتُ الأربعُ -﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾- بطريقِ تَعريفِ الموصوليَّةِ؛ لأنَّ بعضَ الصِّلاتِ مَعروفٌ عندَ المُخاطَبينَ اتِّصافُ اللهِ به، وهما الصِّفتانِ الأُولى والرَّابعةُ؛ وإذ قد كانَتَا مَعلومتينِ كانت الصِّلتانِ الأُخْرَيانِ المذْكورتانِ معهما في حُكْمِ المعروفِ؛ لأنَّهما أُجْرِيَتا على مَن عُرِفَ بالصِّلتينِ الأُولى والرَّابعةِ؛ فإنَّ المُشركين ما كانوا يَمترُون في أنَّ اللهَ هو مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولا في أنَّ اللهَ هو خالِقُ كلِّ شيءٍ، كما في قولِه: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الآياتِ [٨٦، ٨٧] مِن سُورةِ (المؤمنون)، ولكنَّهم يُثبِتون للهِ ولدًا وشريكًا في المُلْكِ. ومِن بَديعِ النَّظمِ أنْ جُعِلَ الوَصفانِ المُختلَفُ فيهما معهم مُتوسِّطَينِ بيْنَ الوصفينِ اللَّذينِ لا مِريةَ فيهما؛ حتَّى يكونَ الوَصفانِ المُسلَّمينِ كالدَّليلِ أوَّلًا، والنَّتيجةِ آخِرًا؛ فإنَّ الَّذي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ لا يَلِيقُ به أنْ يَتَّخِذَ ولدًا، ولا أنْ يَتَّخِذَ

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٧) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

شَريكًا؛ لأنَّ مُلْكَه العظيمَ يَقْتضي غِناهُ المُطْلَقَ، فيَقْتضي أنْ يكونَ اتِّخاذُه ولدًا وشريكًا عبَثًا؛ إذ لا غايةَ له، وإذا كانت أفعالُ العُقلاءِ تُصانُ عن العبَثِ؛ فكيف بأفعالِ أحكَمِ الحُكماءِ تعالى وتقدَّسَ[١]؟!

- ونظَمَ قولَه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ في سِلْكِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَه مِن الوُضوحِ والظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَجْهَله جاهِلٌ، لا سيَّما بعدَ تَقريرِ ما قبْلَه[٢].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وردٌّ على مَن جعَل لله شريكًا[٣]. وتَوسيطُ نفْيِ اتِّخاذِ الولدِ بيْنَهما؛ للتَّنبيهِ على استقلالِه وأصالَتِه، والاحترازِ عن تَوهُّمِ كونِه تَتِمَّةً للأوَّلِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الجُملةُ جاريةٌ مَجْرى التَّعليلِ لِمَا قبْلَها مِن الجُمَلِ المُنتظِمةِ مِثْلِها في سِلْكِ الصِّلةِ؛ فإنَّ خَلْقَه تعالى لجَميعِ الأشياءِ على ذلك النَّمطِ البديعِ -كما يَقْتضي استقلالَه تعالى باتِّصافِه بصِفاتِ الأُلوهيَّةِ- يَقْتضي انتظامَ كلِّ ما سِواهُ كائنًا ما كان تحت مَلَكوتِه القاهِرِ، بحيثُ لا يَشِذُّ عنها شَيءٌ مِن ذلك قطْعًا، وما كان كذلك كيف يُتوَهَّمُ كونُه ولدًا له سُبحانه أو شَريكًا في مُلْكِه[٥]؟!

- وفرَّعَ على (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) قولَه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ لأنَّه دليلٌ على إتْقانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الخلْقِ إتقانًا يدُلُّ على أنَّ الخالقَ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ[(١)].

- وقولُه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ فيه تأكيدُ الفِعْلِ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَقۡدِيرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه تقديرٌ كاملٌ في نَوعِ التَّقاديرِ[(٢)].

- وما جاء مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا بَراعةُ استهلالٍ بأغراضِها، وهو يَتنزَّلُ مَنزِلةَ خُطبةِ الكِتابِ أو الرِّسالةِ[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ استطرادٌ لانتهازِ الفُرصةِ لوَصفِ ضَلالِ أهْلِ الشِّركِ، وسَفالةِ تَفكيرِهم؛ فهو عطفٌ على جُملةِ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان: ٢] وما تلاها ممَّا هو استِدلالٌ على انفرادِه تعالى بالإلهيَّةِ، وأُرْدِفَت بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الفرقان: ٢] الشَّاملِ لِكَونِ ما اتَّخَذوه مِن الآلهةِ مَخلوقاتٍ؛ فكان ما تقدَّمَ مُهيِّئًا للتَّعجيبِ مِن اتِّخاذِ المُشركين آلهةً دونَ ذلك الإلهِ المَنعوتِ بصِفاتِ الكَمالِ والجلالِ؛ فالخبَرُ غيرُ مَقصودٍ به الإفادةُ، بلْ هو للتَّعجُّبِ مِن حالِهم: كيف قابَلوا نِعمةَ إنزالِ الفُرقانِ بالجَحدِ والطُّغيانِ، وكيف أشْرَكوا بالَّذي تلك صِفاتُه آلهةً أُخرى، صِفاتُهم على الضِّدِّ مِن صِفاتِ مَن أشْرَكوهم به؟! وإلَّا فإنَّ اتِّخاذَ المُشركين آلهةً أمرٌ معلومٌ لهم وللمُؤمِنينَ؛ فلا يُقصَدُ إفادتُهم لحُكْمِ الخبرِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ فيه إضمارٌ في مَوضعِ الإظهارِ، والإضمارُ مِن غَيرِ جَرَيانِ ذِكْرِهم؛ للثِّقةِ بدَلالةِ ما قبْلَه مِن نفْيِ الشَّريكِ عليهم[(١)].

- وذكَرَ في هذه الآيةِ مِن أقوالِهم المُقابِلةِ للجُمَلِ الموصوفِ بها اللهُ تعالى؛ اهتمامًا بإبطالِ كُفْرِهم المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك أصْلُ الكُفرِ ومادَّتُه[(٢)]؛ فجُملةُ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ مُقابِلةُ جُملةَ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٢]. وجُملةُ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مُقابِلةُ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ ولَدَ الخالقِ يجِبُ أنْ يكونَ مُتولِّدًا منه، فلا يكونُ مَخلوقًا. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مُقابِلةُ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ الشَّرِكةَ في المُلْكِ تَقْتضي الشَّرِكةَ في التَّصرُّفِ. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ مُقابِلةُ جُملةَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ أعظَمَ مَظاهِرِ تَقديرِ الخلْقِ هو مَظهَرُ الحياةِ والموتِ، وذلك مِن المُشاهَداتِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ فهو تَكميلٌ لِقَرْعِ المُشركينَ نُفاةِ البَعثِ؛ لأنَّ نفْيَ أنْ يكونَ الآلهةُ يَمْلِكون نُشورًا يَقْتضي إثباتَ حَقيقةِ النُّشورِ في نفْسِ الأمْرِ؛ إذ الأكثَرُ في كلامِ العرَبِ أنَّ نَفْيَ الشَّيءِ يَقْتضي تحقُّقَ ماهيَّتِه[(٣)].

- قَولُه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيه وَصْفُ الآلهةِ بانتفاءِ إنشائِهم شيئًا مِن الأشياءِ؛ إشارةً إلى انتفاءِ القُدرةِ بالكُلِّيَّةِ، ثمَّ بأنَّهم مَخلوقونَ للهِ ذاتًا، أو مَصْنوعون بالنَّحتِ والتَّصويرِ على شكْلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

مَخصوصٍ، وهذا أبلَغُ في الخَساسةِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قاله هنا بالضَّميرِ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، وقالَه في سُورةِ (مُريمَ) و(يسَ) بلفْظِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ [مريم: ٨١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]؛ مُوافَقةً لِمَا قبْلَه في المواضعِ الثَّلاثةِ؛ فآيةُ (الفُرقانِ) تَقدَّمَ قبْلَها اسمُه سُبحانه مَكْنيًّا عنه جلَّ وعلا في قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾؛ فورَدَ اسمُه سُبحانه مَكْنيًّا عنه ثمانيَ مرَّاتٍ: أوَّلُها الموصولُ، وهو الَّذي مِن قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي﴾، وفاعلُ ﴿نَزَّلَ﴾ المُضْمَرُ، والضَّميرُ في ﴿عَبۡدِهِۦ﴾، والموصولُ الثَّاني، والضَّميرُ المجرورُ باللَّامِ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، والضَّميرُ في ﴿لَّهُۥ﴾ المجرورُ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَخَلَقَ﴾؛ فلمَّا تكرَّرَ اسمُه مَكْنيًّا عنه ثمانيَ مرَّاتٍ جَرى بعْدَ ذلك في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ مُضْمَرًا على حُكْمِ ما تقدَّمَ، فما في هذه السُّورةِ وافَق ما قبْلَه، أمَّا في السُّورتينِ فلو جاءَ (مِن دونِه) لخالَف ما قبلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه في السُّورتينِ بلفظِ الجَمعِ؛ تعظيمًا، فصرَّح؛ فجاء كلٌّ مِن الآيتينِ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[(٢)].

- والتَّنصيصُ على قولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾؛ لبَيانِ عجْزِهم عمَّا هو أهْوَنُ مِن هذه الأمورِ مِن دفْعِ الضَّرِّ وجلْبِ النَّفعِ؛ للتَّصريحِ بعَجْزِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٢).

عن كلِّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ على التَّفصيلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الإلهَ يجِبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك. وفيه إيذانٌ بغايةِ جَهْلِهم وسَخافةِ عُقولِهم، كأنَّهم غيرُ عارفينَ بانتفاءِ ما نُفِيَ عن آلهتِهم مِن الأمورِ المذكورةِ، مُفْتَقِرون إلى التَّصريحِ بذلك[١].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فقدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ هنا، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (الرَّعدِ): ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]. ووَجْهُ ذلك: أن ما في سُورةِ (الفُرقانِ) بُنِيَ على ما قبْلَه، وهو ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وقولُه: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ نفْيٌ، وقولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إثباتٌ؛ فقدَّمَ النَّفيَ على الإثباتِ، وكان الضَّرُّ نفْيًا، والنَّفعُ إثباتًا؛ إذِ النَّفعُ إثباتُ المصالحِ وإيجادُها؛ والضَّرُّ نفْيُها، فكما قَدَّمَ فيما قبْلَه ما نَفى على ما أثبَتَ، حمَلَ المعطوفَ عليه لِيكونَ مُشاكِلًا له. وأمَّا في سُورةِ (الرَّعدِ) فإنَّه قدَّمَ فيها الأفضلَ على الأنقَصِ؛ لأنَّ اجتلابَ النَّفعِ أشرَفُ مِن استدفاعِ الضَّرِّ، وهو رُتْبةٌ فَوقَه؛ فمَن فاته ذلك طلَبَ دفْعَ الضَّرِّ، فهو على وَجْهِه في التَّرتيبِ[٣]. وقيل: قدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ؛ لمُناسَبةِ ما بعْدَه مِن تَقديمِ الموتِ على الحياةِ[٤]. وقيل: تَقديمُ ذِكْرِ الضَّرِّ؛ لأنَّ دَفْعَه -مع كونِه أهَمَّ في نفْسِه- أوَّلُ مَراتبِ النَّفعِ وأقدمُها[٥]. وقيل: قولُه هنا: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ جَرَى مَجْرى المثَلِ لقَصْدِ الإحاطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٥٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

بالأحوالِ؛ فكأنَّه قيل: لا يَمْلِكون التَّصرُّفَ بحالٍ مِن الأحوالِ. وهذا نظيرُ أنْ يُقالَ: شَرْقًا وغرْبًا، وليلًا ونَهارًا. وبذلك يَندفِعُ ما يُشكِلُ في باديءِ الرَّأيِ مِن وجْهِ نفْيِ قُدرتِهم على إضرارِ أنفُسِهم بأنَّه لا تَتعلَّقُ إرادةُ أحدٍ بضَرِّ نفْسِه، وبذلك أيضًا لا يُتطلَّبُ وجْهٌ لتَقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ؛ لأنَّ المقامَ يَقْتضي التَّسويةَ في تَقديمِ أحَدِ الأمْرينِ؛ فالمُتكلِّمُ مُخيَّرٌ في ذلك، والمُخالَفةُ بيْن الآياتِ في تَقديمِ أحَدِ الأمرينِ مُجرَّدُ تَفنُّنٍ[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٠).

الآيات (٤-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِفۡكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وقيل: هو أسوأُ الكذبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُه: يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقَه، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، ويُقالُ: افترَى فلانٌ على فلانٍ: إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُه: ما عظُم مِن الكَذِبِ[2].

﴿وَزُورٗا﴾: الزُّورُ: الباطِلُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وقد غَلَب على الكَذِبِ، وقيل للكَذِبِ: زورٌ؛ لكونِه مائِلًا عن طريقةِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[3].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[4].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: أي: اختلَقها واستَنسخَها، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿تُمۡلَىٰ﴾: أي: تُلقَى وتُقرَأُ، مِن قَولِهم: أمليتُ عليك الكِتابَ وأملَلْتُ، وهو إلقاءُ الكلامِ لِمن يكتُبُ ألفاظَه أو يَرويها أو يحفَظُها[٢].

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[٣].

﴿وَأَصِيلٗا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْن العَصرِ إلى اللَّيلِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى بعضَ الشُّبهاتِ التي أثارها المشركونَ حوْلَ القرآنِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلقَه محمَّدٌ مِن عِندِه، وأعانه على اختِلاقِه قَومٌ مِن غيرِ قَومِه! فقد أتى هؤلاء الكُفَّارُ الكاذِبون بظُلمٍ وكَذِبٍ.

ثمَّ يَذكرُ تعالى شُبهةً أُخرَى مِن شُبُهاتِهم الفاسدةِ، وهي أنَّهم قالوا: ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ استنسَخَها منهم محمَّدٌ، فهي تُقرأُ عليه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه!

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالردِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَلَ القُرآنَ هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، إنَّه غفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يعودُ إلى التَّوحيدِ؛ انتقَلَ إلى ما يعودُ إلى الرِّسالةِ؛ وذلك لأنَّ الشَّهادةَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه محمَّدٌ، وليس هو مِن عندِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

أي: وأعان محمَّدًا على اختِلاقِ هذا القُرآنِ أُناسٌ ذَوو قُدرةٍ وكفايةٍ مِن غَيرِ قَومِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

أي: فقد أتى الكُفَّارُ بظُلمٍ وكَذِبٍ ومَيْلٍ عن الحَقِّ، حينَ وصَفوا القُرآنَ بغيرِ صِفتِه، ورَمَوُا النبيَّ بالكَذِبِ على اللهِ[١].

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: هذا القُرآنُ عِبارةٌ عن أكاذيبِ الأُمَمِ الأوَّلين وقَصَصِهم المسطَّرةِ في كُتُبِهم، استنسَخها منهم محمَّدٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٥-٤٠).

قال ابن كثير: (وهذا الكلامُ -لسخافتِه وكَذِبِه وبَهْتِه منهم- كلُّ أحدٍ يعلَمُ بُطلانَه؛ فإنَّه قد عُلِم بالتواتُرِ وبالضَّرورةِ أنَّ محمدًا رسولَ الله لم يكُنْ يعاني شيئًا مِن الكتابةِ، لا في أوَّلِ عُمُرِه ولا في آخِرِه، وقد نشأ بيْن أظهُرِهم مِن أوَّلِ مَولِدِه إلى أنْ بعَثَه اللهُ نحوًا مِن أربعين سنةً، وهم يَعرِفون مَدخَلَه ومَخرَجَه، وصِدقَه وبِرَّه وأمانتَه، ونزاهتَه مِن الكَذِبِ والفُجورِ وسائرِ الأخلاقِ الرذيلةِ، حتى إنَّهم لم يكونوا يسمُّونَه في صِغَرِه إلى أنْ بُعِث إلَّا الأمينَ؛ لِما يَعلمون مِن صِدقِه وبِرِّه. فلمَّا أكرَمَه الله بما أكرَمَه به نصَبوا له العداوةَ، ورَمَوه بهذه الأقوالِ التي يعلَمُ كُلُّ عاقلٍ براءتَه منها، وحاروا ماذا يَقذِفونَه به؛ فتارةً مِن إفكِهم يقولون: ساحِرٌ، وتارةً يقولون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارةً يقولون: كذَّابٌ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

قال السمين الحلبي: (﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: الافتِعالُ هنا يجوز أنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكِتابتِها، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

أي: فهذه الأساطيرُ التي اكتَتَبها محمَّدٌ تُقرأُ عليه في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه؛ ليَحفَظَها(١).

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٦﴾.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَل القُرآنَ المشتَمِلَ على الأسرارِ -كالإخبارِ بالأمورِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ- هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، ولا يخفَى عليه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

= كافتَصَد واحتَجَم، إذا أَمَر بذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان أُمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتُبُ، ويكونَ كقَولِهم: اسْتَكَبَّه واصْطَبَّه، أي: سَكَبَه وصَبَّه. والافتِعالُ مُشْعِرٌ بالتكَلُّفِ. ويجوز أنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ، مِن الكَتْبِ: وهو الجَمْعُ، لا مِنَ الكتابةِ بالقلَمِ). ((الدر المصون)) (٨/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ جزي: (ويعني بالسِّرِّ: ما أسَرَّه الكُفَّارُ مِن أقوالِهم، أو يكونُ ذلك على وَجهِ التنَصُّلِ والبراءةِ مِمَّا نَسَبه الكُفَّارُ إليه مِنَ الافتراءِ، أي: أنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرِّي، فهو العالِمُ بأنِّي ما افترَيتُ عليه، بل هو أنزَلَه علَيَّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بكُلِّ شَيءٍ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن عَلِم استِخفافَ غَيرِه به وكان قادِرًا عليه، عاجَلَه بالأخذِ- أُجيبَ مَن كأنَّه قال: فما له لا يُهلِكُ المكذِّبين له؟ بقَولِه -مرَغِّبًا لهم في التوبةِ، مشيرًا إلى قُدرتِه بالسَّترِ والإنعامِ، ومبيِّنًا لفائدةِ إنزالِه إليهم هذا الذِّكرَ مِن الرُّجوعِ عمَّا تمادت عليه أزمانُهم مِن الكُفرِ وأنواعِ المعاصي-[١]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ لم يَزَلْ يستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها ويرحَمُهم، ومِن رحمتِه بهم أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، ويَقبَلُ منهم التَّوبةَ[٢].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّه لم يَزَلْ يصفَحُ عن خَلقِه ويرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بعَفوِه، يقول: فلأنَّ ذلك مِن عادتِه في خَلقِه يمهِلُكم أيُّها القائلونَ ما قلْتُم مِن الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلْتُم مِن الكُفرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١).

وقال ابنُ كثير: (دعاءٌ لهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلمَه عَظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

وقال البِقاعي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أزلًا وأبدًا ﴿غَفُورًا﴾ أي: بليغَ السَّترِ لِما يريدُ مِن ذنوبِ عبادِه؛ بألَّا يعاتِبَهم عليها، ولا يؤاخِذَهم بها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم في الإنعامِ عليهم بعْدَ خَلقِهم؛ برزقِهم، وتركيبِ العُقولِ فيهم، ونَصْبِ الأدلَّةِ لهم، وإرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكتُبِ فيهم، ولإمهالِهم في تكذيبِهم، أي: فليس لإمهالِهم ووعْظِهم بما نزَّله إليهم سبَبٌ إلَّا رحمتُه وغفرانُه وعِلمُه بأنَّ كتابَه صَلاحٌ لأحوالِهم في الدارينِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٢).

كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أنزلَه مَن أحاط عِلْمُه بما في السَّمواتِ وما في الأرضِ؛ مِنَ الغَيبِ والشَّهادةِ، والجَهرِ والسِّرِّ، وذِكْرُ عِلمِه تعالى العامِّ يُنَبِّهُهم ويَحُضُّهم على تدَبُّرِ القُرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرَأَوا فيه مِن عِلمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ[(١)].

٢- مع إنكارِهم للتَّوحيدِ والرِّسالةِ؛ مِن لُطفِ اللهِ بهم أنَّه لم يَدَعْهم وظُلْمَهم، بل دعاهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ إليه، ووَعَدَهم بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ إنْ هم تابوا ورَجَعوا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ أي: وَصْفُه المَغفِرةُ لأهلِ الجرائِمِ والذُّنوبِ إذا فَعَلوا أسبابَ المَغفِرةِ، وهي الرُّجوعُ عن مَعاصيه، والتَّوبةُ منها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم؛ حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ وقد فَعَلوا مُقتَضاها، وحيثُ قَبِلَ تَوبتَهم بعْدَ المعاصي، وحيثُ مَحا ما سَلَف مِن سَيِّئاتِهم، وحيثُ قَبِلَ حَسَناتِهم، وحيثُ أعاد الرَّاجِعَ إليه بعْدَ شُرودِه، والمُقبِلَ عليه بَعدَ إعراضِه- إلى حالةِ المُطيعينَ المُنِيبينَ إليه[(٢)]، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذه الذُّنوبَ مع بُلوغِها الغايةَ في العِظَمِ مَغفورةٌ إن تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصِلةٌ إليهم بَعْدَها؛ فلا ييأَسوا منها بما فَرَط منهم[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٥٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ هذا القَولُ منهم فيه عِدَّةُ عَظائِمَ:

منها: رَميُهم الرَّسولَ -الذي هو أبَرُّ النَّاسِ وأصدَقُهم- بالكَذِبِ، والجُرأةُ العَظيمةُ.

ومنها: إخبارُهم عن هذا القُرآنِ -الذي هو أصدَقُ الكَلامِ وأعظَمُه وأجَلُّه- بأنَّه كَذِبٌ وافتِراءٌ.

ومنها: أنَّ في ضِمنِ ذلك أنَّهم قادِرون أن يأتوا بمِثلِه، وأن يضاهيَ المخلوقُ النَّاقِصُ مِن كُلِّ وجهٍ الخالِقَ الكامِلَ مِن كُلِّ وجهٍ، بصفةٍ مِن صِفاتِه، وهي الكلامُ.

ومنها: أنَّ الرَّسولَ قد عُلِمت حالتُه، وهم أشَدُّ النَّاسِ عِلمًا بها؛ أنَّه لا يكتُبُ ولا يجتَمِعُ بمَن يكتُبُ له، وقد زعموا ذلك[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّ فيه مِن الأسرارِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ أنزله، فذِكرُه ذلك يُستدَلُّ به تارةً على أنَّه حَقٌّ مُنزَّلٌ مِن اللهِ؛ لِكَونِه تضمَّنَ مِن الأخبارِ عن أسرارِ السَّمَواتِ والأرضِ والدُّنيا والأوَّلينَ والآخِرينَ، وسِرِّ الغيبِ، ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ. فمِن هنا نستَدِلُّ بعِلمِنا بصِدقِ أخبارِه أنَّه مِن الله، وإذا ثبَت أنَّه أنزَله بعِلمِه تعالى استدلَلْنا بذلك على أنَّ خبَرَه حَقٌّ، وإذا كان خبرًا بعِلمِ اللهِ فما فيه مِن الخبَرِ يُستدَلُّ به عن الأنبياءِ وأُمَمِهم، وتارةً عن يومِ القيامةِ وما فيها، والخبَرُ الذي يُستدَلُّ به لا بدَّ أن نعلَمَ صِحَّتَه مِن غيرِ جِهتِه، وذلك كإخبارِه بالمستقبَلاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

فوقعت كما أخبَرَ، وكإخباره بالأُمَمِ الماضية بما يوافِقُ ما عندَ أهلِ الكتابِ مِن غيرِ تعلُّمٍ منهم، وإخبارِه بأمورٍ هي سِرٌّ عندَ أصحابِها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣] إلى قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]؛ فقولُه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِدلالٌ بأخبارِه[(١)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيه ردٌّ على ما زعَمه المشركونَ مِن اجتماعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَن يكتبُ له، ووجهُ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّ الذي أنزَله هو المحيطُ عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ، فيَستحيلُ ويمتَنِعُ أن يقولَ مخلوقٌ ويتقَوَّلَ عليه هذا القرآنَ، ويقولَ: هو مِن عندِ الله. وما هو مِن عندِه، ويستَحِلَّ دِماءَ مَن خالفَه وأموالَهم، ويزعُمَ أنَّ الله قال له ذلك. واللهُ يعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ومع ذلك فهو يؤيِّدُه وينصُرُه على أعدائِه، ويمكِّنُه من رِقابِهم وبلادِهم، فلا يمكِنُ أحدًا أن ينكِرَ هذا القُرآنَ إلَّا بعْدَ إنكارِ عِلمِ اللهِ، وهذا لا تقولُ به طائِفةٌ مِن بني آدمَ سِوى الفلاسفةِ الدهريَّةِ. وأيضًا فإنَّ ذِكرَ عِلمِه تعالى العامِّ ينَبِّهُهم ويحضُّهم على تدبُّرِ القرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرأوا فيه مِن عِلمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ أباطيلِهم المُتعلِّقةِ بالمُنزَّلِ والمُنزَّلِ عليه معًا، وإبطالِها[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ فيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيثُ لم يقُلْ: (وقالوا)؛ لإفادةِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ هو عِلَّةُ قولِهم هذا، أي: ما جرَّأهم على هذا البُهتانِ إلَّا إشراكُهم وتَصلُّبُهم فيه، وليس ذلك لشُبهةٍ تَبعَثُهم على هذه المقالةِ؛ لانتفاءِ شُبهةِ ذلك، بخِلافِ ما حُكِيَ آنفًا مِن كُفْرِهم باللهِ، فإنَّهم تلقَّوهُ مِن آبائِهم؛ فالوصفُ الَّذي أُجْرِيَ عليهم هنا مُناسِبٌ لِمَقالتِهم؛ لأنَّها أصْلُ كُفرِهم، وهذه الجُملةُ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]؛ فهي المقصودُ مِن افتِتاحِ الكلامِ كما آذنَتْ بذلك فاتِحةُ السُّورةِ. وإنَّما أُخِّرَت هذه الجُملةُ الَّتي تُقابِلُ الجُملةَ الأُولى، مع أنَّ مُقْتضَى ظاهرِ المُقابَلةِ أنْ تُذكَرَ هذه الجُملةُ قبْلَ جُملةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]؛ اهتمامًا بإبطالِ الكُفرِ المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ[١].

- والقصْرُ المُشتمِلُ عليه كلامُهم المُستفادُ مِن (إنْ) النَّافيةِ و(إلَّا) قصْرُ قلْبٍ[٢]؛ زعَموا به رَدَّ دَعوَى أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وإسنادُ هذا القولِ إلى جميعِ الكُفَّارِ؛ لأنَّه واقعٌ بيْن ظَهرانَيْهم، وكلُّهم يَتناقَلونَه، وهذه طريقةٌ مألوفةٌ في نِسْبةِ أمْرٍ إلى القَبيلةِ، كما يُقالُ: بنو أسَدٍ قَتَلوا حُجْرًا[٣]. وقيل: الموصولُ إمَّا عبارةٌ عن غُلاتِهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، والجمْعُ لمُشايَعةِ الباقينَ له في ذلك. وإمَّا عن كُلِّهم، ووَضْعُ الموصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٢) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقول: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

وحُجْرٌ هو الكِنديُّ، والدُ امرئِ القيسِ. يُنظر: ((أمثال العرب)) للمفضل الضبي (ص: ١٢٧).

لِذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإيذانِ بأنَّ ما تَفوَّهوا به كُفْرٌ عظيمٌ[(١)].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ مُتسلِّطٌ على كِلْتا الجُملتينِ، أي: لا يَخْلو هذا القُرآنُ -على زَعْمِهم- مِن مجموعِ الأمْرينِ؛ هما: أنْ يكونَ افْترى بعْضَه مِن نفْسِه، وأعانَه قومٌ على بَعضِه[(٢)].

- قَولُه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ فرَّعَ على حِكايةِ قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظُهورَ أنَّهم ارْتَكبوا بقولِهم ظُلْمًا وزُورًا؛ لأنَّهم حين قالوا ذلك ظهَرَ أنَّ قولَهم زُورٌ وظُلْمٌ؛ لأنَّه اختِلاقٌ واعتداءٌ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ لكنْ لا على أنَّهما أمْرانِ مُتغايرانِ حقيقةً، يقَعُ أحدُهما عَقِيبَ الآخَرِ أو يَحصُلُ بسبَبِه، بلْ على أنَّ الثَّانيَ هو عينُ الأوَّلِ حقيقةً، وإنَّما التَّرتيبُ بحسَبِ التَّغايُرِ الاعتباريِّ، و(قد) لتَحقيقِ ذلك المعنى؛ فإنَّ ما جاؤوه مِن الظُّلمِ والزُّورِ هو عينُ ما حُكِيَ عنهم؛ لكنَّه لمَّا كان مُغايرًا له في المفهومِ، وأظهَرَ منه بُطلانًا، رُتِّبَ عليه بالفاءِ تَرتيبَ اللَّازمِ على الملزومِ؛ تَهويلًا لأمْرِه[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ للتَّفخيمِ[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: تُمْلى عليه طرفَيِ النَّهارِ، وهذا مُستعمَلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٢).

كِنايةً عن كثرةِ المُمارَسةِ لِتَلقِّي الأساطيرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا جَوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾، وقولِهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ على الأُسلوبِ الحَكيمِ[٢]، أي: قُلْ يا محمَّدُ: ليس هذا مِن افترائي، ولا هو مُمْلًى علَيَّ، بلْ مُنزَّلٌ مِن عندِ مَن يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في بواطِنِكم مِن الدَّهاءِ والمَكْرِ؛ لأنَّكم تَعلَمون عِلْمًا يقينًا أنَّ هذا ليس مِن قَبِيلِ الافتراءِ، ولا هو مِن الأساطيرِ؛ لأنَّه أعجَزَكم عن آخِرِكم بفَصاحَتِه، وأنَّه تضمَّنَ أخبارًا عن المُغيَّباتِ، وأسرارًا لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ غرَضَكم الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُجرَّدُ العِنادِ؛ ويُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وإقحامُه بيْن كَلامِهم، فسُبحانَه ما أرحَمَه وما أجَلَّه؛ حيث أمهَلَكُم ولم يُعاجِلْكم بالاستئصالِ لهذه العظيمةِ! فإذَنْ في قولِه: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ معنى التَّعجُّبِ[٣]، وقد ردَّ عليهم بوَصْفِه تعالى بالعِلْمِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ لم يكُنْ لِيَصدُرَ إلَّا مِن علَّامٍ بكلِّ المعلوماتِ؛ لِمَا احْتَوى عليه مِن إعجازِ التَّركيبِ الَّذي لا يُمكِنُ صُدورُه مِن أحدٍ ولوِ استعانَ بالعالَمِ كلِّهم، ولِاشتمالِه على مصالِحِ العالَمِ وعلى أنواعِ العُلومِ. واكْتَفى بعِلْمِ السِّرِّ؛ لأنَّ ما سِواهُ أولى أنْ يَتعلَّقَ عِلْمُه به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وَصْفُه تعالى بإحاطةِ عِلْمِه بجَميعِ المعلوماتِ الجَليَّةِ والخَفيَّةِ؛ للإيذانِ بانطواءِ ما أنزلَهُ على أسرارٍ مَطْويَّةٍ عن عُقولِ البشَرِ، مع ما فيه مِن التَّعريضِ بمُجازاتِهم بجِناياتِهم المَحْكيَّةِ الَّتي هي مِن جُملةِ مَعلوماتِه[1].

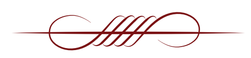
- وفي قولِه: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ عبَّرَ عن مُنزِلِ القُرآنِ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الصِّلةُ مِن استشهادِ الرَّسولِ اللهَ على ما في سِرِّهِ؛ لأنَّ اللهَ يعلَمُ كلَّ سِرٍّ في كلِّ مكانٍ؛ فجُملةُ الصِّلةِ مُستعمَلةٌ في لازمِ الفائدةِ، وهو كونُ المُتكلِّمِ -أي: الرَّسولِ- عالِمًا بذلك. وفي ذلك كِنايةٌ عن مُراقبَتِه اللهَ فيما يُبَلِّغُه عنه. وفي ذلك إيقاظٌ لهم بأنْ يَتدبَّروا في هذا الَّذي زعَمُوه إفْكًا أو أساطيرَ الأوَّلينَ؛ لِيَظهَرَ لهم اشتمالُه على الحقائقِ النَّاصعةِ الَّتي لا يُحِيطُ بها إلَّا اللهُ الَّذي يَعلَمُ السِّرَّ، فيُوقِنوا أنَّ القُرآنَ لا يكونُ إلَّا مِن إنزالِه، ولِيَعلموا بَراءةَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الاستعانةِ بمَن زَعَمُوهم يُعينونَه[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تَرغيبٌ لهم في الإقلاعِ عن هذه المُكابَرةِ، وفي اتِّباعِ دِينِ الحقِّ؛ لِيَغفِرَ اللهُ لهم ويَرحَمَهم، وذلك تَعريضٌ بأنَّهم إنْ لم يُقلِعوا ويَتوبوا حَقَّ عليهم الغضَبُ والنِّقمةُ. أو غفورًا رحيمًا في كونِه أمهَلَكم ولم يُعاجِلْكم على ما اسْتَوجَبْتُموه مِن العِقابِ بسبَبِ مُكابرَتِكم؛ فهو تَعليلُ ما هو المُشاهَدُ مِن تأخيرِ العُقوبةِ. أو لمَّا تقدَّمَ ما يدُلُّ على العِقابِ أعقَبَهُ بما يدُلُّ على القُدرةِ عليه؛ لأنَّ المُتَّصِفَ بالغُفرانِ والرَّحمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

قادرٌ على أنْ يُعاقِبَ[١]؛ فدلَّ قولُه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على القُدرةِ التَّامَّةِ الكاملةِ بالكِنايةِ. وفي إيثارِ هاتينِ الصِّفتينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تَعييرٌ لهم، ونعْيٌ على فِعْلِهم؛ يعني: إنَّكم فيما أنتم فيه بحيث يَتصدَّى لِعَذابِكم مَن صِفَتُه الغُفرانُ والرَّحمةُ. وقيل: ذكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأجْلِ أنْ يَعرِفوا أنَّ هذه الذُّنوبَ العظيمةَ المُتجاوِزةَ عن الحدِّ مَفقودةٌ إنْ تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصلةٌ إليهم بعْدَها، وألَّا ييْأَسوا مِن رَحمتِه بما فرَطَ منهم مع إصرارِهم عليه مِن المُعاداةِ والمُخاصَمةِ الشَّديدةِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٦).

الآيات (٧-١٠)

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَنزٌ﴾: أي: مالٌ عظيمٌ، وهو في الأصلِ: المالُ المَدْفونُ تحتَ الأرضِ، والكَنْزُ: جعْلُ المالِ بعضِه على بعضٍ، وحِفظُه، وأصلُ (كنز): يدُلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿جَنَّةٌ﴾: أي: بُستانٌ، وكُلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يستُرُ بأشجارِه الأرضَ يقالُ له: جنَّةٌ. وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ[(٢)].

﴿ٱلْأَمْثَٰلَ﴾: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى شبهةً ثالثةً مِن شُبَهِ المشركينَ، فيقولُ تعالى: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٦٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٢).

ما لمحمَّدٍ يأكُلُ الطَّعامَ ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ -معَ أنَّه رَسولٌ-؟! هلَّا أنزَلَ اللهُ إليه مَلَكًا مِن السَّماءِ يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُنذِرُ معه النَّاسَ إن كان صادِقًا، أو يُلقَى إليه كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه، ويُكفى به طلَبَ الرِّزقِ، أو يكونُ له بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه! وقال هؤلاء المُشرِكون: ما تتَّبِعون إلَّا رجلًا به سِحرٌ، وليس هو برَسولٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مهوِّنًا مِن شأنِهم، ومسلِّيًا لرسولِه: انظرْ -يا محمَّدُ- كيف جعَل هؤلاء المُشرِكون لك الأوصافَ الكاذِبةَ الباطِلةَ، فضَلُّوا بذلك عن الصَّوابِ، فلا يَستطيعون إلى ذلك طَريقًا!

تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بركاتُه؛ فهو الذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا ممَّا يقولُ المُشرِكون؛ بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ويجعَلْ لك بُيوتًا عظيمةً في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه مِن ذِكرِ ما طَعَنوا به على القُرآنِ؛ ذَكَر ما طَعَنوا به على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما لمحمَّدٍ -الذي يزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ- يأكُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٣).

الطَّعامَ كما نأكُلُ، ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ والتجارةِ كما نمشي[(١)]؟!

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

أي: هلَّا أنزَلَ اللهُ إلى محمَّدٍ مَلَكًا مِن الملائكةِ، يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُعينُه على إنذارِ النَّاسِ وتبليغِ رسالتِه، إن كان صادِقًا في دعواه أنَّه رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[(٢)]!

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

أي: أو يُلقَى إلى محمَّدٍ كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه فيُغنيه عن طَلَبِ المعاشِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى حكايةً لِقَولِ فِرعَونَ عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧).

قال العليمي: (وكُتِبت اللامُ في المصحفِ مفرَدةً مِن قولِه: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾، واتِّباعُه سُنَّةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٩، ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).

﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿نَأْكُلُ﴾ بالنونِ، أي: أو تكونُ له جَنَّةٌ يُطعِمُنا منها، فنتيقَّنُ أنَّ ثَمَرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ[١].

٢- قراءةُ ﴿يَأۡكُلُ﴾ بالياءِ، أي: يختَصُّ الرَّسولُ بالأكلِ مِن الجنَّةِ، فيَبينُ فَضلُه على غيرِه في مأكَلِه[٢].

﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَا﴾.

أي: أو يكونُ لمحمَّدٍ بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه، فيستغني بذلك عن طَلبِ الرِّزقِ[٣].

---

(١) قرأ بها حمزة، والكسائي، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).
قال البقاعي: (وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالنونِ يكونُ المعنى: أنَّا إذا أمكنَّا منها، كان ذلك أجلَبَ لنا إلى اتِّباعِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٥).
وقال ابنُ عاشورٍ: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ: (نأكُلُ منها) بنونِ الجماعةِ. والمعنى: ليتيقَّنوا أنَّ ثمرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).
قال الزمخشري: (يَعْنُونَ أنَّه كان يجِبُ أن يكونَ مَلَكًا مستغنيًا عن الأكلِ والتعَيُّشِ، ثمَّ نزَلوا عن اقتراحِهم أن يكونَ مَلَكًا إلى اقتراحِ أن يكونَ إنسانًا معه ملَكٌ؛ حتى يَتسانَدَا في الإنذارِ والتَّخويفِ، ثمَّ نزَلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكُنْ مَرْفودًا بملَكٍ فلْيَكُنْ مَرفودًا بكَنزٍ يُلقى إليه من السَّماءِ يَستظهِرُ به، ولا يحتاجُ إلى تحصيلِ المعاشِ، ثمَّ نزلوا فاقتنعوا بأن يكونَ رجُلًا له =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩١].

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

أي: وقال المُشرِكون: ما تتَّبِعون[1] إلَّا رجُلًا مِن البَشَرِ به سِحرٌ، وليس رسولًا مِن عندِ اللهِ كما يزعُمُ، فهو رجلٌ مَخدوعٌ مَغلوبٌ على أمرِه، ومختَلُّ العَقلِ بالسِّحرِ[2].

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)﴾.

أي: انظُرْ -يا محمَّدُ- إلى هؤلاء المُشرِكين كيف يجعَلونَ لك هذه الأوصافَ، ويقولون فيك هذه الأقوالَ الباطلةَ المُتناقِضةَ، فأخطَؤوا بذلك الحَقَّ والصوابَ، فلا يَستطيعون إليه طَريقًا[3]!

= بستانٌ يأكُلُ منه ويرتَزِقُ كما الدَّهاقينِ والمياسيرِ، أو يأكلون هُم مِن ذلك البُستانِ فينتَفِعون به في دنياهم ومعاشِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥).

(١) قيل: الخطابُ هنا للمؤمنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥).

قال ابنُ جرير: (وقال المشركون للمؤمنينَ بالله ورسولِه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيُّها القومُ، باتِّباعِكم محمَّدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤).

وقيل: الخطابُ لِقَومِهم المشركين، فقال ذلك بعضُهم لبعضٍ. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: مكِّيٌّ، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير =

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ابتُدِئت السورةُ بتعظيمِ اللهِ وثَنائِه على أنْ أنزَل الفُرقانَ على رسولِه، وأعقَبَ ذلك بما تلقَّى به المشرِكون هذه المزيَّةَ مِن الجُحودِ والإنكارِ النَّاشئِ عن تمسُّكِهم بما اتَّخَذوه مِن آلهةٍ مِن صِفاتِهم ما يُنافي الإلهيَّةَ، ثمَّ طعنوا في القُرآنِ والذي جاء به بما هو كُفرانٌ للنِّعمةِ ومَن جاء بها، فلَمَّا أُريدَ الإعراضُ عن باطلِهم، والإقبالُ على خِطابِ الرَّسولِ بتَثبيتِه وتثبيتِ المؤمنين؛ أُعِيدَ اللَّفظُ الذي ابتُدِئتْ به السورةُ على طريقةِ وصْلِ الكَلامِ، بقَولِه تعالى[(١)]:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

أي: تعاظَمَ الله وكَمَلَت أوصافه وكثُرتْ خيراته ودامتْ وثبتتْ بَرَكاتُه؛ فهو الَّذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا مِمَّا اقترَحه المشركونَ؛ بساتينَ عديدةً في الدُّنيا[(٢)]

= ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٣، ٥٤).

قال البِقاعي: (﴿فَضَلُّواْ﴾ أي: عن جميعِ طُرُقِ العَدلِ، وسائرِ أنحاءِ البيانِ بسبَبِ ذلك، فلم يجِدوا قولًا يستقِرُّون عليه، وأبعدوا جِدًّا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ في الحالِ ولا في المآلِ؛ بسببِ هذا الضَّلالِ ﴿سَبِيلًا﴾ أي: سُلوكَ سَبيلٍ مِن السُّبُلِ الموصِلةِ إلى ما يستحِقُّ أن يُقصَدَ، بل هم في مجاهِلَ مُوحِشةٍ، وفيافيَ مُهلِكةٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه أقوالٌ كثيرةٌ مُتقارِبةٌ، وأظهَرُها أنَّ معنى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا إلى الحَقِّ والصَّوابِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٢) وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ وُقوعُ ذلك في الدُّنيا: الواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعي، والعليمي، =

تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ[١].

﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالرفعِ على الاستِئنافِ، وفيه معنى الحَتمِ، أي: وسيجعَلُ اللهُ لك -يا محمَّدُ- قُصورًا في الجنَّةِ[٢].

٢- قراءة ﴿وَيَجۡعَل﴾ بالجَزمِ؛ عَطفًا على موضِعِ ﴿جَعَلَ﴾ أي: إن يَشَأِ اللهُ يجعَلْ لك -يا محمَّدُ- جَناتٍ، ويجعَلْ لك قُصورًا في الدُّنيا[٣].

= والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٨).

ونسَبه ابنُ عاشورٍ للجمهورِ، ثمَّ قال: (وعلى هذا التأويلِ تكونُ «إن» الشَّرطيةُ واقعةً موقعَ «لو»، أي: إنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءه لفعَلَه، ولكِنَّ الحكمةَ اقتضت عدَمَ البَسطِ للرَّسولِ في هذه الدُّنيا، ولكنَّ المشركين لا يدركون المطالِبَ العاليةَ. وقال ابنُ عطيةَ: يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالجنَّاتِ والقصورِ ليست التي في الدُّنيا، أي: هي جناتُ الخُلدِ وقصورُ الجنَّةِ؛ فيكونَ وعدًا مِن الله لرسولِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠، ٣٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠١).

ومِمَّن اختار أنَّها في الآخرةِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥ - ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

قال السمعانيُّ: (بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨).

وقال البقاعي: (﴿جَنَّٰتٖ﴾ فضلًا عن جَنَّةٍ واحدةٍ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: تكونُ أرضُها عُيونًا نابعةً، أيُّ موضعٍ أُريدَ منه إجراءُ نهرٍ جرى، فهي لا تزال رَيًّا تُغْني صاحِبَها عن كلِّ حاجةٍ، ولا تُحوِجُه في استِثمارِها إلى سقيٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣). =

﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾.

أي: وإن شاء اللهُ جعَلَ لك -يا محمَّدُ- بيوتًا مُشَيَّدةً عَظيمةً واسِعةً في الدُّنيا[(١)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ إباحةُ دخولِ الأسواقِ للعُلماءِ وأهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، خلافًا لِمَن كرِهَها لهم[(٢)].

٢- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، ومُرادُهم فاسِدٌ مِن وَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّه ليس يُوجِبُ اختِصاصُه بالمَنزِلةِ نَقْلَه عن مَوضِعِ الخِلْقةِ؛ لأمرَينِ: أحَدُهما: أنَّ كُلَّ جِنسٍ قد يَتفاضَلُ أهلُه في المَنزِلةِ، ولا يَقتَضي تمييزَهم في الخِلْقةِ، كذلك حالُ مَن فُضِّلَ في الرِّسالةِ. الثَّاني: أنَّه لو نُقِلَ عن مَوضوعِ الخِلْقةِ بتَمييزِه بالرِّسالةِ لصار مِن غَيرِ جِنسِهم، ولَمَا كان رسولًا منهم، وذلك مِمَّا تَنفِرُ منه النُّفوسُ.

وأمَّا الوَجهُ الثَّاني: فهو أنَّ الرِّسالةَ لا تَقتَضي مَنْعَه مِنَ المَشْيِ في الأسواقِ؛ لأمرَينِ:

أحَدُهما: أنَّ هذا مِن أفعالِ الجَبابِرةِ، وقد صان اللهُ رَسولَه عن التجَبُّرِ.

الثَّاني: لحاجتِه لدُعاءِ أهلِ الأسواقِ إلى نبُوَّتِه، ومُشاهدةِ ما هم عليه مِن مُنكَرٍ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

يَمنَعُ منه، ومَعروفٍ يُقِرُّ عليه[١].

٣- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ قَولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ العَجَبُ لجَهلِهم حين أرادوا أن يُلقَى إليه كَنزٌ، أو تكونَ له جَنَّةٌ، ولو فَهِموا عَلِموا أنَّ كُلَّ الكُنوزِ له، وجَميعَ الدُّنيا مِلكُه! أَوَليس قد قَهَر أربابَ الكُنوزِ، وحَكَم في جميعِ المُلوكِ؟! وكان مِن تمامِ مُعجزتِه أنَّ الأموالَ لم تُفتَحْ عليه في زَمَنِه؛ لئَلَّا يَقولَ قائِلٌ: قد جَرَت العادةُ بأنَّ إقامةَ الدُّوَلِ وقَهْرَ الأعداءِ بكَثرةِ الأموالِ! فتَمَّت المُعجِزةُ بالغَلَبةِ والقَهرِ مِن غَيرِ مالٍ، ولا كَثرةِ أعوانٍ، ثمَّ فُتِحَت الدُّنيا على أصحابِه، ففَرَّقوا ما جَمَعه الملوكُ بالشَّرَهِ، فأخرَجوه فيما خُلِقَ له، ولم يُمسِكوه إمساكَ الكافِرينَ؛ لِيُعَلِّموا النَّاسَ بإخراجِ ذلك المالِ: أنَّ لنا دارًا سِوى هذه، ومَقَرًّا غَيرَ هذا[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا أوردَ الشُّبُهاتِ على نفْسِه أو على مَن أتَى بالحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه، إذا لم يَقبَلِ الإنسانُ الحقَّ، ويدَعْ ما يَرِدُ على خاطرِه مِن الشُّبُهاتِ حوْلَ ذلك الحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾، الفاءُ عاطفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ نَفيُ الاستِطاعةِ المذكورةِ هنا كقَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٣).

(٢) الفائِدةُ لابنِ هُبَيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٤).

١٠١][1]، وهذه الاستِطاعةُ نَفْيُها إنَّما هو بحَسَبِ مَشيئةِ اللهِ مِن مُعاقَبةِ الإنسانِ على ذنْبٍ مِن ذُنوبِه، وقد دَلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُسَبِّبُ للإنسانِ الضَّلالةَ بِسَببِ ارتكابِ الذُّنوبِ، كما يُسَبِّبُ له الهُدى بسَبَبِ الطَّاعاتِ؛ فالعَبدُ إذا سارَعَ إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، وإلى ما يُسْخِطُ اللهَ؛ عاقَبه اللهُ بأنْ زادَه ضَلالًا فَوقَ ضَلالِه، وظَلامًا على ظَلامِه، وجاءه الطَّبعُ والخَتمُ على قَلْبِه، والغِشاوةُ على عَينِه؛ بسَبَبِ كُفرِه وبَغْيِه وتمَرُّدِه على اللهِ، ومِن هنالك يُعلَمُ أنَّ اللهَ يَجعَلُ الحَسَناتِ وطاعةَ اللهِ سَبَبًا لهُدى عَبْدِه، كما أنَّ السَّيِّئاتِ والمُبادرةَ إلى ما لا يُرضيه تكونُ سَبَبًا للرَّينِ على القُلوبِ والطَّبعِ عليها، كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في الهُدى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأمثالِ ذلك مِنَ الآياتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢) و (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الاستِطاعةُ نوعانِ: مُتقَدِّمةٌ صالِحةٌ للضِّدَّينِ، ومُقارِنةٌ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ؛ فتلك هي المُصَحِّحةُ للفِعلِ المجَوِّزةُ له، وهذه هي المُوجِبةُ للفِعلِ المحَقِّقةُ له، قال الله تعالى في الأُولى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولو كانت هذه الاستِطاعةُ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ لَما وَجَب الحَجُّ إلَّا على مَن حَجَّ، ولَما عَصى أحَدٌ بتَركِ الحَجِّ، ولا كان الحَجُّ واجِبًا على أحدٍ قبْلَ الإحرامِ به، بل قبْلَ فَراغِه! وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأمَرَ بالتَّقوى بمِقدارِ الاستِطاعةِ، ولو أراد الاستِطاعةَ المُقارِنةَ لَما وَجَب على أحدٍ مِن التَّقوى إلَّا ما فَعَل فقط؛ إذ هو الذي قارنَتْه تلك الاستِطاعةُ... ونظائِرُ هذا مُتعَدِّدةٌ؛ فإنَّ كُلَّ أمرٍ عُلِّقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ وُجوبُه بالاستطاعةِ، وعَدَمُه بعَدَمِها- لم يُرَدْ به المقارَنةُ، وإلَّا لَمَا كان اللهُ قد أوجَبَ الواجباتِ إلَّا على مَن فعَلَها، وقد أسقَطَها عمَّن لم يفعَلْها، فلا يأثَمُ أحدٌ بتَركِ الواجِبِ المذكورِ. وأمَّا «الاستِطاعةُ المُقارِنةُ المُوجِبةُ» فمِثلُ قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقولِه: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، فهذه الاستِطاعةُ هي المُقارِنةُ المُوجِبةُ؛ إذ =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ هذا انتِقالٌ مِن حِكايةِ مَطاعِنِهم في القُرآنِ، وبَيانِ إبطالِها، إلى حِكايةِ مَطاعِنِهم في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّميرُ في ﴿وَقَالُواْ﴾ عائدٌ إلى الَّذين كَفَروا؛ فمدلولُ الصِّفةِ مُراعًى كما تقدَّمَ[١].

- قولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ...﴾ (ما) استِفهاميَّةٌ بمعنى إنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه، وهذا الاستِفهامُ استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو بُطلانُ كَونِه رَسولًا؛ بِناءً على أنَّ التَّعجُّبَ مِن الدَّعوى يَقْتضي استحالتَها أو بُطلانَها. وتركيبُ ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ ونحوِه يُفيدُ الاستِفهامَ عن أمْرٍ ثابتٍ له؛ فمَثارُ الاستِفهامِ في هذِه الآيةِ هو ثُبوتُ حالِ أكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ للَّذي يَدَّعي الرِّسالةَ مِن اللهِ. وفي قولِهم: (هذا) تَصغيرٌ لشأْنِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَسميَتُهم له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا بطريقِ الاستهزاءِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو أجْرَوا عليه وصْفَ الرِّسالةِ؛ مُجاراةً منهم لقولِه، وهم لا يُؤمِنون به[٢]، ولكنَّهم بنَوا عليه؛ لِيتأتَّى لهم التَّعجُّبُ، والمُرادُ منه الإحالةُ والإبطالُ[٣].

= الأُخرى لا بدَّ منها في التَّكليفِ؛ فالأُولى: هي الشَّرعيَّةُ التي هي مَناطُ الأمرِ والنَّهيِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وعليها يَتكلَّمُ الفُقَهاءُ، وهي الغالِبةُ في عُرفِ النَّاسِ. والثَّانيةُ: هي الكونيَّةُ التي هي مَناطُ القَضاءِ والقَدَرِ، وبها يتحَقَّقُ وُجودُ الفِعلِ؛ فالأُولى للكَلِماتِ الأَمْريَّاتِ الشَّرعيَّاتِ، والثَّانيةُ للكَلِماتِ الخَلْقيَّاتِ الكَونيَّاتِ. ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) والقاعِدةُ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القُرآنِ على اعتِقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ، وهو يَقَعُ في القُرآنِ على أنواعٍ مُتعَدِّدةٍ؛ منها: نوعٌ يَخرُجُ على اعتقادِ المُخاطَبِ سواءٌ وافَقَ الواقِعَ أم لا، إلَّا أنَّ المتكلِّمَ لا يَعتقِدُه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي =

- قَولُه: ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كَنَوْا بأكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ عن مُماثَلةِ أحوالِه لأحوالِ النَّاسِ؛ تذَرُّعًا منهم إلى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لِزَعْمِهم أنَّ الرَّسولَ عن اللهِ تكونُ أحوالُه غيرَ مُماثِلةٍ لأحوالِ النَّاسِ، وخَصُّوا أكْلَ الطَّعامِ والمشْيَ في الأسواقِ؛ لأنَّهما مِن الأحوالِ المُشاهَدةِ المُتكرِّرةِ[1]. وفي قولِه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كِنايةٌ عن الحدَثِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ أكْلَ الطَّعامِ. وفي ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كِنايةٌ عن طلَبِ المعاشِ[2].

- و(لولا) في قولِهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ حَرفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ[3].

- وفي قولِهم: ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ خصُّوا مِن أحوالِ الرَّسولِ حالَ النِّذارةِ؛ لأنَّها هي الَّتي أنبتَتْ حِقْدَهم عليه[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾

- عبَّر بالإلقاءِ -وهو الرميُ- عن الإعطاءِ مِن عندِ اللهِ[5].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهرِ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ لِيُسجِّلَ عليهم بالظُّلمِ، وتجاوُزِ الحدِّ فيما

= حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٢٨).

قالوهُ؛ لكونِه إضلالًا خارجًا عن حدِّ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن نِسبَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَسْحُوريَّةِ[١]؛ فـ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ هم المُشرِكون، فغيَّرَ عُنوانَهم الأوَّلَ إلى عنوانِ الظُّلمِ وهمْ همْ؛ تَنبيهًا على أنَّ في هذا القولِ اعتداءً على الرَّسولِ، بنَبْزِه بما هو بريءٌ منه، وهم يَعلمون أنَّه ليس كذلك؛ فظُلْمُهم له أشدُّ ظُلْمٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢]. وأفاد الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ هنا أيضًا: أنَّ هذا القَولُ ظُلْمٌ مِن أيِّ إنسانٍ وقَع؛ لأنَّه للتعليل، فهذا القولُ يعتبَرُ مِن الظلْمِ؛ فيكونُ الأمرُ شامِلًا، يعني: أنَّ كُلَّ مَن قال فهو ظالِمٌ. وأفاد أيضًا تنبيهَ المخاطَبِ؛ لأنَّ اختلافَ الكَلامِ أو اختِلافَ النَّسَقِ في الكلامِ يوجِبُ الانتباهَ[٣].

- وأسنَد القَولَ إلى جميعِ الظَّالِمين؛ لأنَّهم تلقَّفوه ولَهِجوا به[٤].

- وذكَرَ ﴿رَجُلًا﴾ في قولِهم: ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ لتَمهيدِ استِحالةِ كونِه رسولًا؛ لأنَّه رجُلٌ مِن النَّاسِ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ مُؤكِّدًا لمعنى مَضمونِ الكلامِ، ومَسْلاةً لقلْبِه صلواتُ اللهِ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كالجوابِ عن قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلى آخِره، على سبيلِ التَّعريضِ التَّوبيخيِّ، ويكونَ قولُه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ﴾ إضْرابًا عن قولِه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾(١).

- قَولُه: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ فُرِّعَ على هذا التَّعجُّبِ ﴿كَيۡفَ ضَرَبُواْ﴾ إخبارٌ عنهم بأنَّهم ضَلُّوا في تَلْفيقِ المطاعِنِ في رِسالةِ الرَّسولِ، فسَلَكوا طَرائقَ لا تصِلُ بهم إلى دَليلٍ مُقنِعٍ على مُرادِهم، وهو هنا تعجُّبٌ مِن خطَلِهم، وإعراضٌ عن مُجاوبَتِهم(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ استِئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ الجَوابِ عن قولِهم: ﴿أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ ...﴾ [الفرقان: ٨]، أي: إنْ شاءَ جعَلَ لك أفضَلَ مِن الَّذي اقترحوهُ، أي: إنْ شاء عَجَّلَه لك في الدُّنيا؛ فالإشارةُ إلى المذكورِ مِن قولِهم(٣). وعدَمُ التَّعرُّضِ لجَوابِ الاقتراحَينِ الأوَّلَينِ -﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ﴾-؛ للتَّنبيهِ على خُروجِهما عن دائرةِ العقْلِ، واستغنائِهما عن الجوابِ؛ لظُهورِ بُطلانِهما ومُنافاتِهما للحِكمةِ التَّشريعيَّةِ(٤).



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

الآيات (١١-١٦)

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا مُتَّقِدةً، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه[١].

﴿تَغَيُّظًا﴾: أي: غَضَبًا شَديدًا، والغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ التي يجِدُها الإنسانُ مِن فَوَرانِ دَمِ قَلبِه[٢].

﴿وَزَفِيرًا﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدُلُّ على صَوتٍ[٣].

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي: مُوثَقينَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجُلُهم إلى رِقابِهم، يقالُ: قَرَنتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا شدَدْتَه به

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٠).

ووصَلْتَه، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(١)].

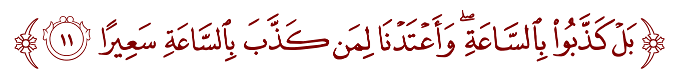
﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، وأصلُ (ثبر) هنا: الهلاكُ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ مِن البعثِ، وما أعدَّه لهم مِن جزاءٍ، فيقولُ: قد كذَّب هؤلاء المُشرِكون بالبَعثِ يومَ القيامةِ، وقد هيَّأنا لهم نارًا شديدًا حَرُّها، إذا رأتْهم مِن مكانٍ بعيدٍ سَمِعوا صوتَ لهيبِها وصوتَ زَفيرِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وإذا طُرِحوا في مكانٍ ضَيِّقٍ مِن النَّارِ وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ، دَعَوا على أنفُسِهم بالهلاكِ لِيَستريحوا من العَذابِ. فيقولُ خَزَنةُ النَّارِ لهم: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا، بل اطلُبوا هلاكًا كثيرًا؛ فلن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا.

ثُمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ لهم ما أعدَّ الله سبحانَه للمتَّقينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: أذلك العذابُ خَيرٌ أم جَنَّةُ الخُلدِ التي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ، قد كانت ثوابًا لهم، ومَصيرًا يَصيرونَ إليها يومَ القيامةِ؟! ولهؤلاء المتَّقين ما يشاؤونَ في الجنَّةِ، لابثينَ فيها أبدًا، وكان هذا الوَعدُ وَعدًا واجِبًا.

تَفسيرُ الآياتِ:


﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١)﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥١٨) و(١٦/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت تلك الأقوالُ التي قالوها معلومةَ الفسادِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها لم تصدُرْ منهم لطَلَبِ الحقِّ، ولا لاتِّباعِ البُرهانِ، وإنَّما صَدَرتْ منهم تَعَنُّتًا وظُلمًا وتكذيبًا بالحَقِّ، فقالوا ما بقُلوبِهم مِن ذلك؛ ولهذا قال[1]:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾

أي: لا تظُنَّ أنَّهم كذَّبوا بما جئتَ به مِن الحَقِّ -يا محمَّدُ- لأنَّهم يعتَقِدونَ فيك كَذِبًا وافتراءً للقُرآنِ، أو نُقصانًا؛ لأكلِك الطَّعامَ ومَشيِكَ في الأسواقِ، وإنَّما سبَبُ كُفرِهم وتكذيبِهم واقتراحِهم ما اقترَحوه هو عَدَمُ إيمانِهم بالبَعثِ يومَ القيامةِ[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

أي: وهيَّأنا وأرصَدْنا لِمن أنكَرَ البَعثَ يومَ القيامةِ مِن هؤلاء المُشرِكين وغَيرِهم نارًا مُوقَدةً شَديدةَ الحرارةِ، نعَذِّبُهم فيها في الآخرةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٦].

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢)﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

أي: إذا رأتْ تلك النَّارُ أهلَها الكُفَّارَ يومَ القيامةِ مِن مكانٍ بَعيدٍ، سَمِعوا صَوتَ غَلَيانِها وتلهُّبِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وسَمِعوا لها صوتَ زَفيرٍ؛ مِن غَضَبِها وحَنَقِها عليهم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨].

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه مُلاقاتَها لهم؛ وَصَفَ إلقاءَهم فيها، فقال تعالى[(٢)]:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

أي: وإذا طُرِح الكُفَّارُ في مكانٍ ضَيِّقٍ في النَّارِ، وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ[(٣)]- رفعوا أصواتَهم بطَلَبِ الهلاكِ؛ ندَمًا على تَركِهم الإيمانَ، وانصرافِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤).

قال ابنُ جريرٍ: (فإن قال قائلٌ: وكيف قيل: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [الفرقان: ١٢]، والتغيُّظُ لا يُسمَعُ؟ قيل: معنى ذلك: سمَعِوا لها صوتَ التغَيُّظِ؛ مِن التلَهُّبِ والتوَقُّدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وللعُلماءِ أقوالٌ في معنى الزَّفيرِ والشَّهيقِ، وأقربُها: أنَّهما يمثِّلُهما معًا صوتُ الحِمارِ في نهيقِه؛ فأوَّلُه زَفيرٌ، وآخِرُه الذي يرَدِّدُه في صَدرِه شَهيقٌ. والأظهَرُ أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ أي: سَمِعوا غلَيانَها مِن شِدَّةِ غَيظِها، ولَمَّا كان سبَبُ الغَلَيانِ التغيُّظَ، أطلَقَه عليه، وذلك أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤).

(٣) قيل: المرادُ قُرِنَت أيديهم إلى أعناقِهم في الأغلالِ. ومِمَّن قال ذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

عن طاعةِ الرَّحمنِ، وتمنِّيًا للمَوتِ لِيَستريحوا مِن العذابِ(١).

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩].

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ١٤﴾

أي: يقولُ خَزَنةُ النَّارِ للكُفَّارِ: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا في النَّارِ، بل اطلُبوا كثيرًا مِن ذلك، فعَذابُكم مستَمِرٌّ ومتجَدِّدٌ، ولن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

= (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٦٦).

وقيل: مُقَرَّنًا بعضُهم إلى بَعضٍ في الأصفادِ والسلاسِلِ، كحالِ الأسرى والمساجينِ: أن يُقرَنَ عدَدٌ منهم في وِثاقٍ واحِدٍ، أو يُقرنوا مع الشياطين. وممَّن قال بذلك في الجملة: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، وابن عطية، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧).

ومِمَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٧، ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وصَفَ الله تعالى حالَ العِقابِ المعَدِّ للمُكَذِّبين بالسَّاعةِ؛ أتبَعَه بما يؤكِّدُ الحَسرةَ والنَّدامةَ(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه جزاءَ الظَّالمين؛ ناسَبَ أن يَذكرَ جزاءَ المتَّقين، فقال تعالى(٢):

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للكُفَّارِ: أذلك العذابُ المستَمِرُّ في النَّارِ خيرٌ، أم جنَّةُ الخُلدِ الدَّائمُ نعيمُها، التي وعَد اللهُ بها الذين يتَّقون سَخَطَه وعذابَه؛ بامتِثالِ ما يأمُرُهم، واجتِنابِ ما يَنهاهم(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾.

أي: كانت الجنَّةُ ثَوابًا للمتَّقينَ على تَقواهم وأعمالِهم الصَّالحةِ، ومَرجِعًا يَصيرون إليها في الآخرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾.

أي: للمتَّقينَ في الجنَّةِ ما يَشاؤون ممَّا تَشتهيه أنفُسُهم، لابثينَ فيها أبدًا بلا زَوالٍ عنها، ولا انقِطاعٍ لنَعيمِها[1].

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾.

أي: كان دُخولُ المتَّقينَ الجنَّةَ وَعدًا واجِبًا لا بدَّ أن يقَعَ في الآخرةِ؛ جزاءً لهم على طاعتِهم ربَّهم، وسؤالِهم ذلك في الدُّنيا[2].

كما قال تعالى حاكيًا عنهم قولَهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ * فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٤، ١٩٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- احتُجَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ على أنَّ النارَ -التي هي دارُ العِقابِ- مَخلوقةٌ؛ لأنَّ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ إخبارٌ عن فِعلٍ وقَعَ في الماضي؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢).

قال ابنُ القيم: (﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ يَسألُه إيَّاه عبادُه المؤمنون، ويَسألُه إيَّاه ملائكتُه لهم؛ فالجنَّةُ تَسألُ رَبَّها أهلَها، وأهلُها يسألونَه إيَّاها، والملائكةُ تسألُها لهم، والرسُلُ يسألونَه إيَّاها لهم ولأتْباعِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٠).

فدلَّتِ الآيةُ على أنَّ دارَ العِقابِ مَخلوقةٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ التَّحقيقُ أنَّ النَّارَ تُبصِرُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ، كما صَرَّح اللهُ بذلك في قَولِه هنا: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، ورؤيتُها إيَّاهم مِن مكانٍ بَعيدٍ تدُلُّ على حِدَّةِ بَصَرِها، كما لا يخفى، كما أنَّ النَّارَ تتكَلَّمُ، كما صرَّح اللهُ به في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠]، والأحاديثُ الدَّالَّةُ على ذلك كثيرةٌ؛ كحَديثِ مُحاجَّةِ النَّارِ مع الجنَّةِ[٢]، وكحديثِ اشتكائِها إلى رَبِّها، فأذِنَ لها في نفَسَينِ[٣]، ونحوِ ذلك، ويكفي في ذلك أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا صَرَّحَ في هذه الآيةِ أنَّها تَراهم، وأنَّ لها تغيُّظًا على الكُفَّارِ، وأنَّها تقولُ: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣٠]. واعلَمْ أنَّ ما يزعُمُه كَثيرٌ مِن المفَسِّرينَ، وغيرُهم مِن المنتسبينَ للعِلمِ مِن أنَّ النَّارَ لا تُبصِرُ ولا تتكَلَّمُ ولا تغتاظُ، وأنَّ ذلك كُلَّه مِن قَبيلِ المجازِ، أو أنَّ الذي يفعَلُ ذلك خزَنتُها: كُلُّه باطِلٌ، ولا مُعَوَّلَ عليه؛ لمخالفتِه نُصوصَ الوَحيِ الصَّحيحةَ بلا مُستَنَدٍ، والحَقُّ هو ما ذكَرْنا[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ جُعِلَ إزجاؤُهم إلى النَّارِ مِن مكانٍ بعيدٍ زِيادةً في النِّكاية بهم؛ لأنَّ بُعدَ المكانِ يَقتضي زِيادةَ المَشقَّةِ إلى الوُصولِ، ويَقتضي طُولَ الرُّعبِ ممَّا سمِعوا[٥].

٤- قال تعالى: ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾، وكذلك في (الأنعام) في قولِه تعالى: ﴿يَجۡعَلۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣).

صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال في (هود) ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: ١٢]، فما وجهُ التعبيرِ في سورة (هود) بقولِه: (ضائق) على وزنِ (فاعلٍ)، وفي (الفرقان) و(الأنعام) بقولِه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على وزنِ (فَيْعِل)، مع أنَّه في المواضعِ الثلاثةِ هو الوصفُ مِن ضاق يَضيقُ، فهو ضيِّقٌ؟

والجوابُ عن هذا: أنَّ قولَه تعالى في سورةِ (هود): ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: ١٢] أُريدَ به أنَّه يحدثُ له ضِيقُ الصدرِ، ويتجدَّدُ له بسببِ عنادِهم وتعنتِهم في قولِهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، ولَمَّا كان كذلك، قيل فيه: (ضائق) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ. أمَّا قولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ في (الفرقان) و(الأنعام) فلمْ يُرَدْ به حدوثٌ؛ ولذلك بقيَ على أصلِه، فقد تقرَّر في فنِّ الصرفِ أنَّ جميعَ أوزانِ الصفةِ المشبَّهةِ باسمِ الفاعلِ إنْ قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ جاءت على وزنِ (فاعل) مطلَقًا، وإن لم يُقصَدْ به الحدوثُ والتجدُّدُ بقيَ على أصلِه[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّ الجنةَ ستصيرُ للمتقين جزاءً ومصيرًا؛ لكنها بعْدُ ما صارتْ كذلك، فلِمَ قال تعالى: ﴿كَانَتۡ﴾؟!

أجيبَ مِن أوجُهٍ:

الأول: أنَّها أحيانًا تدُلُّ على مجرَّدِ الحدثِ، لا على الزمنِ؛ لأنَّ الفعلَ كما هو معروفٌ يدُلُّ على زمنٍ ومعنًى، فـ(كان) دائمًا تأتي للدَّلالةِ على مجرَّدِ المعنى فقط، يعني التي وُعِد المتقون وهي لهم جزاءٌ ومصيرٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

الثاني: أنَّ ما وعدَه اللهُ تعالى فهو في تحقُّقِه كالواقعِ، كأنَّه قد كان.

الثالثُ: أنَّه كان مكتوبًا في اللوحِ المحفوظِ قبْلَ أنْ يَخْلُقَهم اللهُ تعالى بأزمنةٍ متطاولةٍ أنَّ الجنةَ جزاؤُهم ومصيرُهم[١].

٦- قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ أهلَ الجنةِ يجِدونَ كلَّ ما يَشاؤُونه مِن أنواعِ النعيمِ[٢]، وهي كالتَّنبيهِ على أنَّ حصولَ المراداتِ بأسْرِها لا يكونُ إلَّا في الجنَّةِ، فأمَّا في غَيرِها فلا يحصُلُ ذلك، بل لا بُدَّ في الدُّنيا مِن أن تكونَ راحاتُها مَشوبةً بالجِراحاتِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجنةَ جُعِلَتْ لهم بحُكمِ الوَعدِ والتفَضُّلِ، لا بحُكمِ الاستِحقاقِ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إضرابٌ عن تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم السَّابقةِ، وانتِقالٌ منه إلى تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم الأُخرى؛ للتَّخلُّصِ إلى بَيانِ ما لهم في الآخرةِ بسَبَبِها مِن فُنونِ العذابِ[٥]. وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ انتقالٍ مِن ذِكْرِ ضَلالِهم في صِفَةِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذِكْرِ ضَلالِهم في إنكارِ البَعثِ، على تأويلِ أنَّ قولَه: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] بمعنى: أنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءَه لَفعلَه. ويجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ إبطالٍ لِمَا تَضمَّنَه قولُه: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾، على تأويلِ أنَّه وعْدٌ بإيتائِه ذلك في الآخرة[١].

- قولُه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فيه قَصْرُ تَكذيبِهم على السَّاعةِ؛ لأنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، فَهُم بما وراءَهُ أحْرى تَكذيبًا[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ مُعترِضةٌ بالوَعيدِ لهم، وهو -لعُمومِه- يَشمَلُ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم؛ فهو تَذييلٌ. ومِن غرَضِه مُقابَلةُ ما أعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ في العاقبةِ بما أعدَّهُ للمُشرِكين[٣].

- قولُه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وضْعُ (السَّاعة) مَوضِعَ ضَميرِها حيثُ لم يقُلْ: (لِمَن كذَّبَ بها)؛ للمُبالَغةِ في التَّشنيع[٤]. وهذا الاعتدادُ وإن كان ليس بسبَبِ تكذيبِهم بها خاصَّةً، بل يُشارِكُه في السببيَّةِ له ارتكابُهم الأباطيلَ في أمرِ التَّوحيدِ وأمرِ النبُوَّةِ؛ إلَّا أنَّه لَمَّا كانت السَّاعةُ نَفسُها هي العِلَّةَ القَريبةَ لدخولِهم السعيرَ؛ أُشيرَ بما ذُكِرَ إلى سببيَّةِ التَّكذيبِ بها لدُخولِها، ولم يتعَرَّضْ للإشارةِ إلى سببيَّةِ شَيءٍ آخَرَ. وقيل: إنَّ مَن كذَّب بالساعةِ صار كالاسمِ لأولئك المشرِكين، والمكذِّبين برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمكَذِّبين بالسَّاعةِ، أي: الجامعين للأوصافِ الثلاثةِ؛ لأنَّ التكذيبَ بها أخَصُّ صِفاتِهم القبيحةِ، وأكثَرُ دَوَرانًا على ألسنتِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٣٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم ...﴾ فيه نِسبةُ الرُّؤيةِ إليها لا إليهم؛ للإيذانِ بأنَّ التَّغيُّظَ والزَّفيرَ منها لِهَيجانِ غضَبِها عليهم عندَ رُؤيتِها إيَّاهم[(١)].

- وفي التَّعبيرِ بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بيْنَها وبيْنَهم مِن المسافةِ -حينَ رأتْهم- خارجٌ عن حُدودِ البُعدِ المُعتادِ في المسافاتِ المعهودةِ، وفيه مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِها[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ هذا وَصْفٌ لوُصولِهم إلى جهنَّمَ مِن مَكانٍ بعيدٍ، ووَضْعِهم فيها؛ صِيغَ نظْمُه في صُورةِ تَوصيفِ ضَجيجِ أهْلِ النَّارِ مِن قولِه: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، وأدْمَجَ في خلالِ ذلك وصْفَ داخلِ جهنَّمَ، ووَصْفَ وَضْعِ المُشركين فيها بقولِه: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وقولِه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ تفنُّنًا في أُسلوبِ الكلامِ[(٣)].

- قَولُه: ﴿أُلْقُوا۟﴾ الإلقاءُ: الرَّمْيُ، وهو كِنايةٌ عن الإهانةِ[(٤)].

- قَولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ صِفَةٌ لـ ﴿مَكَانًا﴾ مُفيدةٌ لزِيادةِ شِدَّةٍ؛ فإنَّ الكَرْبَ مع الضِّيقِ، كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِ الجنَّةِ بأنَّ عرْضَها السَّمواتُ والأرضُ[(٥)]؛ فقولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على القراءةِ بتَشديدِ الياءِ، والقِراءةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

بسُكونِها ﴿ضَيِّقًا﴾[١]؛ كلاهما للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مثْلُ مَيْتٍ ومَيِّتٍ؛ لأنَّ (الضَّيِّقَ) بالتَّشديدِ صِيغَةُ تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، و(الضِّيق) بالسُّكونِ وصْفٌ بالمصدرِ[٢].

- قَولُه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ المُقرَّنُ: المقرونُ؛ صِيغَتْ له مادَّةُ التَّفعيلِ للإشارةِ إلى شِدَّةِ القَرْنِ[٣].

- قَولُه: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ النِّداءُ كِنايةٌ عن التَّمنِّي، أي: تمنَّوُا الهلاكَ؛ للاستراحةِ مِن فظيعِ العذابِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾

- قَولُه: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ على تَقديرِ (قولٍ) مَحذوفٍ؛ فهو منصوبٌ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿دَعَوْا﴾، أي: دَعَوهُ مقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأنْ يُخاطِبَهم الملائكةُ به؛ لِتَنبيهِهم على خُلودِ عَذابِهم، وأنَّهم لا يُجابونَ إلى ما يَدْعُونه، ولا يَنالون ما يَتمنَّوْنَه مِن الهلاكِ المُنجِّي. أو يكونُ تَمثيلًا وتَصويرًا لحالِهم بحالِ مَن يُقالُ له ذلك مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك قولٌ ولا خِطابٌ، أي: دَعَوهُ حالَ كونِهم أحقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك. وإمَّا مُستأنَفٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذَا يكونُ عندَ دُعائِهم المذكورِ؟ فقيل: يُقالُ لهم ذلك؛ إقناطًا ممَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن الهلاكِ، وتَنبيهًا على أنَّ عذابَهم المُلْجِئَ لهم إلى استدعاءِ الهلاكِ بالمَّرة

(١) قرأها ابنُ كثيرٍ بإسكانِ الياءِ مخفَّفةً، والباقونَ بكسرِها مشددةً. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أبَدِيٌّ لا خَلاصَ لهم منْه[١].

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ فيه تَقييدُ النَّهيِ والأمْرِ بـ(اليوم)؛ لمَزيدِ التَّهويلِ والتَّفظيعِ، والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائرِ الأيَّامِ المعهودةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وُصِفَ الثُّبورُ بالكثيرِ؛ إمَّا لكثرةِ نِدائِه بالتَّكريرِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ حُصولِ الثُّبورِ؛ لأنَّ انتهاءَ النِّداءِ يكونُ بحُضورِ المُنادَى، أو هو يأسٌ يَقْتضي تَكريرَ التَّمنِّي أو التَّحسُّرِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هذا الاستِفهامُ على سَبيلِ التَّوقيفِ والتَّوبيخِ[٤]. وقيل: الاستفهامُ والتَّفضيلُ والتَّرديدُ للتَّقريعِ، مع التَّهكُّمِ والتَّحسيرِ على ما فاتَهم[٥]؛ فإنَّه لمَّا ذكَرَ حالَ العِقابِ المُعَدِّ لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ؛ أتْبَعه بما يُؤكِّدُ حَسرتَه ونَدامتَه؛ تَقريعًا وتهكُّمًا[٦].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يُقصَدَ بقولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: قُلْ لهم، أي: للمُشرِكين الَّذين يَسمَعون الوعيدَ والتَّهديدَ السَّابقَ؛ فالجُمَلُ مُتَّصلةُ السِّياقِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّهكُّمِ؛ إذ لا شُبهةَ في كونِ الجنَّةِ الموصوفةِ خيرًا. ويجوزُ أنْ يُقصَدَ: قُلْ للمُؤمنينَ؛ فالجُملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٧٢).

مُعترِضةٌ بيْنَ آياتِ الوَعيدِ؛ لمُناسَبةِ إبداءِ البَونِ بيْنَ حالِ المُشرِكين وحالِ المُؤمِنين، والاستِفهامُ حينَئذٍ مُستعمَلٌ في التَّلميحِ والتَّلطُّفِ. والتَّفضيلُ على المَحملِ الأوَّلِ في مَوقعِ الآيةِ مُستعمَلٌ للتَّهكُّمِ بالمُشرِكينَ، وعلى المَحملِ الثَّاني مُستعمَلٌ للتَّمليحِ في خِطابِ المُؤمِنين، وإظهارِ المِنَّةِ عليهم. ووَصْفُ الموعودينَ بأنَّهم مُتَّقونَ على المَحمَلِ الأوَّلِ جارٍ على مُقْتضى الظَّاهِرِ، وعلى المَحملِ الثَّاني جارٍ على خلافِ مُقْتضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُؤتَى بضميرِ الخِطابِ؛ فوَجْهُ العُدولِ إلى الإظهارِ ما يُفيدُه ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِن العُمومِ للمُخاطَبينَ ومَن يَجِيءُ بعْدَهم[١].

- وقولُه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن السَّعيرِ باعتبارِ اتِّصافِها بما فُصِّلَ مِن الأحوالِ الهائلةِ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بكونِها في الغايةِ القاصيةِ مِن الهَولِ والفَظاعةِ[٢]. وقيل: المُشارُ إليه في قولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ...﴾ العِقابُ والمكانُ الضَّيِّقُ، وتَسميتُه بالخيرِ للتَّهكُّمِ والسُّخريةِ؛ لِيَزيدَ في غَيظِهم، أو أنَّ ثوابَ العدُوِّ وتَنعُّمَه سبَبٌ لتَغيُّظِ العدُوِّ وتَحسُّرِه[٣].

- وإضافةُ الـ﴿جَنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ للمدْحِ، أو للدَّلالةِ على خُلودِها، أو التَّمييزِ عن جنَّاتِ الدُّنيا[٤].

- قَولُه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾، قد عُلِمَ مِن قولِه: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ كَوْنُ الجنَّةِ جزاءَهم ومَصيرَهم، وإنَّما كرَّرها؛ لأنَّها كالتَّذييلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).
(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

لها؛ إرادةً لمَزيدِ مَدحِ المكانِ لتَبجُّحِ ساكنِيه، كما أنَّ قولَه: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] تَذييلٌ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ ...﴾ [الكهف: ٣١]، وأنَّ قولَه: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] تَذييلٌ لقولِه: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. ودَلالتُه على المدْحِ مِن جِهةِ تَنكيرِه، أي: جزاءً مُوفَّرًا لا يدخُلُ تحتَ الوصْفِ، وإردافُه بقولِه: ﴿وَمَصِيرًا﴾، أي: مَصيرًا لا يُقادَرُ قَدْرُه؛ فالجزاءُ هنا كالثَّوابِ في تلك الآيةِ، والمصيرُ كالمُرتفَقِ، واجتماعُهما كالتَّتميمِ لِمَا يتِمُّ به ما يُطلَبُ مِن المكانِ مِن التَّرفُّهِ والتَّنعُّمِ؛ فقدَّمَ هنا قولَه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ﴾ الآيةَ، على قولِه: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ...﴾ الآيةَ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ النَّعيمَ لا يتِمُّ إلَّا بطِيبِ المكانِ وسَعتِه، ومُوافقتِه للمُرادِ والشَّهوةِ، وإلَّا تَنغَّصَ؛ فلذلك ذكَرَ المصيرَ مع الجزاءِ، وأنَّ العِقابَ يتضاعَفُ بضِيقِ الموضعِ وظُلْمتِه، وجمْعِه لأسبابِ الاجتواءِ[(١)]؛ ولذلك ذكَرَ ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا﴾، وذكَرَ ﴿مَكَانٗا ضَيِّقٗا﴾[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾

- قولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ مَسوقٌ مَساقَ المُبالَغةِ في تَحقيقِ الوعْدِ والكرَمِ؛ إذ لا مَعنى للوُجوبِ على اللهِ تعالى سِوى أنَّه تَفضَّلَ وتعهَّدَ به[(٣)].

---

(١) الاجتِواءُ: كَراهةُ المَكانِ وعدَمُ مُوافَقتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ١٢٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ مِن تَشريفِه، والإشعارِ بأنَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الفائزُ آثِرَ ذي أثيرٍ[1] بمَغانمِ الوعْدِ الكريمِ: ما لا يَخْفى[2].



(١) آثِرَ ذي أَثيرٍ، أي: أوَّلَ كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

الآيات (١٧-١٩)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، مِن: بارَ يَبورُ: إذا هلَك وبطَل، وأصلُ (بور) هنا: يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ، وما يُشْبِهُه مِن تَعَطُّلِه وخُلُوِّه[١].

﴿صَرْفًا﴾: أي: دَفعًا وحِيلةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى حالَ المشركينَ وآلهتِهم الباطلةِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اذكُرْ -أيُّها الرسولُ- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين وما عَبَدوه مِن دونِ اللهِ، فيقولُ اللهُ لهذه الآلهةِ المزعومةِ: أأنتم أضلَلتُم عبادي هؤلاء، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن الهُدى؟ فتقولُ: سبحانَك، ما يحِقُّ لنا أن نعبُدَ غيرَك ولا أن نُشرِكَ بك أحدًا في عبادتِك، ولكِنَّك -يا رَبَّنا- متَّعْتَ هؤلاءِ المُشرِكين وآباءَهم بالنِّعَمِ، حتى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه ما أمَرْتَهم به مِن توحيدِك وعبادتِك وحْدَك، وكانوا قومًا مُهلَكينَ.

فيقولُ اللهُ تعالى لهؤلاء الكافرين مُبَكِّتًا ومُقَرِّعًا لهم: قد كذَّبَكم مَنْ عبَدْتُموهم وردُّوا قولَكم الباطِلَ، فقد وجَب عليكم العذابُ، فلا تملِكون له ردًّا ولا دَفعًا، ولا نَصرًا مِن جهةِ أنفُسِكم، أو مِن جِهةِ غَيرِكم. ومَن يكفُرْ باللهِ تعالى منكم نعذِّبْه عذابًا كبيرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا توَعَّدَهم بالسَّعيرِ وما يُلاقون مِن هَولِها؛ بَيَّنَ لهم حالَ ما قبْلَ ذلك، وهو حالُهم في الحَشرِ مع أصنامِهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ لهم حالَهم في السَّاعةِ معه سُبحانَه؛ أتبَعَه ذِكرَ حالِهم مع معبوداتِهم مِن دُونِه، فقال[2]:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ[3]- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين ومَعبوداتِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٩).

(٣) قال محمد رشيد رضا: (جمهورُ الْمفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه، «واذكُرْ»، وهو خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يكونُ كَذا وكَذا؛ لأنَّ هذا معهودٌ ومعروفٌ عندَهم). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

التي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ[١].

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾.

أي: فيقولُ اللهُ للمَعبوداتِ التي كان يعبُدُها المُشرِكون: أأنتم أضلَلْتُم عبادي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣، ٣٤).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ. ومِمَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الملائِكةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١).

وقيل: المرادُ: الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٠).

وقال الرازيُّ: (وأمَّا الأكثَرونَ فزَعَموا أنَّ المرادَ هو الملائِكةُ، وعيسى، وعُزَيرٌ -عليهم السَّلامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٢).

وممَّن اختار العُمومَ، وأنَّ المرادَ كُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ عطيَّة: (وقولُه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريدُ به كُلَّ شَيءٍ عُبِدَ مِن دون الله، فغَلَّب العبارةَ عمَّا لا يعقِلُ مِن الأوثانِ؛ لأنَّها كانت الأغلَبَ وقتَ المخاطَبةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي شُمولُ المعبودينَ المذكورينَ للأصنامِ معَ الملائكةِ وعيسى وعُزَيرٍ؛ لأنَّ ذلك تدُلُّ عليه قرينتانِ قرآنيتانِ؛ الأولَى: أنَّه عبَّرَ عن المعبودينَ المذكورينَ بـ «ما» التي هي لغيرِ العاقِلِ في قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ فلفظةُ «ما» تدُلُّ على شُمولِ غيرِ العقلاءِ، وأنَّه غلَّبَ غيرَ العاقِلِ؛ لكثرتِه.

القرينة الثانية: هي دَلالةُ آياتٍ مِن كتابِ اللهِ على أنَّ المعبودينَ غافلونَ عن عبادةِ مَن عبَدَهم، أي: لا يعلَمون بها؛ لكَونِهم غيرَ عُقلاءَ... وإطلاقُ اللَّفظِ المختَصِّ بالعُقلاءِ عليهم؛ نظرًا إلى أنَّ المشركينَ نَزَّلوهم منزلةَ العُقلاءِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٣، ٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠).

هؤلاء عن طَريقِ الهُدى، ودعَوْتُموهم إلى عبادتِكم مِن دوني حتى فَعَلوا ذلك، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ دَعوةٍ وتَضليلٍ منكم[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ١٨﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿نُتَّخَذَ﴾ بضمِّ النُّونِ، وفتحِ الخاءِ، على البناءِ للمفعولِ؛ أيْ: ما كان يَنْبَغي لنا أنْ يَتَّخِذَنا المشرِكونَ أولياءَ مِن دونِك[(٢)].

٢- قراءةُ: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بِفتحِ النُّونِ، وكسرِ الخاءِ، والمعنى أنَّ هؤلاءِ المعبودينَ هم الَّذينَ تَبَرَّءوا أنْ يكونَ كانَ لهم وَلِيٌّ غيرُ اللَّهِ تعالَى ذِكْرُه[(٣)].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: قال المعبودون مِن دونِ اللهِ: ننزِّهُك -يا اللهُ- عن مُشارَكتِك في الألوهيَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٧).

فما يليقُ ولا يحِقُّ لنا أن نَعبُدَ غيرَك، ونواليَ سِواك، ولا نطلُبَ مِن النَّاسِ أن يكونوا عابدينَ لنا؛ فنحن ما دعَوْناهم إلى ذلك، بل هم فَعَلوه مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ أمْرِنا ولا رِضانا، ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادتِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾.

أي: ولكِنْ متَّعْتَ -يا ربَّنا- هؤلاء المُشرِكين وآباءَهم في الدُّنيا بالنِّعَمِ، فانشَغَلوا بالشَّهواتِ حتى تَركوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه الأمرُ بتوحيدِك وعبادتِك وحْدَك لا شَريكَ لك(٢).

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

أي: وكان المُشرِكون قومًا هَلْكى، قد غلَب عليهم الخِذلانُ والشَّقاءُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).
قال ابن جرير: (وإنَّما أُريدَ بالبورِ في هذا الموضِعِ أنَّ أعمالَ هؤلاء الكُفَّارِ كانت باطلةً؛ لأنَّها لم تكُنْ لله). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩).
وقال البقاعي: (﴿وَكَانُوا۟﴾ في عِلمِك بما قضيتَ عليهم في الأزَلِ ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هَلْكى). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٣).

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

أي: فقد كذَّبكم -أيُّها المُشرِكون- مَن عبَدْتُموهم مِن دُونِ اللهِ، وأنكروا قَولَكم أنَّهم أمَروكم بعبادتِهم، ورَضُوا فِعْلَكم، وأنَّهم شُفَعاءُ لكم عندَ رَبِّكم، وكذَّبوكم في زَعمِكم أنَّهم آلهةٌ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿تَسۡتَطِيعُونَ﴾ بالتاءِ على الخِطابِ للمُشرِكين، أي: فما تَستطيعونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

قال ابن عطية: (الآيةُ خِطابٌ مِن الله تعالى بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابن عاشور: (الباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ يجوزُ أن تكونَ بمعنى «في» ...، أي: كذَّبوكم تكذيبًا واقِعًا فيما تقولون، ويجوزُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: كذَّبوكم بسَبَبِ ما تقولون). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

-يا عَبَدةَ الأوثانِ- صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم، ولا نَصرًا منه لأنفُسِكم[١].

٢- قراءةُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياءِ على الإخبارِ عن المعبودينَ مِن دونِ الله، أي: فما يستطيعُ الآلهةُ صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم -أيُّها المشركون- ولا نَصرًا لكم[٢].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾

أي: فما تَستطيعون -أيُّها المُشرِكونَ- صَرْفَ عذابِ اللهِ عنكم بِفِداءٍ أو غيرِه، ولا تستطيعونَ نَصرَ أنفُسِكم؛ لِعَجزِكم[٣].

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾

أي: ومَن يَظلِمْ نفْسَه منكم[٤] ....

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).
قال الواحدي: (وتفسيرُ الصَّرفِ هاهنا: صرْفُ العذابِ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ ومقاتلٍ، وأكثَرِ المفسِّرينَ، وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٦/ ٤٤٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ﴾، قيل: هو خطابٌ للكفَّارِ، وقيل: للمؤمنينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).
ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للمؤمنينَ: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢).
وممَّن اختار أنَّ الخطابَ لعمومِ المكلَّفينَ: البيضاويُّ، والنسفي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢). =

بالشِّركِ، نُعَذِّبْه في النَّارِ عذابًا كبيرًا(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّه لا تجوزُ الوَلايةُ والعَداوةُ إلَّا بإذنِ اللهِ؛ فكلُّ وَلايةٍ مَبنيَّةٍ على مَيلِ النَّفْسِ ونَصيبِ الطَّبعِ، فذاك على خِلافِ الشَّرعِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ

= قال الشوكاني: (﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذا وعيدٌ لكلِّ ظالمٍ، ويدخُلُ تحتَه الذي فيهم السياقُ دخولًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٩).

وقال السعدي: (وأمَّا المعانِدُ منهم الذي عرَف الحقَّ وصدَفَ عنه، فقال في حقِّه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بتركِ الحقِّ ظُلمًا وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُبلَغُ أمرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

قال ابن عطية: (الظُّلمُ هنا: الشِّركُ. قاله الحَسَنُ وابنُ جُرَيجٍ. وقد يحتمِلُ أن يعُمَّ غيرَه مِن المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فمَن يَعدِلْ منكم لسَماعِ هذا الوَعظِ بوَضعِ العِبادةِ في موضِعِها، نُثِبْه ثوابًا جليلًا؛ عطف عليه ما المقامُ له، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بوَضعِها في غيرِ مَوضِعِها، وباعتِقادِه في الرسُلِ ما لا يَنبغي مِن أنَّه لا يَنبغي لهم أن يكونوا مِثلَ النَّاسِ في أكلٍ ولا طلَبِ مَعيشةٍ ونحوِ ذلك؛ ﴿نُذِقْهُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، بما لنا مِن العَظَمةِ ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٤).

أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. إن قيل: إن كانت الأصنامُ التي تُعبَدُ تُحشَرُ، فكيف تَنطِقُ وهي جمادٌ؟

فالجواب: يُنطِقُها الله تعالى يومَ القيامةِ كما يُنطِقُ الأيديَ والأرجُلَ[1]، فإسنادُ القَولِ إلى ما يُعبَدون مِن دونِ اللهِ يَقتضي أنَّ اللهَ يجعَلُ في الأصنامِ نُطقًا يَسمَعُه عبَدَتُها، أمَّا غيرُ الأصنامِ مِمَّن عُبِد مِن العُقَلاءِ، فالقَولُ فيهم ظاهِرٌ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعظيمٌ لله تعالى في مَقامِ الاعترافِ بأنَّهم ينزِّهون اللهَ عن أن يَدَّعُوا لأنفُسِهم مشاركتَه في الإلهيَّةِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإشارةُ إليهم؛ لتَمييزِهم مِن بيْنِ بقيَّةِ العِبادِ، وهذا أصلٌ في أداءِ الشَّهادةِ على عَينِ المشهودِ عليه لدى القاضي[4].

٤- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ «لا ينبغي» في كَلامِ اللهِ تعالى، ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِلَّذي هو في غايةِ الامتِناعِ شَرعًا؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ ﴾[1] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ ﴾ نُصِبَ على أنَّه مَفعولٌ لِمُضمرٍ مُقدَّمٍ مَعطوفٍ على قولِه تعالى: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ ﴾ إلخ [الفرقان: ١٥]، إنْ كان المُرادُ: قُلْ للمُشرِكين. أو على قولِه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١]، على جوازِ أنَّ المُرادَ: قُلْ للمُؤمِنينَ. والتَّقديرُ: واذكُرْ لهم بعْدَ التَّقريعِ والتَّحسيرِ يومَ يَحشُرُهم اللهُ عَزَّ وجلَّ. أو على أنَّه ظرْفٌ لمُضمَرٍ مُؤخَّرٍ؛ قد حُذِفَ للتَّنبيهِ على كَمالِ هَولِه وفَظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه[2].

- وتَعليقُ التَّذكيرِ باليومِ مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ الهائلةِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكرِها؛ لِأنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوَقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها؛ فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[3].

- واستعمالُ (مَا) في قولِه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ ﴾؛ إمَّا لأنَّ وضْعَه أعَمُّ، ولذلك يُطلَقُ لكلِّ شبَحٍ يُرى ولا يُعرَفُ، أو لأنَّه أُرِيدَ به الوصْفُ، كأنَّه قِيلَ: ومَعبودَهم. أو لتَغليبِ الأصنامِ؛ تَحقيرًا وتَنبيهًا على أنَّهم مِثْلُها في السُّقوطِ عن رُتبةِ المَعبوديَّةِ. أو اعتبارًا لغَلبةِ عُبَّادِها. أو

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

يَخُصُّ الملائكةَ وعُزَيرًا والمسيحَ؛ بقَرينةِ السُّؤالِ والجوابِ. أو الأصنامُ يُنطِقُها اللهُ، أو تَتكلَّمُ بلسانِ الحالِ. وقولُه: ﴿فَيَقُولُ﴾، أي: للمَعبودينَ، وهو على طَريقةِ تَلوينِ الخِطابِ(١). وقِيل: أنْ يكونَ عامًّا لهم جميعًا يأْباهُ جوابُ المَعبودينَ، وهو قولُهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾؛ لأنَّهم ملائِكةٌ مَعصومونَ وأنبياءُ مَعصومونَ؛ فلا يدخُلُ فيه الأصنامُ، لكنْ عُدِلَ إلى (ما) إجراءً للمَعبودينَ مُجْرى غيرِ ذَوِي العُقولِ؛ تَحقيرًا لشأنِهم؛ لغايةِ قُصورِهم عن معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَنبيهًا على المُجانَسةِ المُنافيةِ للأُلوهيَّةِ(٢).

- قَولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ استِفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ للعَبَدةِ. وحَذْفُ صِلَةِ (ضَلَّ) مُبالَغةٌ؛ فسُؤالُه تعالى وهو عالِمٌ بالمسؤولِ عنه؛ لِيُجيبوا بما أجابوا به، حتَّى يُبكِّتَ عَبَدتَهم بتكذيبِهم إيَّاهم، فيُبْهَتوا ويَنْقطِعوا، وتَزيدَ حَسرتُهم، ويكونَ ذلك نوعًا ممَّا يَلحَقُهم مِن غضَبِ اللهِ وعَذابِه، ويَغتبِطَ المُؤمِنون ويَفْرَحوا بحالِهم ونَجاتِهم مِن فَضيحةِ أولئك، وليكونَ حِكايةُ ذلك في القُرآنِ لُطْفًا للمُكلَّفينَ. وجاء الاستفهامُ مُقدَّمًا فيه الاسمُ على الفِعلِ، ولم يقُلْ: أضلَلْتُم عِبادي هؤلاء أمْ ضلُّوا السَّبيلَ؛ بحذْفِ (أنتُم) و(هم)؛ لأنَّ السُّؤالَ ليس عن الفِعلِ ووُجودِه؛ لأنَّه لولا وُجودُه لَمَا توجَّهَ هذا العِتابُ، وإنَّما هو عن مُتولِّيهِ، فلا بُدَّ مِن ذِكْرِه، وإيلائِه حَرْفَ الاستفهامِ حتَّى يُعلَمَ أنَّه المسؤولُ عنه(٣). وقيل: هو استِفهامٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

تقْريريٌّ للاستِنطاقِ والاستِشهادِ. والمعنى: أأنتُمْ أضْلَلْتُموهم أمْ ضَلُّوا مِن تِلقاءِ أنفُسِهم دونَ تَضليلٍ منكم؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ دلَّ عليه المذكورُ(١).

- وأخبَرَ بفِعلِ: ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ عن ضَميرِ المُخاطَبينَ المُنفصِلِ، وبفِعلِ ﴿ضَلُّواْ﴾ عن ضَميرِ الغائبينَ المُنفصِلِ؛ لِيُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليهما على الخَبرينِ الفِعْلِيَّينِ تَقْويةَ الحُكْمِ المُقرَّرِ به؛ لإشعارِهم بأنَّهم لا مَناصَ لهم مِن الإقرارِ بأحَدِ الأمْرَينِ، وأنَّ أحدَهم مُحقَّقُ الوُقوعِ لا مَحالةَ؛ فالمقصودُ بالتَّقويةِ هو مُعادِلُ هَمزةِ الاستِفهامِ، وهو ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾(٢).

وإعادةُ فِعْلِ ﴿ضَلُّواْ﴾ في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ لِيَجْرِيَ على ضَميرِهم مُسنَدٌ فِعليٌّ، فيُفيدَ التَّقويةَ في نِسبةِ الضَّلالِ إليهم(٣).

- ووصْفُ العِبادِ هنا بقولِه: ﴿عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَسجيلٌ على المُشرِكين بالعُبوديَّةِ، وتعريضٌ بكُفرانِهم حقَّها(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حكايةِ السُّؤالِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذَا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا...(٥).

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إمَّا على إرادةِ مُطلَقِ التَّعجُّبِ ممَّا قِيل لهم مِن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى﴾، أو نَطَقوا بكلمةِ التَّسبيحِ كِنايةً عن البَراءةِ عن أنفُسِهم ذلك القولَ، أو أرادوا مَوضوعَها اللُّغويَّ مِن التَّنزيهِ والتَّقديسِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قدَّسوا ساحةَ جَلالِ اللهِ عمَّا لا يَلِيقُ بحَضرتِه مِن النِّدِّ والضِّدِّ[1].

– ولَمَّا كان السُّؤالُ على التَّعريضِ التَّوبيخيِّ –والمقصودُ تَبْكيتُهم، وإلْزامُ الحُجَّةِ عليهم، وتَفضيحُهم على رُؤوسِ الأشهادِ– أجابوا أوَّلًا بما يدُلُّ على تبرُّئِهم مِن نِسبةِ الإضلالِ إلى أنفُسِهم بأقْصى ما يُمكِنُ مِن المُبالَغةِ؛ خِذْلانًا لهم، وكان مِن حقِّ الظَّاهِرِ: إنَّا ما أضلَلْناهم، فأطْنَبوا بقولِهم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ إلى آخِرِه؛ تَعجُّبًا، أي: كيف يَصِحُّ منَّا أنْ نصِفَك بما لا يَلِيقُ بجَلالِك، ونحن عالِمون بالتَّقديسِ، وكيف يَستقيمُ لنا أنْ نَحمِلَ غيرَنا أنْ يَتولَّونا دونَك، ونحن العابِدون؟! وثانيًا: بما يدُلُّ على أنَّ الكَفرةَ هم ضلُّوا السَّبيلَ، لكنْ بتَقديرِ اللهِ وإضلالِه، فأطْنَبوا في تَعبيرِهم بقولِه: ﴿لَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ﴾ إلى آخِرِه[2].

– قَولُه: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ كِنايةٌ عنِ انتِفاءِ طلَبِهم هذا الاتِّخاذَ انتفاءً شديدًا. والخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ فائِدتِه، أي: نَعلَمُ أنَّه لا يَنْبغي لنا؛ فكيف نُحاوِلُه[3]؟!

– وتَنكيرُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِن حيثُ إنَّهم أولياءُ مَخْصوصون، وهم الجِنُّ والأصنامُ. على القولِ بأنَّ القائلين الملائكةُ والأنبياءُ؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الباقي الجِنَّ والأصنامَ؛ لأنَّ المعبودينَ مُنحصِرون في هؤلاء. ويجوزُ أنْ يكونَ المعبودونَ عامًّا، والتَّقديرُ: ما يَنبغِي لنا أن نُحسَبَ مِن بعضِ ما يقَعُ عليه اسمُ الولايةِ، فضْلًا مِن الكلِّ؛ فإنَّ الوليَّ قد يكونُ مَعبودًا ومالِكًا ومَخدومًا. أو التَّقديرُ: نتَّخِذَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

مَعبودينَ مِن أولياءَ، أي: مِن جِهةِ أولياءَ؛ فحَذْفُ مَفعولِ الاتِّخاذِ مَعهودٌ[(١)].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيدِ عُمومِ النَّفيِ، أي: استِغراقِه؛ لأنَّه نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ. وقيل: للتَّبعيضِ، أي: لا نتَّخِذ بعضَ أولياءَ[(٢)].

- والاستدراكُ الَّذي أفادَهُ (لكنْ) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ ناشئٌ عن التَّبرِّي مِن أنْ يكونوا هم المُضِلِّينَ لهم، بتَعقيبِه ببَيانِ سَببِ ضلالِهم؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ تَبرئةَ أنفُسِهم مِن إضلالِهم يرفَعُ تَبِعةَ الضَّلالِ عن الضَّالِّينَ. والمقصودُ بالاستِدراكِ ما بعْدَ (حتَّى)، وهو: ﴿نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، وأمَّا ما قبْلَها؛ فقد أُدمِجَ بيْن حَرفِ الاستِدراكِ ومَدخولِه ما يُسجِّلُ عليهم فَظاعةَ ضَلالِهم؛ بأنَّهم قابَلوا رَحمةَ اللهِ ونِعمتَه عليهم وعلى آبائِهم بالكُفرانِ؛ فالخبَرُ عن اللهِ بأنَّه متَّعَ الضَّالِّين وآباءَهم مُستعمَلٌ في الثَّناءِ على اللهِ بسَعةِ الرَّحمةِ، وفي الإنكارِ على المُشرِكين مُقابَلةَ النِّعمةِ بالكُفرانِ؛ غضَبًا عليهم. وجعَلَ نِسيانَهم الذِّكْرَ غايةً للتَّمتيعِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك التَّمتيعَ أفْضى إلى الكُفرانِ؛ لِخُبثِ نُفوسِهم، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[(٣)] [الواقعة: ٨٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ التَّعرُّضُ إلى تَمتيعِ آبائِهم هنا، معَ أنَّ نِسيانَ الذِّكرِ إنَّما حصَلَ مِن المُشرِكين الَّذين بلَغَتْهم الدَّعوةُ المُحمديَّةُ ونسُوا الذِّكْرَ: هو زِيادةُ تَعظيمِ نِعمةِ التَّمتيعِ عليهم بأنَّها نِعمةٌ مُتأثِّلةٌ تَليدةٌ، مع الإشارةِ إلى أنَّ كُفرانَ النِّعمةِ قد انجَرَّ لهم مِن آبائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

الَّذين سَنُّوا لهم عِبادةَ الأصنامِ؛ ففيه تَعريضٌ بشَناعةِ الإشراكِ، ولو قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

- وجُملةُ: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[(٢)].

- وعلى القول بأنَّ ﴿بُورٗا﴾ مَصدرٌ؛ فيكون وُصِفوا به مُبالَغةً؛ ولذلك يَسْتوي فيه الواحدُ والجمْعُ[(٣)].

- واجتِلابُ فِعْلِ (كان)، وبِناءُ ﴿بُورٗا﴾ على ﴿قَوۡمَۢا﴾ دونَ أن يُقالَ: (حتَّى نسُوا الذِّكْرَ وبارُوا)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ البَوارِ منهم بما تَقْتضيهِ (كان) مِن تَمكُّنِ معنى الخبَرِ، وما يَقْتضيهِ ﴿قَوۡمَۢا﴾ مِن كَونِ البَوارِ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[(٤)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ هذه الآيةُ كالخاتمةِ لِمَا يَجْري عليهم مِن الأحوالِ والنَّكالِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾[(٥)] [الفرقان: ١٢].

- وقولُه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗا﴾ في الكَلامِ حذْفُ فِعلِ القولِ يدُلُّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: إنْ قُلْتم: هؤلاء آلِهَتُنا، فقد كذَّبوكم، على تَقديرِ قولٍ مُرتَّبٍ علَى الجوابِ، أي: فقال اللهُ تعالى عِندَ ذلك: فقد كذَّبوكم. وفي حذْفِ فِعلِ القولِ في هذه الآيةِ استحضارٌ لصُورةِ المَقامِ كأنَّه مُشاهَدٌ غيرُ مَحكِيٍّ، وكأنَّ السَّامعَ آخِرَ الآيةِ قد سمِعَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).
(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

لهذه المُحاوَرةِ مُباشَرةً دونَ حِكايةٍ، فقرَعَ سمْعَه شَهادةُ الأصنامِ عليهم، ثمَّ قرَعَ سمْعَه توجُّهُ خِطابِ التَّكذيبِ إلى المشهودِ عليهم، وهو تفنُّنٌ بَديعٌ في الحِكايةِ يَعتمِدُ على تَخييلِ المَحكيِّ واقِعًا؛ فجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم ...﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، وهو الْتِفاتٌ إلى العَبَدةِ بالاحتِجاجِ والإلزامِ، وإقبالٌ على خِطابِ الحاضِرينَ، وهو ضَربٌ مِن الالتِفاتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[1] [يوسف: ٢٩].

- وهذه المفاجأةُ بالاحتِجاجِ والإلزامِ التي في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حَسَنةٌ رائعةٌ، وخاصَّةً إذا انضمَّ إليها الالتِفاتُ؛ فالمفاجأةُ مِن تَعقُّبِ القِصَّةِ بالفاءِ التي تَستدعي ما يَترتَّبُ عليه، كأنَّ السامعَ لم يَنتظِرْ ما بعْدَ الفاءِ بتقديمِ ما يَترتَّبُ عليه ففُوجِئَ به، وهذا أسلوبٌ رائعٌ حسَنٌ، والالتفاتُ مِن قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾، كأنَّه قيل: أنتُم المخصوصونَ -أيُّها المكذِّبونَ- بأنْ يَفعَلَ بكم ما تَستحقُّونَه مِن الفَضيحةِ والنَّكالِ، ولا يُمهِلَكم فيه. والفاءُ في ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ فَصيحةٌ، أي: إفصاحٌ عن حُجَّةٍ بعْدَ تَهيئةِ ما يَقْتضيها، وهو إفصاحٌ رائعٌ، وزادَهُ الالْتِفاتُ في قولِه: ﴿كَذَّبُوكُم﴾[2].

- قَولُه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فُرِّعَ على الإعلانِ بتَكذيبِهم إيَّاهم تأْييسُهم مِن الانتِفاعِ بهم في ذلك الموقِفِ؛ إذ بَيَّنَ لهم أنَّهم لا يَستطيعون صَرْفَ ضُرٍّ عنهم، ولا إلْحاقَ ضُرٍّ بمَن يَغلِبُهم. ووَجْهُ التَّفريعِ

---

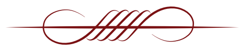
(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

ما دَلَّ عليه قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الفرقان: ١٨]، الَّذي يَقْتضي أنَّهم في مَوقفِ العُبوديَّةِ والخُضوعِ؛ ففيه ضَربُ تَهكُّمٍ بهم[١].

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ للمَعبودِينَ؛ فالتاءُ في ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾ التِفاتٌ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ تَذييلٌ للكَلامِ يَشمَلُ عُمومُه جميعَ النَّاسِ، ويكونُ خِطابُ ﴿مِّنكُمْ﴾ لجَميعِ المُكلَّفينَ، ويُفِيدُ ذلك أنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم مُعَذَّبون عذابًا كبيرًا[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَتَوْ﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعاتي: هو المبالِغُ في رُكوبِ المعاصي المتمَرِّدُ، والعُتُوُّ: تجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلمِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[(١)].

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حَرَامًا محرَّمًا، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على مَنعٍ[(٢)].

﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾: أي: ضائِعًا باطِلًا، والهباءُ المنثورُ: ما يدخُلُ البَيتَ مِن الكُوَّةِ (النافذة) مِثلَ الغُبارِ إذا طلَعَت فيها الشَّمسُ. وأصلُ الهباءِ: يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ، وأصلُ (نثر): يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتفَرِّقٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، (٦/ ٣١).

﴿مَقِيلًا﴾: أي: مَنزِلًا وقرارًا وقتَ القائلةِ، والقَيلولةُ عند العَرَبِ: الاستراحةُ نِصفَ النَّهارِ إذا اشتَدَّ الحَرُّ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

قَولُه: ﴿يَوْمَ﴾ العامِلُ فيه النَّصبَ محذوفٌ تقديرُه (يُمنَعون) أي: يُمنَعون البِشارةَ يومَ يَرَون الملائكةَ، ولا يجوزُ أن يعمَلَ فيه نفْسُ البُشرى؛ لوجهينِ:

أحدُهما: أنَّها مصدرٌ، والمصدرُ لا يعمَلُ فيما قبْلَه.

والثاني: أنَّها منفيَّةٌ بـ (لا)، وما بعْدَها لا يعمَلُ فيما قبْلَها.

وقيل: إنَّ (يومَ) منصوبٌ بـ (اذكُرْ) محذوفًا؛ فيكونُ مفعولًا به، والتقديرُ: اذكُرْ يومَ يَرونَ الملائكةَ. وجملةُ ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ في محلِّ نَصبٍ، مَقولُ قَولٍ مُضمَرٍ، أي: يومَ يَرَونَ الملائكةَ يقولونَ: لا بُشرى، وجملةُ (يقولون) المقدَّرةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

قَولُه: ﴿حِجْرًا﴾ منصوبٌ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا، وهي مِنْ (حَجَره): إذا مَنَعَه؛ لأنَّ المستعيذَ طالِبٌ مِن اللهِ أن يمنعَ المكروهَ لا يَلحَقُه، وكأنَّ المعنى: أسألُ اللهَ أن يمنَعَه مَنعًا، ويَحجُرَه حَجرًا، و﴿مَّحْجُورًا﴾ صِفةٌ مُؤكِّدةٌ للمَعنى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٤)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٠٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٧٠-٤٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن المُرسَلينَ إلَّا مِن البشَرِ الذين يأكُلونَ الطَّعامَ، ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك. وابتَلَيْنا بعضَكم ببَعضٍ -أيُّها النَّاسُ- فهلْ تَصبِرون على هذا البَلاءِ؟ وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عِبادِه ومَن لا يصبِرُ، ويعلَمُ أحوالَهم وأعمالَهم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه.

وقال الكفَّارُ الذين يُنكِرون البعثَ ولا يُقِرُّون بلقاءِ الله ولا يخافونَه: هلَّا أنزَلَ اللهُ الملائِكةَ علينا؛ ليُخبِرونا بصِدقِك، أو نرى اللهَ جَهرةً بأعيُنِنا فنؤمِنَ لك! لقد أضمر هؤلاء الكُفَّارُ في أنفُسِهم كِبْرًا عن الحَقِّ، وتجاوَزوا الحَدَّ في الظُّلمِ والطُّغيانِ والاستِكبارِ. يومَ يرى هؤلاء الكُفَّارُ ملائِكةَ العذابِ فلا بُشرى لهم يَومَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ، ويقولُ الملائِكةُ لهم: حَرامٌ محرَّمٌ عليكم أن تكونَ لكم اليومَ بُشرى.

وقصَدْنا إلى ما عَمِلَه هؤلاء الكُفَّارُ في الدُّنيا مِن وُجوهِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ، فجعَلْناه ضائِعًا باطِلًا لا وَزنَ له، كالهباءِ الذي تفَرَّق وتبَدَّد؛ لحقارتِه، أمَّا أهلُ الجنَّةِ فهم خَيرٌ مكانًا ومَنزِلًا في الجنةِ، وهم أحسَنُ موضعَ قائلةٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدمَ الطعنُ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأكلِ الطَّعامِ، والمشيِ

في الأسواقِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها عادةٌ مُستمِرَّةٌ في كلِّ رِسالةٍ[(١)].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن تهديدِهم ووعيدِهم؛ شرَع في تسليةِ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما ناله مِن قَولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مِن الحُزنِ وضِيقِ الصَّدرِ[(٢)].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبْلَك -يا محمَّدُ- أحدًا مِن المرسَلينَ إلَّا والحالُ أنَّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعامَ ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك؛ لكَونِك تأكُلُ الطَّعامَ وتَمشي في الأسواقِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧، ٨].

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

أفاد ما تَقَدَّمَ مِن الآيةِ أنَّ الرُّسُلَ يأكُلونَ الطَّعامَ فيحتاجونَ للغِذاءِ وتحصيلِه، وأنَّهم يَمشونَ في الأسواقِ للسَّعيِ والتكسُّبِ؛ وأفاد آخِرُ الآيةِ الحِكمةَ الرَّبَّانيَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

في ذلك، وهي أنْ يكونَ بذلك فتنةٌ واختبارٌ للعِبادِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ تعالى في خلْقِه؛ فقد جَعَل بعضَهم لبعضٍ فتنةً[(١)].

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

أي: وامتحَنَّا -أيُّها النَّاسُ- بعضَكم ببَعضٍ؛ لِيَظهَرَ ما نعلَمُه منكم في عالَمِ الغَيبِ مِن الطَّاعةِ والمعصيةِ في عالَمِ الشَّهادةِ، فهلْ تَصبِرونَ على البَلاءِ أو لا تَصبِرونَ[(٢)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٦٢، ٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، فهو سبحانه جعَل أولياءَه فتنةً لأعدائِه، وأعداءَه فِتنةً لأوليائِه، والملوكَ فِتنةً للرعيَّةِ، والرعيَّةَ فتنةً لهم، والرِّجالَ فِتنةً للنِّساءِ، وهنَّ فِتنة لهم، والأغنياءَ فِتنةً للفقراءِ، والفُقراءَ فِتنةً لهم، وابتلى كلَّ أحدٍ بضِدٍّ جَعَلَه مُتقابِلًا؛ فما استقرَّت أقدامُ الأبَوَينِ على الأرضِ إلَّا وضِدُّهما مقابِلهما، واستمَرَّ الأمرُ في الذُّرِّيَّةِ كذلك إلى أن يطويَ اللهُ الدُّنيا ومَن عليها، وكم له سبحانَه في مِثلِ هذا الابتِلاءِ والامتحانِ مِن حِكمةٍ بالغةٍ، ونِعمةٍ سابِغةٍ، وحُكمٍ نافذٍ، وأمرٍ ونهيٍ، وتصريفٍ دالٍّ على ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ومُلكِه وحَمدِه!). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

ومِمَّن اختار هذا المعنى بعمومِه في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن رجب، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨)، ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن عاشور: (وحالُ الفتنةِ في كِلا البعضينِ مختلِفٌ؛ فبعضُها فِتنةٌ في العقيدةِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأمنِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأبدانِ، وشمِلَ أحدُ البعضينِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ معه، والبعضُ الآخَرُ المشركينَ، فكان حالُ الرَّسولِ فتنةً للمُشرِكين؛ إذْ زعَموا أنَّ حالَه مُنافٍ للرسالةِ فلم يؤمنوا به، وكان حالُ المؤمنينَ في ضَعفِهم فتنةً للمُشرِكين؛ إذ ترفَّعوا عن الإيمانِ الذي يُسَوِّيهم بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال فيما يرويه عن اللهِ: ((قال: إنَّما بعثتُك لأبتلِيَك وأبتليَ بك))[١].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

موقعُ هذه الجملةِ بعْدَ الجملةِ الأُولى لبيانِ أنَّ فِتنةَ اللهِ لهم هي عن عِلمٍ وبَصَرٍ بصَوابِ ذلك وحكمتِه، وأنه مُطَّلِعٌ على حقيقةِ ما يكونُ منهم عندَ الاختيارِ لِيجازيَهم عليه، وفي هذا وعدٌ ووعيدٌ للمُمتحَنينَ[٢].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عبادِه ومَن لا يصبِرُ على ما امتُحِنَ به، ويعلَمُ أحوالَكم وأعمالَكم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه، ويختَصُّه بتفضيلِه[٣].

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

مِمَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمَن يصبِرُ وبمَن يجزَعُ: ابنُ جرير، ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠). =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

أي: وقال الكفَّارُ الذين لا يَطمَعونَ في لقائِنا، فلا يرجونَ ثوابَنا ولا يخافونَ عِقابَنا؛ لإنكارِهم البَعثَ: هلَّا أنزَل اللهُ علينا الملائِكةَ، أو نرى اللهَ بأعيُنِنا فنُؤمِنَ[1]؟!

= ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).

وقيل: المعنى: إنَّ اللهَ بصيرٌ بمن يَستحِقُّ أن يُوحى إليه ومَن يستحِقُّ أن يهديَه اللهُ لِما أرسَلَهم به، ومَن لا يستَحِقُّ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

وقال الثعلبيُّ: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمَن يَصبرُ ويَجزعُ، وبمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٨).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ، وبمن يصبرُ أو يجزعُ، ومَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ، وبمن أدَّى ما عليه مِن الحقِّ ومَن لا يؤدِّي). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩).

وقال السعدي: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يعلَمُ أحوالَكم، ويصطَفي مَن يعلَمُه يصلُحُ لرسالتِه ويختَصُّه بتفضيلِه، ويعلَمُ أعمالَكم فيُجازيكم عليها: إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

قيل: المعنى: هلَّا أنزل اللهُ علينا ملائكةً، فتُخبِرَنا أنَّ محمَّدًا مِحقٌّ فيما يقولُ، وأنَّ ما جاءنا به صِدقٌ، أو نرى ربَّنا فيُخبِرَنا بذلك! وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والخازن، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۞ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۞ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

أي: لقد تكبَّرَ الكُفَّارُ الذين تجرَّؤوا على اقتراحِ نُزولِ الملائِكةِ عليهم، أو رُؤيةِ اللهِ في الدُّنيا، وتعظَّموا في أنفُسِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

= القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤).
وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).
وقيل: معنى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالرسالةِ كما أتت الأنبياءَ والرسُلَ، كما أخبَرَ عنهم تعالَى في الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].
ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٢).
وقيل: المعنى: هلَّا أُنْزِل علينا الملائِكةُ فكانوا رُسُلًا إلينا! وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨).
وقال السعدي: (﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلَّا نُزِّلَت الملائِكةُ تَشهَدُ لك بالرِّسالةِ وتؤيِّدُك عليها، أو تُنزلُ رُسُلًا مُستقِلِّينَ، أو نرى رَبَّنا فيُكَلِّمَنا ويقولَ: هذا رَسولي فاتَّبِعوه؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

أي: وتجاوَزَ أولئك الكُفَّارُ الحَدَّ في الكِبْرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، باقتراحِهم ذلك[1].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ جَوابٌ لقَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فبَيَّنَ تعالى أنَّ الذي سألوه سيُوجَدُ، ولكِنَّهم يَلقونَ منه ما يَكرَهونَ[2].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: يومَ يرى الكُفَّارُ مَلائكةَ الموتِ حينَ تَنزِلُ لقَبضِ أرواحِهم، ويَرَون ملائِكةَ العذابِ في البَرزخِ ويومَ القيامةِ؛ فلا تُبَشِّرُ الملائكةُ المُجرِمين يومَ يَرَونَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِن السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوجوهِ، معهم المُسُوحُ[(١)]، فيَجلِسون منه مَدَّ البصَرِ[(٢)]، ثمَّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ، فتَفَرَّقُ في جَسَدِه، فينتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[(٣)] مِن الصُّوفِ المبلولِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تلك المُسُوحِ، ويخرُجُ منها كأنتَنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت على وجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يمُرُّون بها على ملأٍ مِن الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فُلانُ بنُ فلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كتابَه في سِجِّينٍ[(٤)] في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

---

(١) المُسُوحُ، جَمعُ المِسْحِ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٢) مَد البصَر: عبارةٌ عمَّا ينتهي إليه بصَرُ الإنسانِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٤٩٦).

(٣) السَّفُّودُ: أي: الحديدةُ التي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((شرح المشكاة للطيبي)) (٤/ ١٣٨١).

(٤) سِجِّينٍ: قِيلَ: هو موضِعٌ فيه كتابُ الفُجَّارِ مِن قعرِ النَّارِ. وقيل: هو كتابٌ جامِعٌ لأعمال الشياطينِ والكَفَرةِ. وقيل: هو مكانٌ في أسفلِ الأرضِ السَّابعةِ، وهو محلُّ إبليسَ وجنودِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٨٠)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٩).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعادُ رُوحُه في جسَدِه، ويأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما دِينُك؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما هذا الرجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ أن كذَبَ، فافرِشُوا له مِن النَّارِ، وافتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيه مِن حَرِّها، وسَمومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختَلِفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوجهِ، قَبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسوؤُك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ. فيقولُ: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ. فيقولُ: أنا عمَلُك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ، لا تُقِمِ السَّاعةَ))[١].

﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

أي: ويقولُ الملائِكةُ للكُفَّارِ: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم الفَلاحُ اليومَ[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربة.
صحَّح إسنادَه ابنُ جريرٍ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وحسَّن الحديثَ المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٢).
وممَّن ذهب إلى أنَّ القائلينَ بذلك هم الملائكةُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ونسَبه إلى الجمهورِ. يُنظر: المصدران السابقان.
ومِمَّن ذهب إلى ذلك أيضًا: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٢).
ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخُدْريُّ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) =

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

أي: وعَمَدْنا يومَ القيامةِ إلى ما عَمِل هؤلاء المُجرِمونَ في الدُّنيا مِن العباداتِ وأعمالِ البرِّ والخَيرِ، فأحبَطْناها وأبْطَلْناها، حتَّى صارَتْ كالهباءِ[1] المتفرِّقِ المتبدِّدِ، فلا ينتفِعُ منها صاحبُها بشَيءٍ أصلًا[2].

= (٨/ ٢٦٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٤٥).

ومِمَّن اختار أنَّ القائلينَ بذلك هم المجرمون الكفَّارُ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ، ومجاهدٌ في رواية عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٧).

قال ابنُ جُزي: (إن كان الضميرُ للمجرمينَ فالمعنى أنَّهم يقولونَ: حجرًا، بمعنى عوذًا؛ لأنَّ العربَ كانت تتعوَّذُ بهذه الكلمةِ ممَّا تكرهُ، وانتِصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهارُه، نحو: معاذَ الله). ((التسهيل لعلوم التنزيل)) (ص: ١٢٦٦).

وقال الشنقيطي: (الكفَّار الَّذينَ اقْتَرَحوا إنزالَ الملائكةِ إذا رَأَوُا الملائكةَ تَوَقَّعوا العذابَ مِن قِبَلِهِم، فيقولونَ حينئذٍ للملائكةِ: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾: أي: حرامًا مُحَرَّمًا عليكم أنْ تَمَسُّونا بسوءٍ؛ أي: لأنَّنا لم نرتكِبْ ذنبًا نَستوجِبُ به العذابَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩).

وقال الواحدي: (قولُه: ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أي: حرامًا مُحَرَّمًا. قاله ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرينَ. وأصلُ الحَجرِ في اللغة: المنعُ). ((البسيط)) (١٦/ ٤٥٤).

(١) قال ابنُ جرير: (والهَباءُ: هو الذي يُرى كهيئةِ الغُبارِ إذا دخل ضَوءُ الشَّمسِ مِن كَوَّةٍ، يحسَبُه الناظِرُ غُبارًا، وليس بشَيءٍ، تَقبِضُ عليه الأيدي ولا تَمَسُّه، ولا يُرى ذلك في الظِّلِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١).

وقال البقاعي: (باطلًا لا نفعَ فيه، وهو معنى ﴿ هَبَآءً ﴾، وهو ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ الدَّاخِلِ مِن الكُوَّةِ ممَّا يُشبِهُ الغُبارَ، فهو أشبَهُ شَيءٍ بالعدَمِ؛ لأنَّه لا نفعَ له أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾[إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[النور: ٣٩].

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى حالَ الكُفَّارِ في الخَسارِ الكُلِّيِّ والخَيبةِ التامَّةِ؛ شرَحَ وصْفَ أهلِ الجنَّةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الحظَّ كلَّ الحَظِّ في طاعةِ اللهِ تعالى[(١)].

﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ بسَبَبِ ما عَمِلوه من الأعمالِ المتقَبَّلةِ أفضَلُ[(٢)] منزِلًا في الجنَّةِ، وأحسَنُ مَوضِعَ قائِلَةٍ[(٣)].

= (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

قال ابن القيم: (﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾ وهي الأعمالُ التي كانت لغَيرِ الله، وعلى غيرِ أمْرِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥١٤).

وقال ابن عاشور: (كانوا في الجاهليَّةِ يَعُدُّون الأعمالَ الصالحةَ مَجلبةً لخَيرِ الدُّنيا؛ لأنَّها تُرضي الله تعالى فيُجازيهم بنِعَمٍ في الدنيا؛ إذ كانوا لا يؤمِنون بالبَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) قال ابن جُزي: ﴿ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا ﴾ جاء هنا التفضيلُ بيْنَ الجنةِ والنارِ؛ لأنَّ هذا مستقَرٌّ وهذا مستقَرٌّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١).

وقال السعدي: (هذا من بابِ استِعمالِ أفعَلِ التفضيلِ فيما ليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ؛ لأنَّه لا خيرَ في مَقيلِ أهلِ النَّارِ ومُستقَرِّهم، كقَولِه: ﴿ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[النمل: ٥٩]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١). ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قَرَنَ سُبحانَه الفِتنةَ بالصَّبرِ هاهنا، وفي قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لِمَن قد فُتِنَ بفتنةٍ دواءٌ مِثلُ الصَّبرِ، فإنْ صبَرَ كانتِ الفتنةُ مُمحِّصةً له ومُخَلِّصةً مِن الذُّنوبِ، كما يُخَلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، فالفتنةُ كِيرُ القلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومُنافقٍ، وطيِّبٍ وخَبيثٍ، فمَن صبَرَ عليها كانت رحمةً في حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ في فتنةٍ أشَدَّ منها[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بكُلِّ شَيءٍ؛ فهو عالِمٌ بالإنسانِ قبْلَ الامتِحانِ، لم يُفِدْه ذلك عِلمًا لم يكُنْ، وهو سُبحانَه يضَعُ الأمورَ في حاقِّ مواضِعِها وإن رُئِيَ غيرُ ذلك، فينبغي على كلِّ أحدٍ التَّسليمُ له في جَميعِ الأمورِ؛ فإنَّه يَجُرُّ إلى خَيرٍ كبيرٍ، والتدبُّرُ لأقوالِه وأفعالِه بحُسْنِ الانقيادِ والتلقِّي؛ فإنَّه يُوصِلُ إلى علمٍ غزيرٍ، وما أراد بابتلائِك بهم

= الخازن)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مكانًا يمكنُ فيه الاستراحةُ في مثلِ وقت القَيلولةِ للاسترواحِ بأزواجِهم، والتمتع بما يكونُ في الخَلواتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧٢).

وقال ابن عاشور: (والمَقيلُ: المكانُ الذي يُؤوَى إليه في القَيلولةِ، والاستراحةُ في ذلك الوقتِ مِن عادةِ المترَفينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ المشهورَ في كلامِ العرب أنَّ المَقيلَ: القيلولةُ أو مكانُها، وهي الاستراحةُ نصفَ النهارِ زمنَ الحرِّ مثلًا، وإن لم يكن معها نومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

وابتلائِهم بك في هذا الأذى الكبيرِ إلَّا إعلاءَ شأنِك، وإسفالَ أمرِهم، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾[١] [ص: ٨٨].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرَّسولُ فِتنةٌ للمُرسَلِ إليهم، واختبارٌ للمُطيعينَ مِن العاصين، والرسُلُ فتَنَّاهم بدَعوةِ الخَلقِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ، والفقيرُ فِتنةٌ للغنيِّ، وهكذا سائِرُ أصنافِ الخَلقِ في هذه الدَّارِ دارِ الفِتَنِ والابتلاءِ والاختبارِ، والقصدُ مِن تلك الفِتنةِ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتُكم اللَّازمةُ الرَّاتبةُ، فيُثيبكم مولاكم، أمْ لا تَصبِرون فتَستَحِقُّون المعاقَبةَ[٢]؟ فكُلُّ مَنِ اتَّصل بك، مِن أهلك وبَنيك، وأبيك وأمِّك، وأصحابِك وعشيرتِك، وقَومِك وكُلِّ مَن ترتبِطُ به برباطٍ مِن أبناءِ جنسِك: هو فِتنةٌ وامتِحانٌ لك: هل تقومُ بواجبِك نحوَه مِن جلْبِ خَيرٍ له، أو دفعِ شَرٍّ عنه، أو جلْبِ خيرٍ منه لِغَيرِه، أو دفعِ شَرِّه عن غيرِه، وهل تكُفُّ يدَك عن شَيْئِه، وتكُفُّ بصَرَك عمَّا مُتِّع به، وتسألُ اللهَ مِمَّا عندَه مِن فَضلِه؟ وإنَّما تقوم بواجِبك نحوَه ممَّا تقدَّم، وتكُفُّ يدَك وعينَك عنه، وتسألُ اللهَ ممَّا عندَه راضيًا بما قَسَم لك، معتقدًا الخيرَ كُلَّ الخيرِ في قَسمِه؛ إذا تدرَّعتَ بالصَّبرِ على إتيانِه وإن كان عليك ثقيلًا، والكفِّ عمَّا يُطلَبُ منك الانكفافُ عنه وإن كان منك قريبًا، وفي طبعِك لذيذًا. وإنَّما يكونُ لك هذا الصبرُ إذا كنتَ دائمَ اليقينِ بعِلمِ الله بك، واطِّلاعِه عليك، وأنَّه كان بك بصيرًا. هذه الحقائِقُ كُلُّها هَدَتْنا هذه الآيةُ الكريمةُ إليها؛ هدَتْنا إلى أنَّا امتُحِنَّا ببعضِنا، وأنَّ الذي يُخلِّصُنا في هذا الامتحانِ، ويخرِجُنا سالمينَ هو الصَّبرُ[٣].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ عَلِمْنا مِن هذه الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى يَمتحِنُ عبادَه ويَختبِرُهم لِيُظهِرَ حقائقَهم؛ فعلينا أن نبنيَ أمورَنا على الامتحانِ والاختبارِ، فلا نُقَرِّرَ علمًا ولا نُصدِرَ حُكمًا إلَّا بعْدَ ذلك، وخُصوصًا في معرفةِ النَّاسِ والحُكْمِ عليهم، فالظَّواهرُ كثيرًا ما تُخالِفُ البواطنَ، والتصنُّعُ والتكلُّفُ قلَّما يَسلَمُ منهما أحَدٌ، ولا يَعصِمُ مِن الخطأِ مع هذه المغالطاتِ كلِّها إلَّا الامتحانُ والاختبارُ، فاعتَصِمْ بهما[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ فيه دَليلٌ على القضاءِ والقدَرِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ سؤالٌ: اللهُ تعالى عالِمٌ بما يَكونُ مِن عبادِه بعْدَ امتحانِهم قبْلَ أن يَمتحِنَهم، فما حِكمةُ الامتحانِ؟

الجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى إنما يُحاسِبُ عبادَه على ما عَمِلوه وكَسَبوه واكتسَبوه بما عندهم مِن التمكُّنِ مِن الفِعلِ والتَّركِ، وما عندَهم مِن الاختيارِ، لا على عِلْمِه منهم قبْلَ أن يَعملوه؛ فلهذا يُمتحَنون؛ لتظهرَ حقائقُهم، ويَقَعَ جزاؤُهم على ما كسبتْ أيديهم باختيارِهم، ولا حُجَّةَ لهم في تَقَدُّمِ عِلمِه تعالى بما يكونُ منهم؛ لأنَّ تَقدُّمَ العِلمِ لم يكن مُلجِئًا لهم على أعمالِهم، ففي هذا الامتحانِ قيامُ حُجَّةِ اللهِ على العامِلينَ أمامَ أنفُسِهم وأمامَ الناسِ، كما فيه إظهارٌ لحقيقتِهم لأنفُسِهم ولغيرِهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ كما يُفتَنُ الفَردُ بالفردِ، كذلك تُفتَنُ الأمَّةُ بالأمَّةِ: مِن ذلك أنَّنا -معشرَ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ- قد فُتِنَّا بغَيرِنا مِن أمَمِ الغربِ، وفُتِنوا هم أيضًا بنا؛ فنحن نَدينُ بالإسلامِ، وهو دينُ السعادةِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ولكِنْ حيثما كنَّا -إلَّا قليلًا- لسْنا سعداءَ لا في مظاهِرِ تديُّنِنا، ولا في أحوالِ دُنيانا!

ففي الأُولى: نأتي بما يبرَأُ منه الإسلامُ، ونصَرِّحُ بأنَّه مِن صميمِه!

وفي الثَّانيةِ: ترانا في حالةٍ مِن الجهلِ والفَقرِ والذُّلِّ والاستعبادِ يَرثي لها الجمادُ.

فلمَّا يَرانا الغربيُّون على هذه الحالةِ يَنفِرونَ مِن الإسلامِ، ويَسخرونَ منه، إلَّا مَن نظَرَ منهم بعَينِ العِلمِ والإنصافِ؛ فإنَّه يعرِفُ أنَّ ما نحن عليه هو ضِدُّ الإسلامِ، فكنَّا فِتنةً عظيمةً عليهم، وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلامِ. فكنَّا -ويا لَلأسفِ- فتنةً للقَومِ الظالمين.

وهم مِن ناحيتِهم نراهم في عزٍّ وسيادةٍ وتقدُّمٍ عِلميٍّ وعمرانيٍّ، فننظرُ إلى تلك الناحيةِ منهم، فنندفِعُ في تقليدِهم في كلِّ شيءٍ حتى معائِبِهم ومفاسِدِهم، ونَزْدَري كلَّ شيءٍ عندَنا حتى أعزَّ عزيزٍ، إلَّا مَن نظر بعينِ العِلمِ، فعرَف أنَّ كلَّ ما عندَهم مِن خيرٍ هو عندَنا في دينِنا وتاريخِنا، وأنَّ ذلك هو الذي تقَدَّموا وسادوا به، وأنَّ ما عِندَهم مِن شَرٍّ هو شَرٌّ على حقيقتِه، وأنَّ ضررَه فيهم هو ضَرَرُه، وأنَّه لا يجوز أن يُتابَعوا عليه؛ فكانوا فتنةً لنا حتى ينظُرَ مَن ينظُرُ بعَينِ الحَقِّ للحقائق ممَّن تبهَرُه الظواهِرُ فتَسلُبُه إدراكَه فيَغْدو لا يفرِّقُ بيْن اللُّبِّ والقشورِ(١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يخافون، وإنَّما جاز «يرجو» في موضِعِ «يخاف»؛ لأنَّ الرَّاجيَ الشَّيءَ قَلِقٌ فيما يرجوه؛ فمرَّةً يَشتدُّ طمَعُه فيصيرُ كالآمِنِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

ومرَّةً يضْعُفُ فيصيرُ كالخائفِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ دلَّ ظاهِرُ الآيةِ على جوازِ الرؤيةِ[٢]، وقد أجمَع أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِب إلى الحيِّ السليمِ مِن العمَى والمانعِ اقتضَى المعايَنةَ والرؤيةَ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ النبوَّةَ لا تكونُ بالاكتِسابِ، وإنَّما هي إعدادٌ مِن اللهِ تعالى؛ قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٤] [الأنعام: ١٢٤].

٧- يُفهَمُ مِن قولِه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ الآيةَ: أنَّ أصحابَ النارِ ليسوا كذلك، وأنَّ حسابَهم غيرُ يسيرٍ، وهذا المفهومُ دلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ؛ كقولِه تعالى قريبًا مِن هذه الآيةِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فقولُه: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّه على المؤمنينَ غيرُ عسيرٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[٥] [القمر: ٨].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استَنبَط بعضُ العُلماءِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ حِسابَ أهلِ الجنَّةِ يسيرٌ، وأنَّه

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١).

ينتهي في نِصفِ نَهارٍ، ووجْهُ ذلك أنَّ قولَه: ﴿مَقِيلًا﴾، أي: مكانَ قيلولةٍ، وهي الاستراحةُ في نِصفِ النَّهارِ، قالوا: وهذا الذي فُهِمَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ جاء بيانُه في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ❊ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ❊ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1] [الانشقاق: ٧-٩]. وقيل: إنَّ الله تعالى يحاسِبُ الخلائقَ كلَّها في نصفِ يومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، والقيلولةُ إنما تكونُ في نصفِ النهارِ، ويلزمُ مِن هذا أنَّ الله يحاسِبُ الخلائقَ كلَّهم في نصفِ يومٍ حتى إنَّ كلَّ واحدٍ منهم يَقيلُ في منزلِه ومستقَرِّه[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سؤالٌ، وهو أنَّ الآيةَ دلَّتْ على أنَّ مُستقَرَّهم غيرُ مَقيلِهم، فكيف ذلك؟

والجوابُ مِن وجوهٍ:

منها: أنَّ المستقَرَّ مكانُ الاستِقرارِ، والمقيلَ زمانُ القَيلولةِ، فهذا إشارةٌ إلى أنَّهم مِن المكانِ في أحسَنِ مكانٍ، ومِن الزَّمانِ في أطيَبِ زَمانٍ.

ومنها: أنَّ بعْدَ الفراغِ مِن المحاسَبةِ والذَّهابِ إلى الجنَّةِ يكونُ الوقتُ وقتَ القَيلولةِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سُؤالٌ: كيف يصحُّ القَيلولةُ في الجنَّةِ والنَّارِ، وأهلُ الجنَّةِ في الآخرةِ لا ينامون، وأهلُ النَّارِ أبدًا في عَذابٍ يَعرِفونَه، وأهلُ الجنَّةِ في نعيمٍ يَعرِفونَه؟!

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

والجوابُ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وليس في الجنَّةِ بُكرةٌ وعَشِيٌّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، ولأنَّه إذا لم يكُنْ هناك شَمسٌ لم يكُن هناك نِصفُ النَّهارِ، ولا وقتُ القَيلولةِ، بلِ المرادُ منه بيانُ أنَّ ذلك الموضِعَ أطيبُ المواضِعِ وأحسَنُها، كما أنَّ مَوضِعَ القيلولةِ يكونُ أطيبَ المواضِعِ. واللهُ أعلمُ[1]. وقيل: المقيلُ: موضعُ الاستراحةِ؛ نام أو لم ينَمْ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ رَدٌّ على قولِهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، بعْدَ أنْ ردَّ عليهم قولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨] بقولِه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ...﴾ [الفرقان: ١٠]؛ ولكنْ لَمَّا كان قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ حالةً لم تُعطَ للرُّسلِ في الحَياةِ الدُّنيا، كان رَدُّ قولِهم فيها بأنَّ اللهَ أعطاهُ خَيرًا مِن ذلك في الآخرةِ[3].

- جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ في مَوضعِ الحالِ، والتَّوكيدُ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

لتَحقيقِ وُقوعِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُشرِكين في تَناسِيهم أحوالَ الرُّسلِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنْ يكونَ الرُّسلُ السَّابقون يأْكُلون الطَّعامَ، ويَمْشون في الأسواقِ(١).

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا تَصبيرٌ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما قالوهُ واستَبْدعوهُ؛ مِن أكْلِه الطَّعامَ، ومَشْيِه في الأسواقِ، بعْدَما احتجَّ عليهم بسائرِ الرُّسلِ. وقيل: هو تَسليةٌ له عمَّا عيَّروه به مِن الفَقرِ حينَ قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾(٢).

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ؛ فضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿بَعْضَكُمْ﴾ يعُمُّ جميعَ النَّاسِ؛ بقرينةِ السِّياقِ(٣).

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عِلَّةٌ للجَعْلِ، والمعنى: وجَعَلْنا بَعضَكم لِبعضٍ فِتنةً؛ لنَعلَمَ أيُّكم يَصبِرُ. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الحثِّ والأمرِ على الصَّبرِ على ما افْتُتِنُوا به(٤).

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ الاقتِصارُ على ذِكْرِه مِن غيرِ تعرُّضٍ لمُعادِلٍ له -كأنْ يقولَ: (أتصبِرونَ أمْ لا تصبِرون)-؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ اللَّائقَ بحالِ المفتونينَ والمُتوقَّعَ صُدورُه عنهم هو الصَّبرُ لا غيرُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه مَزيدُ تَشريفٍ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالالْتفاتِ إلى اسمِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

ومَوقِعُ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ مَوقِعُ الحثِّ على الصَّبرِ المأمورِ به، أي: هو عليمٌ بالصَّابرينَ، وإيذانٌ بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ جَزاءَ الرَّسولِ على ما يُلاقِيه مِن قَومِه، وأنَّه ناصِرُه عليهم. وفي الإسنادِ إلى وصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِ إلْماعٌ إلى هذا الوعْدِ؛ فإنَّ الرَّبَّ لا يُضِيعُ أولياءَه(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حِكايةُ مَقالةٍ أُخرى مِن مَقالاتِ تكذيبِهمُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد عَنْوَنَ عليهم في هذه المقالةِ بـ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، وعَنْوَنَ عليهم في المقالاتِ السَّابقةِ بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الفرقان: ٤] وبـ﴿الظَّالِمُونَ﴾ [الفرقان: ٨]؛ لأنَّ بيْنَ هذا الوصفِ وبيْن مقالَتِهمُ انتِقاضًا؛ فهُم قد كذَّبوا بلِقاءِ الآخِرةِ بما فيه مِن رُؤْيةِ اللهِ والملائكةِ، وطلَبوا رُؤْيةَ اللهِ في الدُّنيا، ونُزولَ الملائكةِ عليهم في الدُّنيا، وأرادُوا تَلَقِّي الدِّينِ مِنَ الملائكةِ أو مِنَ اللهِ مباشرةً؛ فكان في حكايةِ قَولِهم، وذِكْرِ وصْفِهم: تَعجيبٌ مِن تَناقُضِ مَدارِكِهم! وأيضًا فإنَّ أهلَ الشِّركِ أنكروا البعثَ، وتوهَّموا أنَّ شُبهتَهُم في إنكارِه أقوَى حجَّةً لهم في تكذيبِ الرُّسلِ؛ فمِن أجْلِ ذلك أيضًا جَعَل قولَهم ذلك طريقًا لتعريفِهم بالمَوصولِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾(٣) [يونس: ١٥].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ شُروعٌ في حِكايةِ بعضٍ آخَرَ مِن أقاويلِهمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

الباطلةِ وبيانِ بُطلانِها، بعْدَ إبطالِ أباطيلِهمُ السَّابقةِ. والجملةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، ووُضِع الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ على أنَّ ما يُحكَى عنهم مِنَ الشَّناعةِ بحيثُ لا يَصدُرُ عمَّن يَعتقدُ المصيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

- والقومُ المعانِدون السابِقون في قولِه: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هم الذين وصَفَهم اللهُ هنا بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وقد أُقيمَ المُظهَرُ مُقامَ المُضمَرِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا سَلَّى رسولَه صلواتُ اللهِ عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ...﴾ [الفرقان: ٢٠] عاد إلى تقبيحِ نوعٍ آخَرَ مِن أفعالِهم، وهو إنكارُهم لقاءَ اللهِ، وأنَّ لله تعالى دارَ جَزاءٍ[٢].

- و(لولا) في قولِه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والاستِحالةِ[٣].

- قَولُه: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ استِئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ جوابٍ عن قَولِهم. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ؛ لأنَّ القسَمَ يُستعمَلُ في التَّعجُّبِ[٤]. والاستِكبارُ: مُبالَغةٌ في التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ للمُبالَغةِ[٥].

- وأيضًا هذه الجُملةُ في حُسنِ استِئنافِها غايةٌ، وفي فَحْوى هذا الفعلِ دليلٌ على التَّعجُّبِ مِن غَيرِ لفظِ التَّعجُّبِ؛ ألا ترى أنَّ المعنى: ما أشَدَّ استِكبارَهم!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥، ٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥).

وما أكبرَ عُتُوَّهم[١]! فقولُه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جملةٌ قَسَميَّةٌ، يَستدعي أنْ يُتلقَّى بها مَن يُبالِغُ في الإنكارِ، كأنَّه لَمَّا قالوا: لولا أُنزِل علينا الملائِكةُ أو نَرى ربَّنا، حُمِل السَّامعُ على أن يقولَ: ما أشدَّ استِكبارَهم! وما أكبرَ عُتُوَّهم! لأنَّها اشتَملَتْ على أمرٍ يَقتضي التَّعجُّبَ منهم، فلا يَتمالَكُ أنْ يَترُكَ ذلك القَولَ، فوُضِع مَوضِعَه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ لأنَّه أثبَتُ وأبلَغُ مِن ذلك[٢].

- قَولُه: ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وصَفَ العُتُوَّ بالكبيرِ؛ مبالَغةً في إفراطِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

- قَولُه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ ما يَلْقَونه عِندَ مُشاهَدتِهم لِما اقترحُوه مِن نُزولِ الملائكةِ عليهم السَّلامُ، بعْدَ استِعظامِه، وبيانِ كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ الشَّناعةِ. وإنَّما قيلَ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَنزِلُ الملائكةُ)؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ رُؤيتَهم لهم ليسَتْ على طريقِ الإجابةِ إلى ما اقترَحُوه، بل على وجهٍ آخَرَ غيرِ معهودٍ[٤].

- وفي هذا الاستِئنافِ تَلميحٌ وتَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ ابتِداءَه مُطمِعٌ بالاستِجابةِ، وآخِرَه مؤيِسٌ بالوعيدِ[٥].

- والعُدولُ إلى نَفْيِ الجِنسِ في قولِه: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في نَفْيِ البُشرى. وحيثُ كان نَفْيُها كِنايةً عن إثباتِ ضِدِّها -كما أنَّ نفيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦، ٧).

المحبَّةِ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البُغض والمَقْتِ- دَلَّ على ثبوتِ النَّذْرِ -أي: الخوف- لهم على أَبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه(١).

- و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تَكريرٌ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ، مع ما فيه مِنَ الإيذانِ بأنَّ تقديمَ الظَّرفِ للاهتِمامِ لا لقَصْرِ نَفْيِ البُشرَى على ذلك الوقتِ فقط؛ فإنَّ ذلك مُخِلٌّ بتَفظيعِ حالِهم(٢). وقيل: قُدِّم الظَّرفُ للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه، حتَّى إذا وَرَدَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه(٣).

- وقوله: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا عامٌّ يَتناوَلُ حُكْمُه حُكْمَهم، ولا يَلزَمُ مِن نَفْيِ البُشرى لعامَّةِ المُجرمينَ حينئذٍ نَفْيُ البُشرى بالعَفْوِ والشَّفاعةِ في وقتٍ آخَرَ، وإمَّا خاصٌّ وُضِعَ مَوضِعَ ضميرِهم؛ تسجيلًا على جُرْمِهم، وإشعارًا بما هو المانعُ للبُشرى، والموجِبُ لِما يُقابِلُها(٤).

- وفي قولِه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ جاءتِ الصِّفةُ ﴿مَّحْجُورًا﴾؛ لتأكيدِ معنَى الحَجرِ، كما يُقالُ: ذَيْلٌ ذائِلٌ -والذَّيلُ: الهَوانُ-، ومَوتٌ مائِتٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١، ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

- في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ شَبَّه عمَلَهم بالهَباءِ في قِلَّتِه وحَقارتِه عِندَه، وأنَّه لا يُنتفَعُ به مع كَونِه مَوجودًا، ثمَّ بالمَنثورِ منه؛ لأنَّك تراه مُنتظِمًا مع الضَّوءِ فإذا حرَّكَتْه الرِّيحُ رأيْتَه قد تَناثَرَ وذَهَب كُلَّ مَذهَبٍ؛ فلمْ يَكتَفِ أنْ شَبَّهَ عملَهم بالهَباءِ حتَّى جعَلَه مُتناثِرًا، ومِثْلُ هذا الإردافِ يُسمَّى في البَديعِ: بالتَّتْميمِ[1] والإيغالِ[2]؛ فقولُه: ﴿مَّنثُورًا﴾ وصْفٌ كاشِفٌ؛ لأنَّ الهَباءَ لا يَكونُ إلَّا مَنثورًا، فذِكْرُ هذا الوَصفِ للإشارةِ إلى ما في الهَباءِ مِنَ الحَقارةِ ومِنَ التَّفرُّقِ[3].

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصود؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) الإيغال: هو استِكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلامِ، وهو ضَربانِ: ١- إيغالُ تخييرٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعْدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُل؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكْمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أَيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. ٢- إيغالُ احتياطٍ: وهو استِكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيدُ معنًى زائدًا تتمَّةً للمبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، فالكلامُ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثلُ مقاطعَ ما قبْلَها وما بعْدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التولِّي قد يكون بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((حاشية =

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جِيءَ به لمُقابَلةِ حالِ المشركينَ في الآخرةِ بضِدِّها مِن حالِ أصحابِ الجنَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سَمَّى مكانَ دَعَتِهم واستِرواحِهم إلى الحُورِ مَقِيلًا -مع أنَّه لا نَومَ في الجنَّةِ- على طَريقِ التَّشبيهِ؛ إذِ المكانُ المُتخيَّرُ للقَيلولةِ يكونُ أطيَبَ المواضعِ. وفي وصْفِه بزيادةِ الحُسنِ مع حُصولِ الخَيريةِ بعَطفِه على المُستَقَرِّ رمْزٌ إلى أنَّه مُزَيَّنٌ بفُنونِ الزِّينِ والزَّخارفِ(٢). وقيل: وصَفَه بالحُسنِ؛ إرادةً لحُسنِ ساكنِيهِ على طريقِ الكِنايةِ(٣).

- واسمُ التَّفضيلِ (خَيْرٌ) في قولِه: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ قيل: إنَّه ليس على بابِه مِن استِعمالِه دَلالةً على الأفضليَّةِ؛ لئلَّا يَلزَمَ مِن ذلك خَيرٌ في مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ. وقيل: يُمكِنُ إبقاؤُه على بابِه، ويكونُ التَّفضيلُ وقَعَ بيْن المُستَقَرَّينِ والمَقِيلَينِ باعتِبارِ الزَّمانِ الواقعِ ذلك فيه(٤). وقيل: التَّفضيلُ المُعتبَرُ فيهما إمَّا لإرادةِ الزِّيادةِ على الإطلاقِ، وإمَّا بالإضافةِ إلى ما للكَفرةِ المُتنعِّمينَ في الدُّنيا، أو إلى ما لهم في الآخرةِ بطريقِ التَّهكُّمِ بهم(٥). وقيل: التفاضُلُ

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٨٦، ٦٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).



الذي ذُكِرَ بيْن المنزلتينِ إنَّما يَرجعُ إلى المَوضعِ، والموضعُ مِن حيثُ إنَّه مَوضعٌ لا شرَّ فيه. وقيل: هذا التفاضُلُ واقعٌ على هذا التقديرِ، أي: لو كان لهم مستقَرٌّ فيه خَيرٌ لكان مستقَرُّ أهلِ الجنةِ خيرًا منه[1]. وقيل: هذا يَحْسُنُ في مَعرِضِ التَّقريعِ، كما إذا أعطى السيدُ عبدَه مالًا فتَمَرَّدَ وأبى واستكبَرَ؛ فيَضْرِبُه ضربًا وجيعًا، ويقولُ على سبيلِ التوبيخِ: هذا أطيَبُ أمْ ذاك[2]؟!

- وفي قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ كِنايةٌ في قولِه: ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ و﴿مَقِيلًا﴾؛ فالمُستقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الاستِقرارِ، وهو المجلسُ الدَّائمُ لأهلِ الجنَّةِ يَستقِرُّونَ فيه ويَقْضُون مُعظَمَ أوقاتِهم مُتقابِلينَ يَتحادَثونَ ويَتسامَرون، وكَنَى به عن أحاديثِ العَشايا والبُكَرِ الَّتي يَتبادَلُونها، وهي أحاديثُ كانتْ في الدُّنيا تَدورُ بيْن المُترَفينَ وأصحابِ النَّعيمِ واليَسارِ، وكَنَى بالمَقِيلِ -وهو وقتُ استراحةِ نِصفِ النَّهارِ- عن قَضائِهم وقتَ الاستِجمامِ والاستِراحةِ مع أزواجِهم[3].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٧، ٨).

الآيات (٢٥-٢٩)

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْغَمَامِ﴾: أي: السَّحابِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَغُمُّ السَّماءَ، أي: يَستُرُها ويُغطِّيها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقدْ غَمَمتَه، وأصلُ (غمم): يدُلُّ على تغطيةٍ وإطباقٍ[١].

﴿خَلِيلًا﴾: الخَليلُ: الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، أي: الصَّداقةِ والمودَّةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تتوسَّطُها[٢].

﴿خَذُولًا﴾: أي: كثيرَ الخِذلانِ، والخِذلانُ: تَركُ المَعونةِ، وأصلُ (خذل): يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يصِفُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -أيُّها الرسولُ- حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ رَقيقٍ أبيضَ يومَ القيامةِ، وتُنزَّلُ الملائِكةُ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا. في ذلك اليَومِ يكونُ السُّلطانُ الثَّابِتُ الحَقُّ لله وحْدَه دونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩، ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

غيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ، وكان ذلك اليَومُ يَومًا شَديدًا على الكافرينَ.

ثمَّ يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ وندامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظَّالمُ المحادُّ للهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واتبَعْتُه فيما جاء به مِن عندِ رَبِّه.

وأنَّه يقولُ في هذا اليومِ: يا هَلاكي! ليتَني لم أتَّخِذْ مَن أضَلَّني وأغواني في الدُّنيا صديقًا لي وحبيبًا، لقد صرَفَني هذا الصَّديقُ المشؤومُ عن القُرآنِ والهُدى بعد أن بلَغَني. ثمَّ قال الله تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تارِكًا لإعانتِه ونصرِه وَقتَ استِنصارِه به.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذا الكلامُ مَبنيٌّ على ما استَدعَوه مِن إنزالِ الملائكةِ؛ فبَيَّنَ سُبحانَه أنَّه يحصُلُ ذلك في يومٍ له صِفاتٌ ذكَرَها في هذه الآياتِ(١).

وأيضًا لَمَّا كان للكَفَرةِ في هذه الدَّارِ مِن العِزِّ والقوَّةِ والضَّخامةِ ما يتعجَّبونَ معه مِن مَصيرِ حالِهم إلى ما ذُكِرَ؛ بَيَّنَ أنَّ الأمرَ في ذلك اليومِ على غَيرِ ما نَعهَدُه، فقال عاطِفًا على ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾(٢) [الفرقان: ٢٢]:

﴿ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٢).

أي: واذكُرْ أيُّها الرسولُ[١] يومَ القيامةِ حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ أبيَضَ رَقيقٍ[٢].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

أي: وتُنَزَّلُ الملائِكةُ يومَ القيامةِ مِن السَّمواتِ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ذلك اليومُ سببًا لانكِشافِ الأمورِ، ومَعرِفةِ أنَّه لا مُلْكَ لِسواه سُبحانَه؛ لأنَّه لا يَقضي فيه غَيرُه، قال[٤]:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (وجمهورُ المفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه «واذكُرْ»، وهو خطابٌ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يَكونُ كَذا وكَذا). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن هَولِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيه مِن الأمورِ العظيمةِ؛ فمنها انشِقاقُ السَّماءِ وتفطُّرُها، وانفراجُها بالغَمامِ، وهو ظُلَلُ النورِ العظيمِ الذي يُبهِرُ الأبصارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٣).

أي: السُّلطانُ -يومَ القيامةِ- المؤكَّدُ الثَّابِتُ الذي لا يَزولُ: للرَّحمنِ وَحْدَه دُونَ غَيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أين ملوكُ الأرضِ؟))[2].

﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾.

أي: وكان يومُ القيامةِ يَومًا صَعبًا شَديدًا على الكافرينَ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان حاصِلُ حالِ الكافرينَ أنَّهم جانَبوا أشرفَ الخلْقِ، الهاديَ لهم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

قال القرطبي: (﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ أي: لِما يَنالُهم مِن الأهوالِ، ويَلحَقُهم مِن الخِزيِ والهوانِ، وهو على المؤمِنينَ أخَفُّ مِن صَلاةٍ مكتوبةٍ...، وهذه الآيةُ دالَّةٌ عليه؛ لأنَّه إذا كان على الكافرين عَسيرًا، فهو على المؤمنين يَسيرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ أي: شديدًا صَعبًا؛ لأنَّه يومُ عَدلٍ، وقَضاءٍ فَصلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧).

كلِّ خَيرٍ، وصاحَبوا غيرَه ممَّن يقودُهم إلى كُلِّ شرٍّ؛ بَيَّنَ عُسْرَ ذلك اليومِ -الذي إنَّما أوجبَ جُرأتَهم تكذيبُهم به- بتناهِي نَدَمِهم على فِعلِهم هذا، فقال[1]:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ القيامةِ حينَ يَعَضُّ الظَّالِمُ المخالِفُ لطَريقِ الرَّسولِ على يَدَيه؛ نَدَمًا وحَسرةً وأسَفًا[2].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

أي: يَقولُ هذا الظَّالِمُ: يا ليتني اتَّبَعتُ في الدُّنيا طريقَ رَسولِ اللهِ، فآمنتُ به ولم أخالِفْه؛ لأنجوَ مِن عذابِ اللهِ، وأصِلَ إلى جنَّاتِه[3].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

قال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّ العَضَّ هنا حقيقةٌ، ولا مانِعَ من ذلك، ولا مُوجبَ لتأويلِه. وقيل: هو كنايةٌ عن الغَيظِ والحَسرةِ، والمرادُ بالظالم: كلُّ ظالمٍ يَرِدُ ذلك المكانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٤).

وقال الشنقيطي: (مِن المشهورِ عندَ علماءِ التفسيرِ أنَّ الظَّالمَ الذي نزَلَت فيه هذه الآيةُ: هو عُقبةُ ابنُ أبي مُعَيطٍ، وأنَّ فلانًا الذي أضلَّه عن الذِّكرِ: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ أو أخوه أُبَيُّ بنُ خلَفٍ... وعلى كلِّ حالٍ فالعِبرةُ بعُمومِ الألفاظِ، لا بخصوصِ الأسبابِ؛ فكُلُّ ظالمٍ أطاع خليلَه في الكُفرِ حتى مات على ذلك يجري له مِثلُ ما جرى لابنِ أبي مُعَيطٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ٢٨﴾.

أي: يقولُ الظَّالِمُ: يا هلاكي! ليتَني لم أجعَلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي(١).

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافِخِ الكِيرِ(٢)؛ فحامِلُ المسكِ: إمَّا أن يُحْذيَك(٣)، وإمَّا أنْ تَبتاعَ منه، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أن يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجِدَ ريحًا خَبيثةً))(٤).

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ٢٩﴾.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾.

أي: لقد صَرَفني مَن اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عن القُرآنِ بعد بُلوغِه إليَّ، وصَدَّني عنه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٥).

(٢) الكِير: هو شيءٌ يَنفُخُ فيه الحدَّادُ؛ لتشتَعِلَ النَّارُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٢٤).

(٣) يُحذيَك؛ أي: يُعطيَك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٧٨)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١).

(٤) رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥، ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٧).

قال السعدي: (﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ حيثُ زيَّن له ما هو عليه مِن الضَّلالِ بخُدَعِه وتسويلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عاشور: (أي: نهاني عن التدبُّرِ فيه والاستماعِ له بعْدَ أن قاربْتُ فَهْمَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

أي: قال الله: وإنَّ مِن عادةِ الشَّيطانِ وصِفَتِه المجبولِ عليها: أن يَخذُلَ الإنسانَ الذي يتَّبِعُه، وَيترُكَ إعانَتَه ونَصْرَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢-١٠٤).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ الظَّالمِ، ويحتمِلُ أن يكونَ ابتِداءَ إخبارٍ مِن الله تعالى على جهةِ الدَّلالةِ على وجهِ ضلالتِهم، والتحذيرِ مِن الشيطانِ الذي بلَّغهم ذلك المبلغَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩).

وقال القرطبي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ قيل: هذا مِن قَولِ الله لا مِن قَولِ الظالم. وتمامُ الكلامِ على هذا عندَ قولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦).

وممَّن قال بذلك: ابنُ أبي زمنين، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦).

قال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يزيِّنُ له الباطِلَ، ويقَبِّحُ له الحَقَّ، ويَعِدُه الأمانيَّ، ثم يتخلَّى عنه، ويتبرَّأُ منه، كما قال لجميعِ أتْباعِه حين قُضيَ الأمرُ، وفَرَغ اللهُ مِن حسابِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عثيمين: (فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الجنسُ، يعني: المؤمِنَ أو الكافِرَ، وإنَّما قُلْنا: إنَّ ذلك هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّه كما يُغْوي الكافرين بالكُفرِ، كذلك يُغوي المؤمنينَ بالفِسقِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ ﴾ [الحشر: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن هذا اليومِ، وأنَّه يَنبغي الاستِعدادُ له، فيومُ القيامةِ لا يمكنُ أن يَفِرَّ النَّاسُ منه ومِن أهوالِه وأحكامِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ تخويفٌ وتحذيرٌ مِن تَسَلُّطِ الملوكِ؛ فإنَّهم يجبُ أنْ يَذكُروا هذا اليومَ الذي تَزولُ فيه مِلكيَّتُهم، ولا يبقى إلَّا مُلكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ أنَّه كما علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَ الرَّسولِ -عليه وآلِه الصلاةُ والسَّلامُ- الَّتي جاء بها مِن عندِ اللهِ تعالى، وهي الإسلامُ؛ كذلك علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَه في القيامِ بشرائعِ الإسلامِ عِلمًا وعملًا؛ في أبوابِ العباداتِ، وأحكامِ المعامَلاتِ، وفي تطبيقِ أصولِ الإسلامِ وفروعِه على الحياةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، وهذه هي سُنَّتُه التي كان عليها، وكان عليها أصحابُه، وأهلُ القرنِ الثَّاني مِن التابعينَ، وأهلُ القرنِ الثالثِ مِن أتبَاعِ التابعينَ؛ تلك القرونُ المشهودُ لها بالخيريَّةِ على غيرِها بلسانِ المعصومِ، كما أنَّ مَن عدَلَ عنِ الإسلامِ ولم يَسلُكْ سبيلَه وَقَعَ في ضلالِ الكُفرِ؛ كذلك مَن عدَلَ عنِ السُّنَّةِ ولم يَسلُكْ سبيلَها وَقَعَ في ضلالِ الابتِداعِ، وكما أنَّ مَن لم يَتخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ الإسلامِ يَندَمُ أشدَّ الندمِ، ويَتَحَسَّرُ أعظَمَ الحَسرةِ على ما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩١).

مِن تَفريطِه؛ كذلك مَن لم يَتَّخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ السُّنَّةِ؛ إذْ كلٌّ منهما قد ظَلَمَ نفْسَه، وفَرَّطَ في سبيلِ نجاتِه؛ فالآيةُ وإنْ كانت في الكافرِ والمشرِكِ، فهي تتناوَلُ بطريقِ الاعتِبارِ لكلِّ الأهواءِ والبدعِ، وبهذا كانتِ الآيةُ متناوِلةً بوَعْظِها وترهيبِها جميعَ الخلْقِ ممَّن لم يَدخُلْ في الإسلامِ، أو دخَلَ فيه ولم يلزَمْ سُنَّةَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ فيه التَّحذيرُ مِن قُرَناءِ السوءِ؛ لقولِه: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾[٢]. وأنَّه يجِبُ على المرءِ أن يختارَ لنفْسِه الأصحابَ: أهلَ العِلمِ والدِّينِ[٣]. فلْينظُرِ العبدُ لنفْسِه وَقتَ الإمكانِ، ولْيَتدارَكِ المُمكنَ قبلَ ألَّا يُمكنَ، ولْيُوالِ مَن وَلايتُه فيها سَعادتُه، ولْيُعادِ مَن تنفَعُه عداوتُه وتضُرُّه صداقتُه[٤]، ولْيَختَرْ مَنْ يُخالِلُ؛ فلا يخالَّ إلَّا مَن حَسُنَتْ سريرتُه، واستقامتْ سيرتُه، وغلَب الصوابُ على أقوالِه وأعمالِه؛ ليكونَ دليلَه إلى الخيرِ، وسائقَه إليه[٥].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ عندَما تتخَلَّلُ محبَّةُ شَخصٍ مِن الناسِ قلْبَك، وتُمزَجُ برُوحِك، ويَستولي بسُلطانِ موَدَّتِه عليك؛ تصيرُ أقوالُه وأفعالُه كُلُّها عندَك مَرْضيَّةً، وعيوبُه ونقائصُه عنك محجوبةً، فتُمْسي طَوعَ بَنانِه، ورَهْنَ إشارتِه، يوجِّهُك حيث شاء، ويَصرِفُك عمَّا أراد. وهذه حالةٌ مِن أخطرِ الأحوالِ عليك؛ لأنَّك فيها قد سُلِبت تمييزَك، وخَسِرتَ إرادتَك، وصِرتَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

آلةً في يدِ غَيرِك؛ فقد ترى الخيرَ وتُدْعى إليه فيَصرِفُك عنه، وقد ترى الشرَّ وتَحذَرَ منه فيُوقِعُك فيه!

وهَبْ هذا الخليلَ كان مخلِصًا لك، وحَدِبًا عليك؛ فإنَّه غيرُ معصومٍ مِن الخطأِ والضَّلالِ، أمَّا إذا كان شرِّيرًا مفسِدًا فهنالِكَ الهلاكُ المحقَّقُ، والوَبالُ الشَّديدُ، وقد ذكَرَ لنا اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كان مِن سوءِ مثالِ الظالم بسببِ انقيادِه لخليلِه، واتِّباعِه له مِن غيرِ رويَّةٍ وصِدقِ تمييزٍ؛ تحذيرٌ مِن سلطانِ الخُلَّةِ الذي يُهمَلُ معه شأنُ الإرادةِ والتمييزِ، وتعليمٌ أنَّ علينا أنْ نحافظَ على إرادتِنا وتمييزِنا ونظرِنا لأنْفُسِنا مع الصَّديقِ والعدوِّ، ومع الخليلِ وغيرِ الخليلِ، بل نحافظُ عليها مع الخليلِ أكثرَ؛ لأنَّه مظِنَّةُ الخَوفِ بما له مِن المكانةِ في القلبِ، والسُّلطانِ على النَّفْسِ[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ فكلُّ مَن خرجَ عن اتِّباعِ الرَّسولِ فهو ظالمٌ بحَسَبِ ذلك، والمُبتدِعُ ظالمٌ بقَدْرِ ما خالف مِن سُنَّتِه[2].

٧- التقليدُ المُحَرَّمُ بالنصِّ والإجماعِ: هو أنْ يُعارِضَ قولَ اللهِ ورسولِه بما يُخالِفُ ذلك، كائنًا مَن كان المخالِفُ لذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا * وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).

سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ لا ريبَ أنَّ هذا يتناوَلُ الكافِرَ الذي لم يؤمِنْ بالرَّسولِ؛ فإنَّ «الظلمَ المُطلَقَ» يتناوَلُ ذلك ويتناوَلُ ما دونَه بحسَبِه. فمَن خالَّ مخلوقًا في خِلافِ أمرِ اللهِ ورسولِه، كان له مِن هذا الوعيدِ نَصيبٌ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1] [الزخرف: ٦٧].

٩- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ﴾ فكلُّ مَنِ اتَّخَذَ غيرَ الرَّسولِ، يَترُكُ لأقوالِه وآرائِه ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه قائلٌ هذه المقالةَ لا محالةَ؛ فهذا حالُ الخَليلينِ المتخالَّينِ على خِلافِ طاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومآلُ تلك الخُلَّةِ إلى العَداوةِ واللَّعنةِ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد ذُكِرَ حالُ هؤلاء الأتْباعِ وحالُ مَن تَبِعوهم في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. تمنَّى القَومُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه حين لا ينفَعُهم ذلك، واعتَذَروا بأنَّهم أطاعوا كُبراءَهم ورُؤساءَهم، واعتَرَفوا بأنَّهم لا عُذرَ لهم في ذلك، وأنَّهم أطاعوا السَّاداتِ والكُبَراءَ، وعَصَوُا الرَّسولَ، وآلَت تلك الطَّاعةُ والموالاةُ إلى قَولِهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وفي بَعضِ هذا عِبرةٌ للعاقِلِ ومَوعِظةٌ شافيةٌ[2].

١٠- التَّحذيرُ مِن الظُّلْمِ الذي يُصَدُّ به الإنسانُ عن دينِ اللهِ، أو التَّحذيرُ مِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).

الظُّلمِ الذي يُوقِعُ الإنسانَ في مُخالَفةِ الرُّسُلِ؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾؛ لأنَّ الغرضَ مِن ذلك التَّحذيرِ ليس مجرَّدَ القِصَّةِ، بلِ الغرضُ أن يَحذَرَ الإنسانُ مِن هذا الأمرِ الذي يكونُ مآلُ صاحبِه إلى هذا الحالِ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ الخُلَّةِ الثِّقةُ بالخَليلِ، وحملُ مَشورتِه على النُّصحِ؛ فلا ينبغي أن يَضَعَ المرءُ خُلَّتَه إلَّا حيثُ يُوقِنُ بالسَّلامةِ مِن إشاراتِ السُّوءِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾[2] [آل عمران: ١١٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ دَليلٌ على مجيءِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ -مع أنَّه ليس في الآيةِ ذِكرُ المجيءِ-؛ وذلك لأنَّ تشَقُّقَ السَّماءِ بالغَمامِ وتنزيلَ الملائكةِ إنَّما يكونانِ عندَ مجيءِ اللهِ للقَضاءِ بيْن عبادِه، فيكونُ مِن بابِ الاستِدلالِ بأحَدِ الأمْرَينِ على الآخَرِ؛ لِمَا بيْنَهما مِن التلازُمِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه أنَّ الملائكةَ في السَّماءِ[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ لم يقُلْ: «للهِ»؛ إشارةً إلى كثرةِ رحمةِ اللهِ في ذلك اليومِ[5].

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ فلا يبقى لأحدٍ مِن المخلوقين

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٩٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

مُلكٌ ولا صورةُ مُلكٍ، كما كانوا في الدُّنيا، بل قد تساوت الملوكُ ورعاياهم، والأحرارُ والعبيدُ، والأشرافُ وغيرُهم. وممَّا يرتاحُ له القَلبُ، وتطمئِنُّ به النَّفْسُ، ويَنشرِحُ له الصدرُ: أنْ أضاف المُلْكَ في يومِ القيامةِ لاسمِه «الرَّحمن» الذي وَسِعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وعَمَّتْ كلَّ حيٍّ، وملأتِ الكائناتِ، وعمَرتْ بها الدُّنيا والآخرةُ، وتمَّ بها كلُّ ناقِصٍ، وزال بها كلُّ نَقصٍ، وغلبتِ الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماءَ الدالَّةَ على الغَضَبِ، وسبقتْ رحمتُه غضَبَه وغلَبَتْه، فلها السَّبْقُ والغَلَبةُ، وخَلَقَ هذا الآدميَّ الضعيفَ وشَرَّفَه وكَرَّمَه؛ لِيُتِمَّ عليه نِعمَتَه، ولِيتغمَّدَه برَحمتِه، وقد حضروا في موقِفِ الذُّلِّ والخُضوعِ والاستِكانةِ بيْنَ يدَيه ينتَظِرونَ ما يَحكُمُ فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالِدِيهم، فما ظَنُّك بما يُعامِلُهم به؟! ولا يَهلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ، ولا يَخرُجُ مِن رحمتِه إلَّا مَن غلَبَتْ عليه الشَّقاوةُ، وحَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دليلٌ على أنَّه على المؤمنين يَسيرٌ، وهي بِشارةٌ لهم؛ إذ مُحالٌ أن يَخُصَّ الكفَّارَ بصِفةِ عقوبةٍ لهم إلَّا والمؤمِنونَ بضِدِّ تلك الصِّفةِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دَليلٌ على اختِلافِ النَّاسِ في ذلك الموقِفِ؛ وأنَّ يُسْرَ ذلك اليومِ وعُسرَه بحسَبِ حالِ الإنسانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أشَدَّ إيمانًا وأشدَّ تقوى للهِ عزَّ وجلَّ، كان ذلك اليومُ أيسَرَ له، وكلَّما كان الإنسانُ أعتى وأكفَرَ كان أشَدَّ وأعظَمَ، والقاعدةُ: أنَّه إذا عُلِّق الحُكمُ على وصفٍ، كان أثَرُ ذلك الحُكمِ بحسَبِ ذلك الوَصفِ، يعني: أنَّ تأثيرَ الوَصفِ في الحُكمِ بحَسَبِ الوصفِ، فإذا كان العُسرُ معلَّقًا بالكُفرِ، فكُلَّما كان

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٧).

الكفرُ أشَدَّ كان العُسرُ أشَدَّ، وإذا عُلِّق اليُسرُ بالإيمانِ، صار كلَّما كان الإيمانُ أقوى كان اليُسرُ أقوى[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ أنَّ عمومَ الظَّالمِين في يوم القيامةِ يُؤمِنونَ بالحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾، فأقَرَّ بأنَّ الذِّكرَ قد جاءه، وأقَرَّ بأنَّ ما جاءه ذِكرٌ يَتذكَّرُ به المرءُ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، والمقصودُ: تأْييسُهم مِنَ الانتِفاعِ بأعمالِهم وبآلهتِهم، وتأكيدُ وعيدِهم. وأَدمَج في ذلك وَصْفَ بَعضِ شُؤونِ ذلك اليَومِ، وأنَّه يومُ تنزيلِ الملائكةِ بمَرْأى مِنَ النَّاسِ[3].

- قَولُه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ (يوم) على طريقةِ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ وإنْ كان ذلك يَومًا واحدًا؛ لِبُعْدِ ما بيْن المُعادِ ومكانِ الضَّميرِ[4].

- قَولُه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ لَمَّا كان انشِقاقُ السَّماءِ بسَببِ طُلوعِ الغَمامِ منها، جعَلَ الغَمامَ كأنَّه الَّذي تَشقَّقَ به السَّماءُ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]. وقيل: الباءُ باءُ الحالِ، أي: مُتغيِّمةً[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

- قَولُه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الفِعلِ (نُزِّلَ) بالمفعولِ المطْلَقِ ﴿تَنزِيلًا﴾؛ لإفادةِ أنَّه نزولٌ بالذَّاتِ[1]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الملائكةَ يَنزِلونَ شَيئًا فشَيئًا، لا يَنزِلون جُملةً[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ﴾ هو صَدْرُ الجُملةِ المعطوفةِ؛ فيَتعلَّقُ به ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾، وإنَّما قُدِّم عليه للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه حتَّى إذا وردَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه. وتَكريرُ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ[3].

- وفائدةُ التَّقييدِ بـ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قولِه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾: أنَّ ثبوتَ المُلكِ المذكورِ له تعالى خاصَّةً يومَئذٍ، وأمَّا فيما عَداهُ مِن أيَّامِ الدُّنيا فيكونُ لِغَيرِه أيضًا تصرُّفٌ صُوريٌّ في الجُملةِ[4]، ففي ذلك اليومِ لا مالكَ سِواهُ -لا في الصورةِ ولا في المعنى- فتخضَعُ له الملوكُ، وتَعْنُو له الوجوهُ، وتَذِلُّ له الجبابرةُ، بخلافِ سائرِ الأيَّامِ[5]. وإيرادُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ اتِّصافَه تعالى بغايةِ الرَّحمةِ لا يُهوِّنُ الخَطْبَ على الكَفَرةِ؛ لعَدمِ استِحقاقِهم للرَّحمةِ[6].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبلَه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لمراعاةِ الفَواصلِ[(١)]. وقيل: تقديمُ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للحَصْرِ والقَصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: دُونَ المؤمنينَ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عَضُّ اليدَينِ والأناملِ كِنايةٌ عنِ الغَيظِ والحَسرةِ؛ لأنَّها مِن رَوادِفِها، فيَذكُرُ الرَّادفةَ ويدُلُّ بها على المَردوفِ، فيَرتفِعُ الكلامُ به في طَبقةِ الفَصاحةِ، ويَجِدُ السَّامعُ عِندَه في نفْسِه مِنَ الرَّوعةِ والاستِحسانِ ما لا يَجِدُه عِندَ لفظِ المُكنَى عنه؛ فشأنُ مَن وقَع في غَيظٍ وحَسرةٍ ونَدامةٍ أنْ يَعَضَّ يَديهِ، ويأكُلَ بَنانَه كأنَّه لَمَّا لم يجِدْ شيئًا يُطفِئُ فيه غيظَه، رَجَع على نفْسِه بذلك؛ فلذا يُكنَى به عنها؛ مِن إطلاقِ اللازمِ وإرادةِ الملزومِ، وذلك لا يَمنَعُ مِن وجودِ العَضِّ منه حقيقةً، بل وقوعُ ذلك هو الشأنُ الغالبُ[(٣)].

- والعَضُّ: الشَّدُّ بالأسنانِ على الشَّيءِ؛ لِيُؤْلِمَه أو لِيُمْسِكَه، وحقُّه التَّعديةُ بنفْسِه -فيُقال: عَضَّ يَديهِ-، إلَّا أنَّه كثُرَتْ تَعديتُه بـ (على)؛ لإفادةِ التَّمكُّنِ مِنَ المَعضوضِ إذا قصَدوا عضًّا شديدًا، كما في هذه الآيةِ[(٤)].

- واللَّامُ في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يَجوزُ أن تكونَ للعهدِ، ويَجوزُ أن تكونَ للجِنسِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣، ٢١٤).

- قَولُه: ﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿يَـٰلَيْتَنِى﴾ نداءٌ للكلامِ الدَّالِّ على التَّمنِّي، وهذا النِّداءُ يَزيدُ المُتمنَّى استِبعادًا[١]؛ نادَى ويْلَتَه -أي: هلَكَتَه- لِتَحضُرَ في ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وقْتُها، وليس نِداؤُها رَغبةً في حُضورِها؛ فالهلاكُ لا يُرغَبُ فيه، وإنَّما نادى الهلاكَ لِيَحضُرَ؛ لِمَا حصَلَ له مِن اليأْسِ والقنوطِ مِن أسبابِ النَّجاةِ، فلمْ يَبْقَ له إلَّا الهلاكُ[٢].

- وجملةُ ﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ حاليَّةٌ؛ فهو يعَضُّ حالةَ كونِه قائلًا: يا لَيْتني، فبيَّنَتْ هذه الجُملةُ ما يقولُ، كما بيَّنَت الَّتي قبْلَها ما يَعمَلُ، فصَوَّرتاهُ في حالِه الشَّنيعِ الفظيعِ[٣].

- وإنَّما عَدَلَ عنِ الإتيانِ بفِعلِ الاتِّباعِ ونَحوِه بأنْ يُقالَ: (يا لَيْتَني اتَّبعْتُ الرَّسولَ)، إلى هذا التَّركيبِ ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ الذي فيه إطْنابٌ؛ لأنَّ في هذا التَّركيبِ تَمثيلَ هَيئةِ الاقتِداءِ بهَيئةِ مُسايرةِ الدَّليلِ تمثيلًا مُحتويًا على تَشبيهِ دَعوةِ الرَّسولِ بالسَّبيلِ، ومُتضمِّنًا تَشبيهَ ما يَحصُلُ عن سُلوكِ ذلك السَّبيلِ مِنَ النَّجاةِ ببُلوغِ السَّائرِ إلى المَوضعِ المقصودِ؛ فكان حُصولُ هذه المعاني صائرًا بالإطنابِ إلى إيجازٍ، وأمَّا لفْظُ المتابعةِ فقد شاع إطلاقُه على الاقتِداءِ، فهو غيرُ مُشعِرٍ بهذا التَّمثيلِ[٤].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿سَبِيلًا﴾ للإفرادِ، أي: سبيلًا واحدًا لا تعدُّدَ فيه، بخِلافِ ما كان عليه الظَّالمُ مِن سُبُلِ أهوائِه المُتعدِّدةِ المُتشعِّبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾

- قَولُه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ تَحسُّرٌ بطريقِ نِداءِ الوَيلِ، والألِفُ عِوَضٌ عن ياءِ المتكلِّم، وهو تَعويضٌ مشهورٌ في نِداءِ المضافِ إلى ياءِ المُتكلِّمِ[١]. وهذا التَّمنِّي منه وإنْ كان مَسوقًا لإبرازِ النَّدمِ والحَسرةِ، لكنَّه مُتضمِّنٌ لنَوعِ تَعلُّلٍ واعتِذارٍ بإسنادِ جِنايتِه إلى الغَيرِ[٢].

- وكلمةُ (فُلان) كِنايةٌ عن الأَعلامِ؛ فإنْ أُريدَ بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عُقْبةُ -أي: ابنُ أبي مُعَيطٍ-؛ فمعنى قولِه: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾: لَيْتَني لمْ أتَّخِذْ أُبَيًّا -أي: ابنَ خَلَفٍ- خليلًا؛ فكَنَى عنِ اسمِه. وإنْ أُريدَ به الجِنسُ، فكلُّ مَنِ اتَّخَذ مِنَ المُضلِّينَ خليلًا كان لخَليلِه اسمٌ عَلَمٌ لا مَحالةَ، فجَعَله كِنايةً عنه؛ فعلى هذا الجملةُ مُعترِضةٌ مُذيِّلةٌ، وعلى التَّعيينِ يَجوزُ أن يكونَ حالًا[٣]. وقيل: (فُلانٌ) كِنايةٌ عنِ الشَّيطانِ[٤]. والدَّاعي إلى الكِنايةِ بـ(فُلانٍ) إمَّا قصْدُ إخفاءِ اسمِه خِيفةً عليه، أو خِيفةً مِن أهْلِهم، أو للجَهلِ به، أو لعدَمِ الفائدةِ لذِكْرِه، أو لقصْدِ نَوعِ مَن له اسمٌ عَلَمٌ. وهذانِ الأَخيرانِ هُمَا اللَّذانِ يَجْرِيانِ في هذه الآيةِ إنْ حُمِلَتْ على إرادةِ خُصوصِ عُقْبةَ وأُبَيٍّ، أو حُمِلَتْ على إرادةِ كلِّ مُشرِكٍ له خَليلٌ صَدَّه عنِ اتِّباعِ الإسلامِ. وإنَّما تَمنَّى ألَّا يكونَ اتَّخذَه خليلًا دُونَ تَمنِّي أن يكونَ عَصاهُ فيما سَوَّلَ له؛ قصْدًا للاشمِئْزازِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢).

خُلَّتِه مِن أصْلِها، إذْ كان الإضلالُ مِن أحوالِها(١).

- وقيل: كَنَى (بفلانٍ)؛ لأنَّ لكلِّ ظالمٍ خليلًا له اسْمُه الخاصُّ؛ فلا يُمكِنُ التَّصريحُ بأسماءِ الجميعِ، فما بقِيَ إلَّا الكِنايةُ عنها بفُلانٍ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ تعليلٌ لتَمنِّيه ألَّا يكونَ اتَّخذ فُلانًا خَليلًا بأنَّه قد صَدَر عن خُلَّتِه أَعظَمُ خُسرانٍ لخليلِه؛ إذْ أَضَلَّه عنِ الحقِّ بعْدَ أن كاد يَتمكَّنُ منه(٣)، وتَصديرُه باللَّامِ القسَميَّةِ؛ للمُبالَغةِ في بيانِ خَطئِه، وإظهارِ ندَمِه وحَسْرتِه(٤).

- وجملةُ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ بيانٌ لسببِ تَمنِّيه السابِقِ(٥).

- وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرْفٌ للزَّمنِ الماضي، أي: بعْدَ وقْتٍ جاءَني فيه الذِّكرُ، والإتيانُ بالظَّرفِ هنا دُونَ أن يُقالَ: (بعدَ ما جاءَني)، أو (بعدَ أنْ جاءَني)؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ التَّمكُّنِ مِنَ الذِّكرِ؛ لأنَّه قد استَقرَّ في زمنٍ وتحقَّقَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، أي: تَمكَّنَ هَدْيُه منهم(٦).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ اعتِراضٌ مقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه؛ إمَّا مِن جهتِه تعالى، أو مِن تمامِ كلامِ الظَّالمِ، على أنَّه سَمَّى خليلَه شيطانًا بعْدَ وصْفِه بالإضلالِ الَّذي هو أخَصُّ الأوصافِ الشَّيطانيَّةِ؛ لأنَّه أضَلَّه كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

يُضِلُّ الشَّيطانُ، ثمَّ خَذَله ولمْ يَنفَعْه في العاقبةِ، أو على أنَّه أرادَ بالشَّيطانِ إبليسَ؛ لأنَّه الَّذي حمَلَه على مُخالَّةِ المُضلِّينَ، ومُخالَفةِ الرَّسولِ الهادي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بوَسوَستِه وإغوائِه، ثمَّ خذَلَه. أو أرادَ الجِنسَ، وكلَّ مَن تَشَيْطَنَ مِنَ الجنِّ والإنسِ. لكنْ وصْفُه بالخِذلانِ يُشعِرُ بأنَّه كان يَعِدُه في الدُّنيا ويُمَنِّيه بأنْ يَنفَعَه في الآخِرةِ، وهو أَوْفَقُ بحالِ إبليسَ[1].

- وقيل: هو تَذْييلٌ مِن كلامِ اللهِ تعالى لا مِن كلامِ الظَّالمِ؛ تَنبيهًا للنَّاسِ على أنَّ كلَّ هذا الإضلالِ مِن عمَلِ الشَّيطانِ، فهو الَّذي يُسَوِّلُ لخَليلِ الظَّالمِ إضلالَ خَليلِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ خَذولُ الإنسانِ، أي: مَجْبولٌ على شدَّةِ خَذْلِه... والخَذْلُ: ترْكُ نصْرِ المُستنجِدِ مع القدرةِ على نصْرِه، فإذا أَعانَ على الهزيمةِ فهو أشدُّ الخَذْلِ، وهو المقصودُ مِن صيغةِ المُبالَغةِ في وصْفِ الشَّيطانِ بخَذْلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَكيدُ الإنسانَ فيُورِّطُه في الضُّرِّ، فهو خَذولٌ[2].

- وقيل: (أل) في (الشَّيْطَان) و(الإنْسَانِ) للجِنسِ؛ فيَدخُلُ في جِنسِ الشَّيطانِ خليلُ الظَّالمِ الَّذي صدَّه عن الذِّكرِ، وقرينُ خَليلِه مِن الجنِّ الَّذي سوَّل له ذلك وأعانَه، وقرينُه هو الَّذي زيَّنَه له ودعاهُ إليه[3].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦، ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

الآيات (٣٠-٣٤)

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَهْجُورًا﴾: أي: مَتروكًا، والهَجرُ والهِجْرانُ: مُفارقةُ الإنسانِ غَيْرَه، وأصلُ (هجر) هنا: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ(١).

﴿جُمْلَةً﴾: أي: دَفعةً، مجتمِعًا، في وقتٍ واحدٍ، لا كما أُنزِل نُجومًا مُتفَرِّقةً، ويُقالُ لكلِّ جماعةٍ غيرِ منفصلةٍ: جُمْلَةٌ، وأصلُ (جمل) هنا: تجمُّعٌ(٢).

﴿تَفْسِيرًا﴾: أي: بَيانًا، وأصلُ (فسر): يدُلُّ على بيانِ شَيءٍ وإيضاحِه(٣).

﴿يُحْشَرُونَ﴾: أي: يُجمعونَ، والحشرُ: الجمعُ معَ سَوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجمعِ بكثرةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، =

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقال الرَّسولُ لرَبِّه جَلَّ وعلا، مُشتَكيًا في الدُّنيا: يا رَبِّ، إنَّ الكُفَّارَ مِن قَومي ترَكوا هذا القُرآنَ وأعرَضوا عنه فلا يُؤمِنون به، ولا يَعمَلون بأحكامِه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ نبيٍّ مِن الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم؛ فاصبِرْ كما صَبَروا، وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا وناصِرًا لك على أعدائِك.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أيضًا بعضَ شبهاتِ المشركينِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ: هلَّا نزَّل اللهُ عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ دَفعةً واحِدةً لا مُفَرَّقًا؟ ويرُدُّ عليهم سبحانَه فيقولُ: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقَوِّيَ به قَلبَك، وتزدادَ ثَباتًا ويَقينًا، وجعَلْنا بَعضَه يَنزِلُ في إثْرِ بَعضٍ على تُؤَدةٍ وتمَهُّلٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا.

ولا يأتيك هؤلاء المُشرِكون بمَثَلٍ مِن الأمثالِ التي مِن جُملتِها اقتِراحاتُهم القبيحةُ، يُريدونَ به القَدْحَ في نبوَّتِك، إلَّا جِئْناك في مُقابَلتِه بالجوابِ الحَقِّ الثابتِ الذي يُبطِلُ شُبهَتَهم بأحسَنَ ممَّا جاؤوا به كَشفًا وبَيانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ مَسحوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ أولئك شَرٌّ مَنزِلًا ومَكانًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ.



= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أكثَرَ الكُفَّارُ مِن الاعتراضاتِ الفاسِدةِ ووجوهِ التعَنُّتِ؛ ضاق صدرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وشكاهم إلى اللهِ تعالى[1].

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾.

أي: وقال الرَّسولُ مُشتَكيًا في الدُّنيا[2] إلى رَبِّه: يا رَبِّ، إنَّ كُفَّارَ قَومي تَرَكوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه؛ لا يَسمَعونه ولا يتدَبَّرونَه، ولا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلون بأحكامِه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّه يقولُ ذلك في الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجمهور، والرازيُّ ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والنسفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)،))تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

وممَّن اختار أنَّ هذا القولَ يقولُه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والبغويُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢)، ((الوجيز)) (ص: ٧٧٨) للواحدي، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بهَجرِ القُرآنِ: أنَّهم يَتركونَه، ويُعرِضونَ عنه؛ لا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلونَ بما فيه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، =

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شكا عليه الصلاةُ والسلامُ قومَه؛ سلَّاه اللهُ تعالى وعزَّاه، وأمرَه بالصَّبرِ

= ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠).

قال ابنُ كثير: (﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ يقولُ تعالى مُخبرًا عن رَسولِه ونَبيِّه محمَّدٍ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه دائِمًا إلى يوم الدِّينِ- أنَّه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وذلك أنَّ المُشرِكينَ كانوا لا يُصغُونَ للقُرآنِ ولا يَسمَعونَه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القُرآنُ أكثَروا اللَّغَطَ والكلامَ في غَيرِه؛ حتى لا يَسمَعوه، فهذا مِن هِجرانِه، وتَرْكُ عِلْمِه وحِفْظِه أيضًا: مِن هِجرانِه، وتَركُ الإيمانِ به وتَصديقِه: مِن هِجرانِه، وتَرْكُ تَدبُّرِه وتَفَهُّمِه: مِن هِجرانِه، وتَركُ العَمَلِ به، وامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ زواجِرِه: مِن هِجرانِه، والعُدولُ عنه إلى غَيرِه؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غِناءٍ، أو لَهْوٍ، أو كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غَيرِه: مِن هِجرانِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨).

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى أنَّهم جَعَلوه كالهَذَيانِ، وما لا يُنتفَعُ به مِن القَولِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزجَّاجُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠] فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّهم هَجَروه بإعراضِهم عنه، فصار مَهجورًا. قاله ابنُ زيد. الثَّاني: أنَّهم قالوا فيه هُجْرًا، أي: قَبيحًا. قاله مجاهِدٌ. الثَّالثُ: أنَّهم جَعَلوه هَجْرًا مِنَ الكلامِ، وهو: ما لا نَفْعَ فيه مِنَ العَبَثِ والهَذَيانِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٣).

والثَّباتِ، ووعدَه ورجَّاه[1]، وبيَّنَ أنَّ له أُسوةً بسائِرِ الرسُلِ؛ فلْيَصبِرْ على ما يَلْقاهُ مِن قَومِه كما صَبَروا[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾.

أي: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَر أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك[3].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه جعَل لكُلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرمين، وهؤلاء المجرِمون يحاوِلون القضاءَ على الرِّسالةِ أو النبوَّةِ بواحدٍ مِن أمْرَين؛ إمَّا بإضلالِ النَّاسِ وصَدِّهم عمَّا جاءت به الرسُلُ، وإمَّا بقِتالِهم وإهلاكِهم، فيَعتَدُون على النَّاسِ بالقِتالِ- فقال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا﴾ في مقابلةِ محاولةِ الإضلالِ، ﴿وَنَصِيرٗا﴾ في مُقابلةِ محاولةِ القضاءِ على الأنبياءِ وأُمَمِهم[4].

وأيضًا لَمَّا كان هذا مَوطنًا تتعلَّقُ فيه النفوسُ متشوِّقةً إلى الهدايةِ بعْدَ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

الطَّبْعِ، والنُّصرةِ بعْدَ ذلك الجَعْلِ؛ كان كأنَّه قيل: لا تَحزَنْ؛ فلَنَجعلَنَّ لك وَلِيًّا ممَّن نَهْديه للإيمانِ، ولَننصرَنَّهم على عدوِّهم كما فعَلْنا بمَن قبْلَك، بل أعظم[1].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

أي: وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ الله إليهم، متوكِّلًا عليه سبحانه[2].

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه شِكايةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن هِجرانِ قَومِه للقُرآنِ، وقرَّرَ عداوتَهم له، ونُصرتَه عليهم؛ أتبَعَ ذلك بما يدُلُّ عليه، فقال عَطفًا على ما مضَى مِن الأشباهِ في الشُّبَهِ[3]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا نزَّل اللهُ على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزِّلْ مُفَرَّقًا[1]؟

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

أي: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفَرَّقًا؛ لنقوِّيَ قَلبَك فتَعِيَه وتحفَظَه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا[2].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي: أنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتَمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ التَّرتيلَ بمعنى الترسُّلِ، والتَّمكُّثِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، على تؤَدَةٍ وتَمهُّلٍ: مقاتِلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والنَّخَعيُّ، والحسن، وابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا رَدَّ تعالى اعتراضاتِهم، وأبطَلَ شُبُهاتِهم؛ أخبرَ بأنَّه لا يَزالُ القرآنُ كذلك: يَدمغُ باطلَهم بحقِّه فيُزهِقُه، ويَصدَعُ غشاءَ تَمويهِهم بصادقِ بيانِه فيُمَزِّقُه؛ لِطمأنةِ قلْبِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم وتثبيتِه، والوعدِ له بدوامِ النَّصرِ والتأييدِ[1].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولا يَذكُرُ مُشرِكو قُرَيشٍ شُبهةً أو اقتِراحًا يُعارِضون به الحَقَّ ويَطعنونَ به فيه، إلَّا أنزَلْنا مِن القُرآنِ ما يُبطِلُ شُبهَتَهم، ويَرُدُّ حُجَّتَهم بأحسَنَ مِمَّا جاؤوا به؛

= وممَّن اختار أنَّ الترتيلَ بمعنى التَّبيينِ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩).

وممَّن قال بذلك مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

قال العليمي: (﴿وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِيلًا﴾: أنزَلْنا بعضَه في إثرِ بعضٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣).

وقال الثعلبي: (والترتيلُ: التبيينُ في ترسُّلٍ وتثبُّتٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والترتيلُ يوصَفُ به الكلامُ إذا كان حسَنَ التأليفِ، بيِّنَ الدَّلالةِ... والترتيلُ يجوزُ أن يكون حالةً لنزولِ القرآنِ، أي: نزلَّناه مفرَّقًا منسَّقًا في ألفاظِه ومعانيه، غيرَ متراكمٍ، فهو مفرَّقٌ في الزمانِ، فإذا كمل إنزالُ سورةٍ جاءت آياتُها مرتَّبةً متناسِبةً، كأنَّها أُنزلت جُملةً واحدةً، ومفرَّقٌ في التأليفِ بأنه مفصَّلٌ واضحٌ... ويجوزُ أن يرادَ بـ «رتلناه»: أمَرْنا بترتيلِه، أي: بقراءتِه مرتَّلًا، أي: بتمهُّلٍ بألَّا يُعجِّلَ في قراءتِه؛ بأن تُبيَّنَ جميعُ الحروفِ والحركاتِ بمهلٍ، وهو المذكورُ في سورةِ «المزمل» في قولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٢).

بيانًا ووضوحًا، وفصاحةً وتَفصيلًا[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أبطلَ سبحانه شُبَهَهم؛ بَيَّنَ مآلَهم وجزاءَهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

أي: الذين يُجمَعونَ يومَ القيامةِ قَهرًا يُساقونَ مَقلوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ: أولئك شَرٌّ مُستقَرًّا ومُقامًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ طَريقًا عن الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

قال ابنُ القيمِ: (التفسيرُ الأحسَنُ: هو الألفاظُ الدالَّةُ على ذلك الحَقِّ، فهي تفسيرُه وبيانُه... فلا بدَّ مِن أن يكونَ التفسيرُ مُطابقًا للمُفَسَّرِ مُفهِمًا له، وكلَّما كان فَهْمُ المعنى منه أوضَحَ وأبْيَنَ، كان التفسيرُ أكمَلَ وأحسَنَ؛ ولهذا لا تجِدُ كلامًا أحسَنَ تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا مِن كلامِ الله سُبحانَه). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

وقال ابن عثيمين: (... فالمرادُ بالمثَلِ هنا الصِّفةُ، يعني: لا يأتونَك بصِفةٍ مِن القَولِ يُريدونَ بها إبطالَ دَعوتِك إلَّا جِئْناك بالحقِّ، إذَنْ فهُم يأتون بباطلٍ؛ لأنَّه قابَلَ قَولَهم بالحَقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا على أنَّ كُلَّ شُبهةٍ يحتَجُّ بها المكَذِّبون للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي باطِلٌ، ولكِنَّ هذا الباطِلَ باطِلٌ في ذاتِه؛ قد يظهَرُ لبعضِ النَّاسِ بُطلانُه، وقد يَخفى على بعضِ النَّاسِ بُطلانُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه: هؤلاء المُشرِكون -يا محمَّدُ- القائلون لك: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ومَن كان على مِثلِ الذي هم عليه من الكُفرِ بالله، الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، فيُساقُونَ إلى جهنَّمَ: شَرٌّ مُستقَرًّا في الدُّنيا والآخرةِ مِن أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأضَلُّ منهم في الدُّنيا طريقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨).

عن قَتادةَ، قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يومَ القيامةِ؟ قال: أليس الَّذي أَمْشاهُ على رِجلَيهِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وجْهِه يومَ القيامةِ؟)). قال قَتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا[١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ فيه تَلويحٌ بأنَّ مِن حقِّ المؤمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهُدِ للقُرآنِ؛ كَيْ لا يَندرِجَ تحتَ ظاهرِ النَّظمِ الكريمِ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ شكا نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ربِّه هَجْرَ قومِه -وهم كفَّارُ قريشٍ- لهذا القرآنِ العظيمِ، أي: تَرْكَهم لتصديقِه والعملِ به، وهذه شكوى عظيمةٌ، وفيها أعظَمُ تخويفٍ لمَن هجَر هذا القرآنَ العظيمَ، فلم يعمَلْ بما فيه مِن الحلالِ والحرامِ والآدابِ والمكارمِ، ولم يعتقِدْ ما فيه مِن العقائدِ، ويَعتبِرْ بما فيه مِن الزَّواجرِ والقصصِ والأمثالِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ابتلاءُ اللهِ سُبحانَه وتعالى للمُؤمِنِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ قويًّا فإنه يَصمُدُ أمامَ هذه الشُّبُهاتِ، وأمامَ هذه العَداوةِ، وإذا كان ضعيفًا فإنه يتأثَّرُ، فهذا مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ أنَّ اللهَ يُقيِّضُ للإنسانِ ما يكونُ سببًا للحَيلولةِ بيْنه وبيْن دَعوتِه لِيَبلُوَهُ، قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعني: اطمأنَّ بحالِه التي هو عليها، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]: وإنْ أصابَته فِتنةٌ وأمرٌ يَشغَلُه انقلبَ على وَجهِه[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وهذه العداوةُ التي ذكَرَها اللهُ تعالى تكونُ أيضًا لأتْباعِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ هؤلاء عادَوُا الرسُلَ لدُعائِهم للحَقِّ، يعني: ما عادَوُا الرُّسُلَ لأشخاصِهم؛ ولهذا كان الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ قبْلَ البَعثةِ عندَ قريشٍ ليس عدوًّا، بل هم يُسمُّونَه الأمينَ، فما دامتِ العداوةُ مِن أجْلِ الدعوةِ إلى الدِّينِ فسوف تكونُ لكلِّ مَن دعا إلى الدِّينِ؛ لأنَّ الذي يَدعو مثلًا إلى شريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو يدعو إلى ما دعا إليه النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ، فلا بُدَّ أن يكونَ له أعداءٌ، كما كان للأنبياءِ أعداءٌ؛ وعليه فالواجِبُ على مَن دعا إلى الهُدى وأُوذيَ أن يَصبِرَ، وأن يَتَأسَّى بما جرى للرسُلِ مِن قبْلِه، والرسُلُ أعظَمُ منزلةً عندَ اللهِ منه، ومع ذلك مَكَّنَ أعداءَهم ممَّا فعَلوه[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ دليلٌ على أنَّه يَنبَغي لِمَن أراد حِفظَ شَيءٍ أنْ يَحفَظَ منه قَدْرًا قليلًا، أو شَيئًا بعْدَ شَيءٍ؛ لِيَرسَخَ في قلبِه، ويأمَنَ مِن نسيانِه[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾، أيْ: نزَّلْناه مُفرَّقًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن دَلائلِ أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ شأنَ كلامِ النَّاسِ إذا فُرِّقَ تأليفُه على أزمنةٍ مُتباعِدةٍ أنْ يَعتَوِرَه التَّفكُّكُ وعدَمُ تَشابُهِ الجُمَلِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ مِن محاسِنِ هذه الشَّريعةِ المطَهَّرةِ أنَّها نزلت بالتَّدريجِ المناسِبِ، ويُفيدُنا ذلك فائدةً عمليَّةً، وهي أن نقرأَ القرآنَ ونتفهَّمَه حتى تكونَ آياتُه على طَرفِ ألسنتِنا، ومعانيه نُصبَ أعيُنِنا؛ لِنُطبِّقَ آياتِه على أحوالِنا، ونُنزِلَها عليها، كما كانت تَنزِلُ على الأحوالِ والوقائعِ، فإذا حَدَثَ مرَضٌ قلبيٌّ أو اجتِماعيٌّ طلَبْنا دواءَه في القرآنِ، وطبَّقناه عليه، وإذا عَرَضَتْ شُبهةٌ أو ورَدَ اعتِراضٌ؛ طلَبْنا فيه الرَّدَّ والإبطالَ، وإذا نزلَتْ نازلةٌ طلَبْنا فيه حُكمَها، وهكذا نذهَبُ في تطبيقِه وتنزيلِه على الشُّؤونِ والأحوالِ إلى أقصى حَدٍّ يمكِنُنا[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ في تَنَزُّلِ آياتِ القرآنِ على حسَبِ الوقائعِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي للمتكَلِّمِ في العِلمِ -مِن مُحَدِّثٍ ومُعَلِّمٍ- كلَّما حَدَثَ مُوجِبٌ أو حَصَلَ مَوسِمٌ، أن يأتيَ بما يناسِبُ ذلك مِن الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ، وفيها قدوةٌ صالحةٌ لأئمَّةِ الجُمَعِ وخُطبائِها في توخِّيهم بخُطَبِهم الوقائعَ النازِلةَ، وتطبيقِهم خُطَبَهم على مقتضى الحالِ، وذِكرِ المواعِظِ الموافِقةِ لذلك[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أنَّه ينبغي أن نقتديَ بالقرآنِ فيما نأتي به مِن كلامٍ في مقامِ الحِجاجِ أو مقامِ الإرشادِ، فلْنَتوَخَّ دائمًا الحقَّ الثابتَ بالبرهانِ أو بالعِيانِ، ولْنُفَسِّرْه أحسَنَ التفسيرِ، ولْنَشرَحْه أكمَلَ الشرحِ، ولْنُقَرِّبْه إلى الأذهانِ غايةَ التقريبِ، وهذا يَستدعي صحَّةَ الإدراكِ، وجَودةَ الفَهمِ، ومتانةَ العلمِ؛ لِتَصَوُّرِ الحقِّ ومعرفتِه، ويَستدعي حُسْنَ البيانِ، وعلومَ اللسانِ لتصويرِ الحقِّ وتجليتِه والدفاعِ عنه، فللاقتداءِ بالقرآنِ في الإتيانِ بالحقِّ وأحسَنِ بيانٍ علينا أن نُحَصِّلَ هذه كلَّها، ونتدرَّبَ فيها، ونَتمرَّنَ عليها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨١).

حتى نَبلُغَ إلى ما قُدِّرَ لنا منها، هذا ما على أهلِ الدعوةِ والإرشادِ وخدمةِ الإسلامِ والقرآنِ.

فأمَّا ما على عمومِ المسلمينَ مِن هذا الاقتداءِ: فهو دوامُ القصدِ إلى الإتيانِ بالحَقِّ، وبَذْلُ الجُهدِ في التعبيرِ بأحسَنِ لفظٍ وأقرَبِه، ومَن أخلَصَ قَصْدَه في شَيءٍ، وجعَلَه مِن دأبِه؛ أُعينَ -بإذنِ الله تعالى- عليه[١].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ كلَّ ذي باطلٍ نَجِدُ بيانَ باطلِه مِن الوحيِ المُنَزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما مِن شُبهةٍ إلى يومِنا هذا تَرِدُ إلَّا وفي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما يَدْحَضُها[٢]. وإنَّك إذا تتبَّعْتَ آياتِ القرآنِ وجدْتَها قد أتتْ بالعَدِدِ الوافرِ مِن شُبَهِ الضَّالين واعتراضاتِهم، ونَقَضَتْها بالحقِّ الواضِحِ، والبيانِ الكاشفِ في أوجَزِ لفظٍ وأقْرَبِه وأبلَغِه، وهذا قِسْمٌ عظيمٌ جليلٌ مِن علومِ القرآنِ، يتحتَّمُ على رجالِ الدَّعوةِ والإرشادِ أن يكونَ لهم به فضلُ عنايةٍ، ومَزيدُ درايةٍ وخبرةٍ، ولا نحسَبُ شُبهةً تَرِدُ على الإسلامِ إلَّا وفي القرآنِ العظيمِ رَدُّها بهذا الوعدِ الصادقِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فعلينا عندَ وُرودِ كلِّ شُبهةٍ مِن كلِّ ذي ضلالةٍ أن نَفزَعَ إلى آيِ القُرآنِ[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فيما يذكُرُه الله تعالى من هذا الجزاءِ العادلِ تخويفٌ عظيمٌ لنا مِن سوءِ الأعمالِ التي تؤدِّي إلى سوءِ الجزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ في شكوى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِن هجرةِ القرآنِ دَليلٌ على أنَّ ذلك من أصعبِ الأمورِ وأبغَضِها لديه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ كَراهةُ هَجْرِ المصحَفِ وعدَمِ تعهُّدِه بالقِراءةِ فيه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَعدِلُ عن القُرآنِ في الاحتِجاجِ به، ويَعيبُ على مَن يدعو إليه[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بيَّنَ أنَّ مَن هَجَرَ القرآنَ فهو مِن أعداءِ الرَّسولِ، وأنَّ هذه العَداوةَ أمرٌ لا بُدَّ منه، ولا مَفَرَّ عنه[4]، فهؤلاء الذين سمَّاهم اللهُ تعالى أعداءً لنبيِّه، ووَصَفَهم بالإجرامِ: هم أولئك الذين هَجَروا القرآنَ وصَدُّوا عنه؛ فهذا تخويفٌ عظيمٌ ووعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقرآنِ العظيمِ بوجهٍ مِن وجوهِ الهِجرانِ[5]!

٥- هَجرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُها: هَجرُ سَماعِه، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٦).

الثاني: هَجرُ العمَلِ به، والوقوفِ عند حَلالِه وحرامِه، وإنْ قرأه وآمنَ به.

الثالثُ: هَجرُ تحكيمِه والتَّحاكُمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واعتقادُ أنَّه لا يفيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّته لفظيَّةٌ لا تُحَصِّلُ العِلمَ.

الرابعُ: هَجرُ تدبُّرِه وتفَهُّمِه، ومَعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

الخامسُ: هَجرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميعِ أمراضِ القَلبِ وأدوائِها، فيَطلبُ شفاءَ دائِه مِن غيرِه، ويَهجُرُ التداويَ به، وكلُّ هذا داخِلٌ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وإنْ كان بعضُ الهَجرِ أهْوَنَ مِن بعضٍ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ في حكايةِ الله تعالى لهذه الشكوى وعيدٌ كبيرٌ للهاجرينَ بإنزالِ العقابِ بهم؛ إجابةً لشكوى نبيِّه، ولَمَّا كان الهجرُ طبقاتٍ أعلاها عدَمُ الإيمانِ به، فلكلِّ هاجرٍ حظُّه مِن هذه الشكوى وهذا الوعيدِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أنَّ الحقَّ يَتبيَّنُ بضِدِّه؛ لأنَّ اللهَ جَعَل عدوًّا مِن المجرمين يُنابِذُ الدَّعوةَ، فمِنَ الحكمةِ في ذلك أنْ تَتبيَّنَ الدعوةُ؛ لأنَّه إذا لم يكنْ لها مُعارِضٌ ما تَبيَّنتْ، لكنْ إذا كان لها مُعارِضٌ وكلَّما أُتِيَ بشُبهةٍ رُدَّ عليها، صار ذلك أبيَنَ وأوضَحَ[٣]، فمُعارَضةُ الباطلِ للحَقِّ ممَّا تَزيدُه وضوحًا وبيانًا وكمالَ استِدلالٍ، وبها يَتبيَّنَ ما يفعَلُ اللهُ بأهلِ الحقِّ مِن الكرامةِ، وبأهلِ الباطلِ مِن العُقوبةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ كَوْنَ اللهِ يُسلِّي الرَّسولَ بما وقَعَ لغَيرِه، هذا دليلٌ على العنايةِ به. وكونُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يحتاجُ إلى تلك التسليةِ يدُلُّ على أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَنتابُه ما ينتابُ البشَرَ مِن الحُزنِ والأسَى، فيَحتاجُ إلى التسليةِ، وإذا كان الرسولُ يحتاجُ إلى ذلك فمَن دونَه مِن بابِ أَولى؛ فالنَّظَرُ إلى ما أصاب الغيرَ يُهَوِّنُ على النفْسِ ما يُصيبُها، وهو مِن مقتضياتِ الطبيعةِ البشريَّةِ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقدَريَّةِ(٢)، وردٌّ على زعمِهم أنَّ خالقَ الشرِّ غيرُه، تعالى شأنُه(٣)! ففي الآية حجَّةٌ على أنَّه تعالى خَلَقَ الخيرَ والشَّرَّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك العداوةَ مِن جَعْلِ اللهِ؛ ولا شكَّ أنَّ تلك العداوةَ كفرٌ(٤).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحمْلٌ له على الاقتِداءِ بمَن قَبْلَه مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ(٥).

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه تنبيهٌ للمُشركينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

لِيَعرِضوا أحوالَهم على هذا الحُكمِ التَّاريخيِّ؛ فيَعلَموا أنَّ حالَهم كحالِ مَن كَذَّبوا مِن قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أنَّه قد وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه -بعْدَما أمَرَه بالتأسِّي والصَّبرِ-، بالهدايةِ والنَّصرِ؛ ففي هذا بِشارةٌ للدُّعاةِ مِن أُمَّتِه مِن بعْدِه، السَّائرينَ في الدَّعوةِ بالقرآنِ وإلى القرآنِ على نهْجِه: أن يَهديَهم ويَنصُرَهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] معهم بالفضلِ والنَّصرِ والتأييدِ، وهذا عامٌّ للمجاهِدِينَ المُحسنينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ دليلٌ على أنَّ الأخذَ بالأسبابِ لا يؤثِّرُ في توكُّلِ المتوكِّلِينَ، كما يزعُمُ جهَلةُ المتصوِّفةِ أنَّ طَلَبَ المكاسِبِ مُؤثِّرٌ في التوكُّلِ! ألَا يَعلمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه كان قادِرًا على تثبيتِ القُرآنِ جملةً واحدةً في قلْبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! ولكنَّه لمَّا جَعَل سببَه الحِفظَ بِصِفةٍ أجراه عليها(٣).

١٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» للتَّعليلِ، والتَّعليلُ معناه الحِكمةُ؛ ففيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ البدعِ، يَرَونَ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانه وتعالى غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّه عزَّ وجلَّ يخلُقُ الخَلقَ ويُشَرِّعُ الشَّرائعَ لمجرَّدِ المشيئةِ لا لحِكمةٍ! فهذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

الآياتُ تُفيدُ بيانَ الحِكمةِ مِن إنزالِ القُرآنِ مُفرَّقًا، وأنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مُعَلَّلةٌ مَقرونةٌ بالحِكمةِ، لكنَّ هذه الحِكمةَ التي تكونُ لأفعالِ اللهِ عزَّ وجلَّ -سواءٌ كانت شرعيَّةً أو غيرَ شرعيَّةٍ- منها ما هو معلومٌ، ومنها ما هو مَجهولٌ لنا، ولكنَّها معلومةٌ عندَ اللهِ تعالى[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ دَلالةٌ على اعتِناءِ اللهِ بكِتابِه القُرآنِ وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ جَعَلَ إنزالَ كتابِه جاريًا على أحوالِ الرَّسولِ ومَصالحِه الدِّينيَّةِ[٢]. وقولُه: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كلمةٌ جامعةٌ؛ لأنَّ تَثبيتَ الفؤادِ يَقتَضي كلَّ ما به خَيرٌ للنَّفْسِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أنَّه لَمَّا كان البلاءُ والعَناءُ في سبيلِ التبليغِ متكَرِّرًا متجدِّدًا، كان مُحتاجًا إلى تجديدِ تقويةِ قلبِه، وكان ذلك مُقتضيًا لتفريقِ نزولِ الآيِ عليه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ بيانُ حكمتينِ في إنزالِه مفرَّقًا:

الحكمةُ الأُولى: تثبيتُ قلبِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

الحكمةُ الثانيةُ: تفريقُه مرتَّبًا على الوقائعِ.

وكان في تَينِك الحكمتينِ مَزيَّتانِ عظيمتانِ للقرآنِ العظيمِ على غيرِه مِن كُتُبِ اللهِ تعالى، فكان ما اعترَضوا به على أنَّه نقصٌ فيه عنها: هو كمالٌ له عليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٨- كانتِ الوقائعُ تقعُ، والحوادثُ تَحدُثُ، والشُّبَهُ تَعرِضُ، والاعتراضاتُ تَرِدُ؛ فكانتِ الآياتُ تَنزِلُ بما تتطلَّبُه تلك الوقائعُ مِن بيانٍ، وما تقتضيه تلك الحوادثُ مِن أحكامٍ، وما تَستدعيه تلك الشُّبَهُ مِن رَدٍّ، وتلك الاعتراضاتُ مِن إبطالٍ وغيرِه مِن مقتضياتِ نزولِ الآياتِ المعروفةِ بـ «أسبابِ النزولِ»، وفي بيانِ الواقعةِ عندَ وقوعِها، وذِكْرِ حُكْمِ الحادثةِ عندَ حدوثِها، وردِّ الشبهةِ عندَ عُروضِها، وإبطالِ الاعتراضِ عندَ ورودِه: ما فيه مِن تأثيرٍ في النفوسِ، ووَقْعٍ في القلوبِ، ورسوخٍ في العقولِ، وجلاءٍ في البيانِ، وبلاغةٍ في التطبيقِ، واستيلاءٍ على السامعِينَ، وما كان هذا كلُّه ليأتيَ لولا تفريقُ الآياتِ في التنزيلِ، وترتيلُها وتنضيدُها هذا الترتيلَ العجيبَ، وهذا التنضيدَ الغريبَ؛ الذي بَلَغَ الغايةَ مِن الحُسْنِ والمنفعةِ، حتى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحْدَه وجهًا مِن وجوهِ الإعجازِ، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ ردٌّ على المتكلِّفِينَ مِن الجَهْميَّةِ ونَحوِهم، ممَّن يرى أنَّ كثيرًا مِن نُصوصِ القرآنِ محمولةٌ على غيرِ ظاهرِها، ولها مَعانٍ غيرُ ما يُفهَمُ منها؛ فإذَن -على قولِهم- لا يكونُ القُرآنُ أحسَنَ تفسيرًا مِن غيرِه، وإنما التَّفسيرُ الأحسَنُ -على زَعمِهم- تَفسيرُهم الذي حَرَّفوا له المعانيَ تَحريفًا[2]!

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ فمُخالفو الرسُلِ -ومنهم مُخالِفو ما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ- لا يأتون بقِياسٍ يَرُدُّون به بعضَ ما جاءتْ به الرسُلُ، فيكونُ قياسًا أقاموا به باطلًا، إلَّا جاء اللهُ -فيما بَعَث

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

به الرسُلَ- بالحَقِّ، وبقياسٍ أحسَنَ تَفسيرًا، وكشفًا وإيضَاحا للحَقِّ[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أنَّ هؤلاء رفعوا وجوهَهم في الدنيا عنِ السجودِ للهِ، فأذلَّ اللهُ تلك الوجوهَ فمَشَوا عليها في المحشَرِ، ورفعوا رؤوسَهم كِبْرًا عن الحقِّ، فنَكسَها اللهُ يومَ القيامةِ، ومَشَوا في طريقِ النظرِ والاستدلالِ مَشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرةِ مَشيًا مقلوبًا؛ فكان ما نالَهم مِن سوءِ تلك الحالِ جزاءً وِفاقًا لِمَا أَتوا مِن قُبحِ الأعمالِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٢] [فصلت: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، مَسوقٌ لاستِعظامِ ما قالُوه، وبيانِ ما يَحِيقُ بهم في الآخرةِ مِنَ الأهوالِ والخُطوبِ. وإيرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتَحقيقِ الحقِّ، والرَّدِّ على نُحورِهم؛ حيثُ كان ما حُكِيَ عنهم قدْحًا في رسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾ إظهارٌ لعَظيمِ الْتِجائِه، وشِدَّةِ اعتِمادِه، وتَمامِ تَفويضِه لمالكِه، ومُدبِّرِ أمْرِه، ومُوالي الإنعامِ عليه[٤].

- وفي هذه الحِكايةِ ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ تَعظيمٌ للشِّكايةِ، وتَخويفٌ وتَحذيرٌ لقَومِه؛ لأنَّ الأنبياءَ كانوا إذا التَجؤوا إليه، وشَكَوا إليه

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

قَومَهم، حَلَّ بهمُ العَذابُ ولَمْ يُنظَروا[١]، وتَأكيدُه بـ (إنَّ) للاهتِمامِ به؛ ليكونَ التَّشكِّي أقْوى[٢].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بـ ﴿قَوۡمِي﴾؛ لِزيادةِ التَّذَمُّرِ مِن فِعلِهم معه وتَوبيخِهم؛ لأنَّ شأنَ قَومِ الرَّجُلِ أن يوافِقوه، ويُصَدِّقوا به، ويَقبَلوا ما جاء به[٣]. وأيضًا في التَّعبيرِ عنهم بـ (قَومِه) وإضافتِهم إليه، وفي التَّعبيرِ عن القُرآنِ باسمِ الإشارةِ القَريبِ (هَذَا): بَيانٌ لعظيمِ جُرْمِهم بتَرْكِهم للقُرآنِ، وهو قريبٌ منهم في مُتناوَلِهم، وقد أتاهُم به واحدٌ منهم، أقرَبُ النَّاسِ إليهم، فصَدُّوا وأبْعَدوا في الصَّدِّ عمَّن هو إليهم قريبٌ مِن قريبٍ، وهذا أقبَحُ الصَّدِّ وأظلَمُه[٤].

- وفِعلُ الاتِّخاذِ إذا قُيِّد بحالةٍ يُفيدُ شدَّةَ اعتِناءِ المُتَّخِذِ بتلك الحالةِ، بحيث ارتَكَب الفِعلَ لأجْلِها، وجعَلَه لها قَصْدًا؛ فقولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في هَجرِهمُ القُرآنَ مِن أنْ يُقالَ: (إنَّ قومي هجَروا القُرآنَ)[٥]؛ فأشارَ بصِيغةِ الافتِعالِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ إلى أنَّهم عالَجوا أنفسَهم في ترْكِه عِلاجًا كثيرًا، وأنَّهم جعَلوا الهَجْرَ مُلازِمًا له، ووصفًا مِن أوصافِه عندَهم، وذلك أعظَمُ مِن أنْ يُقالَ: هجَروه، الَّذي يُفيدُ وُقوعَ الهِجرانِ منهم، دونَ دَلالةٍ على الثُّبوتِ والمُلازَمةِ؛ لِما يَرَوْنَ مِن حُسنِ نَظْمِه، ويَذُوقون مِن لَذيذِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

مَعانيه، ورائقِ أساليبِه، ولَطيفِ عَجائبِه، وبَديعِ غَرائبِه[1].

– واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لتَعظيمِه، وأنَّ مِثلَه لا يُتَّخَذُ مَهْجورًا، بل هو جَديرٌ بالإقبالِ عليه، والانتِفاعِ به[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

– قَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وُصِفَ أعداءُ الأنبياءِ بأنَّهم مِنَ المُجرِمينَ، أي: مِن جملةِ المُجرِمينَ؛ فإنَّ الإجرامَ أعَمُّ مِن عَداوةِ الأنبياءِ، وهو أَعظَمُها. وإنَّما أُريدَ هنا تحقيقُ انضِواءِ أعداءِ الأنبياءِ في زُمرةِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ ذلك أَبلَغُ في الوصفِ مِن أن يقالَ: عَدُوًّا مُجرِمينَ[3].

– قَولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعْدٌ كَريمٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهِدايةِ إلى مَطالِبه كافَّةً، والنَّصرِ على أعدائِه[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ حِكايةٌ لاقتِراحِهمُ الخاصِّ بالقُرآنِ الكريمِ بعْدَ حِكايةِ اقتِراحِهم في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإيرادُهم بعُنوانِ الكُفرِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لذَمِّهم به، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ[5]. وهو اعتِراضٌ آخَرُ مِن اعتِراضاتِهم

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

الباطلةِ، نسَقَه مع ما تقدَّمَ منها؛ لِيُجابَ عنه، ويُبيَّنَ خَطؤُهم فيه(١).

- قَولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ لَمَّا كانوا -لِشِدَّةِ ضَعفِهم- لا يَكادون يَسمَحون بتَسميةِ القرآنِ تنزيلًا، فضْلًا عن أنْ يُسنِدوا إنزالَه إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ بَنَوْا للمَفعولِ في هذه الشُّبهةِ التي أَورَدُوها قولَهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾(٢).

- والفِعلُ (نَزَّلَ) يأتي مُرادِفًا لـ (أنزَلَ)، والتَّضعيفُ أخو الهَمزةِ، ويأتي مُفيدًا للتَّكثيرِ، فيُفِيدُ تَكرُّرَ النُّزولِ وتجديدَه، وهو هنا لا يصِحُّ حمْلُه على التَّكثيرِ المُفيدِ للتَّدريجِ؛ لئلَّا يُناقِضَ قولَهم: ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ فيكونُ مِن التَّضعيفِ المُرادِفِ للهمزةِ. والمُختارُ أنَّ (نزَّل) المُضاعَفَ يَرِدُ لكثرةِ الفِعلِ ولِقُوَّتِه؛ فجاء لكَثرتِه في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، وجاء لقُوَّتِه في هذه الآيةِ؛ لأنَّ إنزالَ الجُملةِ مرَّةً واحدةً أقوى مِن إنزالِ كلِّ جُزءٍ مِن الأجزاءِ بمُفرَدِه(٣).

- وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ استِئنافٌ واردٌ مِن جِهتِه تعالى لردِّ مقالتِهمُ الباطلةِ، وبيانِ الحِكمةِ في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ(٤). وعدَل فيه عن خِطابِهم إلى خِطابِ الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ إعلامًا له بحِكمةِ تَنزيلِه مُفرَّقًا، وفي ضِمْنِه امتِنانٌ على الرَّسولِ بما فيه تَثبيتُ قلْبِه، والتَّيسيرُ عليه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ الأصلُ: أنزلناهُ كذلك...، فأوجَزَ بحذْفِ المُتعلَّقِ؛ لوُجودِ ما يدُلُّ عليه مِن إعراضِهم. وفُصِلَ -أي: لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه-؛ لأنَّه جوابٌ عن اعتراضِهم(١).

- ونكَّر ﴿تَرۡتِيلٗا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فالتَّنوينُ فيه تنوينُ تنويعٍ وتعظيمٍ، أي: نوعًا مِن التَّرتيلِ عظيمًا(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ فَذْلَكةٌ(٣) جامِعةٌ تَعُمُّ ما تقدَّمَ، وما عسَى أنْ يأتُوا به مِنَ الشُّكوكِ والتَّمويهِ بأنَّ كلَّ ذلك مَدْحوضٌ بالحُجَّةِ الواضحةِ، الكاشفةِ لتُرَّهاتِهم؛ فإنَّه لَمَّا استَقصى أكثرَ مَعاذيرِهم وتَعلُّلاتِهم، وردَّ عليها وأبطَلها؛ أتَى بهذِه الآيةِ الجامِعةِ العامَّةِ(٤).

- وفيه مِنَ الدَّلالةِ على المُسارعةِ إلى إبطالِ ما أتَوْا به، وتَثبيتِ فؤادِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما لا يَخفَى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلكةُ كلمة منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكةِ: النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيله، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦).

- وتَنكيرُ (مَثَل) في سياقِ النَّفيِ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ...﴾ للتَّعميمِ، أيْ: بكُلِّ مَثَلٍ(١).

- وتَعْديةُ فِعْلِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لإفادةِ أنَّ إتيانَهم بالأمثالِ يَقصِدون به أن يُفحِموه. وجاءتْ صِيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾؛ لتَشمَلَ ما عسى أنْ يأتُوا به مِن هذا النَّوعِ(٢).

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ يُفيدُ الحُدوثَ وتجدُّدَ الإتيانِ منهم. والتَّعبيرُ بالماضي ﴿جِئْنَاكَ﴾ -معَ أنَّه في معنى المُستقبَلِ- يُفيدُ تحقُّقَ المجيءِ، وهو المُناسِبُ لمَقامِ الوعدِ والتَّثبيتِ(٣).

- وقولُه: ﴿جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، وفي هذه المقابَلةِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتُون به باطلٌ. والتَّعبيرُ في جانبِ ما يؤيِّدُه اللهُ مِنَ الحُجَّةِ بـ﴿جِئْنَاكَ﴾ دُونَ: أَتَيْناك، كما عَبَّر عمَّا يَجيئون به بـ﴿يَأْتُونَكَ﴾: إمَّا لمُجرَّدِ التَّفنُّنِ، وإمَّا لأنَّ فِعلَ الإتيانِ إذا استُعمِلَ كثُرَ فيما يَسوءُ وما يُكرَهُ، كالوعيدِ والهِجاءِ، بخِلافِ فِعلِ المَجيءِ إذا استُعمِلَ؛ فأَكثَرُ ما يُستعمَلُ في وُصولِ الخَيرِ والوعدِ والنَّصرِ والشَّيءِ العظيمِ(٤).

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أيْ: أَحَقَّ في الاستِدلالِ؛ فالتَّفضيلُ للمُبالَغةِ؛ إذْ ليس في حُجَّتِهم حُسْنٌ أصلًا. أو يُرادُ بالحُسنِ ما يَبْدو مِن بَهْرَجةِ سَفسَطَتِهم وشُبَهِهم؛ فيَجيءُ الكشفُ عنِ الحقِّ أحسَنَ وقْعًا في نُفوسِ السَّامِعينَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١، ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢، ٢٣).

مُغالَطاتِهم؛ فيكونُ التَّفضيلُ بهذا الوجهِ على حقيقتِه، فهذه نُكتةٌ مِن دَقائقِ الاستِعمالِ، ودَقائقِ التَّنزيلِ(١).

- قَولُه: ﴿تَفۡسِيرًا﴾ في قولِه: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ وُضِعَ موضعَ: معنًى ومؤدًّى، أي: أحسَنَ معنًى ومؤدًّى مِن سؤالِهم؛ فهو مِن وَضْعِ السَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ التَّكشيفَ سببُ ظُهورِ المعنى وكشْفِه؛ ففيه المبالَغةُ مع الإيجازِ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ لتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولوعيدِ المُشركينَ وذَمِّهم؛ لأنَّه تعالى لَمَّا قال لرَسولِه صلواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ حرَّك منه صلواتُ اللهِ عليه بأنْ يَسألَ: فإذَنْ بماذا أُجيبُهم، وما يكونُ قَولي لهم؟ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾(٣). وفُصِلَتِ هذه الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها بَيانٌ لحالِهم في الآخرةِ، وهو غيرُ الموضوعِ المُتقدِّمِ(٤).

- والمرادُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ القومُ الَّذينَ أَورَدوا هذه الأسئلةَ على سَبيلِ التَّعنُّتِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فالموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ واقعٌ موقعَ الضَّميرِ، كأنَّه قيل: هُم يُحشَرون على وُجوهِهم؛ فوُضِع المُظهَرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ إشعارًا بتَوهينِهم، وتَحقيرًا لشأنِهم، ولتَحصيلِ فائدةِ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

أصحابَ الضَّميرِ ثَبَتَ لهم مَضْمونُ الصِّلةِ، ولِيُبنَى على الصِّلةِ موقعُ اسمِ الإشارةِ، ومُقتضَى ظاهِرِ النَّظمِ أن يقالَ: (ولا يَأْتونَك بمَثَلٍ إلَّا جِئْناك بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيرًا، هُمْ شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا، ونَحشُرُهم على وُجوهِهم إلى جَهنَّمَ)، كما قال في سورةِ (الإسراء): ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧] عَقِبَ قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأيضًا يُعْلَمُ مِنَ السِّياقِ بطريقِ التَّعريضِ أنَّ الَّذينَ يُحشَرون على وُجوهِهم هُمُ الذين يأْتُون بالأمثالِ تكذيبًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإذْ كان قصْدُهم ممَّا يَأتون به مِنَ الأمثالِ تَنقيصَ شأنِ النَّبيِّ، ذُكِروا بأنَّهم أهْلُ شَرِّ المكانِ وضَلالِ السَّبيلِ دُونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

- قَولُه: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ عَقِبَ ما تَقدَّمَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم -وهم ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ ...﴾- حَقيقُونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم ﴿شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وأَحْرياءُ بالمكانِ الأَشَرِّ والسَّبيلِ الأَضَلِّ؛ بسَببِ ما اتَّصفوا به، ممّا دلَّتْ عليه الصِّلةُ، وهو حَشْرُهم على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، الذي ما أصابَهم إلَّا بما قدَّمتْ أيديهم، ولأجْلِ ما سَبَقَ مِن أحوالِهمُ الَّتي منها قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فهم أَحِقَّاءُ بكونِهم شرًّا مكانًا وأضلَّ سبيلًا؛ بسَببِ ما أدَّاهم إلى ذلك الحَشرِ؛ فاكتُفِيَ بِذِكْرِ المُسبَّبِ عن السَّببِ[2].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

- وصِيغتَا التَّفضيلِ ﴿شَرٌّ﴾، و﴿أَضَلُّ﴾ في قولِه: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مُستعمَلتانِ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالشَّرِّ والضَّلالِ. وتَعريفُ جُزْأَيِ الجملةِ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصْرٌ للمبالَغةِ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن انحصَرَ الشَّرُّ والضَّلالُ فيهم. ورُوِيَ: أنَّ الكفَّارَ قالوا للمسْلمينَ: هُم شَرُّ الخلْقِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ؛ فيكونُ القصْرُ قصْرَ قلْبٍ، أيْ: هُم شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا لا المسْلمون. وصِيغتَا التَّفضيلِ مَسْلوبتَا المُفاضَلةِ على كِلا الوَجهَينِ[1].

- وأيضًا لم يُذكَرْ مع أفعلِ التَّفضيلِ المُفضَّلُ عليه؛ لِيُفِيدَ أنَّ مكانَهم شرُّ مكانٍ مِن أمكنةِ الشَّرِّ، وسبيلَهم أضلُّ سبيلٍ مِن سُبُلِ الضَّلالِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

الآيات (٣٥-٤٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَزِيرًا﴾: أي: عَونًا، مِن الوِزرِ: وهو الحِملُ الثَّقيلُ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[1].

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾: أي: أهلَكْناهم بالعذابِ إهلاكًا، والدَّمارُ: الهلاكُ، والتَّدْميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ، وأصلُ (دمر): يَدُلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغَيرِه[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أي: أعدَدْنا، قيل: هو أفْعَلْنا مِن العَتادِ، وهو ادِّخارُ الشَّيءِ قبْلَ الحاجةِ إليه، كالإعدادِ. وقيل: العَتادُ: المُعَدُّ الثابتُ اللازمُ. وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((الغريبين =

﴿ٱلرَّسِّ﴾: أي: البئرِ العَظيمةِ، أو الأُخدودِ، أو الوادي، وقيل: الرَّسُّ: كلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثباتٍ، وقيل: أصلُه: الأثرُ القليلُ الموجودُ في الشَّيءِ[1].

﴿وَقُرُونَۢا﴾: القرونُ: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ غيرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ. وقيلَ: مدَّةُ القرنِ مئةُ سنةٍ. وقيل: ثمانونَ. وقيل: ثلاثون. وقيل غيرُ ذلك. والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[2].

﴿تَبَّرْنَا﴾: أي: أهلَكْنا ودمَّرْنا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على كَسرٍ وإهلاكٍ[3].

﴿نُشُورًا﴾: أي: مَعادًا وبَعثًا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشعُّبِه[4].

= في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٤٥).

قال الراغب: (وقيل: أصْلُه: أعددنا، فأُبدِلَ مِن إحدَى الدَّالينِ تاءٌ). ((المفردات)) (ص:٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣) و(٢١/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ الذين كذَّبوا أنبياءَهم، فكانت عاقبتُهم الإهلاكَ والتدميرَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، وجعَلْنا معه أخاه هارونَ مُعينًا له في أمرِ الرِّسالةِ، فقُلْنا لهما: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه، فكذَّبوهما فأهلَكْناهم بالغَرقِ، وأغرَقْنا كذلك قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْناهم عِظةً وعِبرةً للنَّاسِ، وأعدَدْنا للظَّالمين عذابًا موجِعًا مُؤلِمًا، وأهلَكْنا كذلك عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ؛ لكُفرِهم وتكذيبِهم، وأُمَمًا غيرَهم كثيرينَ لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ، وكلًّا مِن هؤلاء المهلَكينَ وضَّحْنا له الأدلَّةَ على وحدانيَّتِنا، وكلًّا منهم أهلَكْنا إهلاكًا كاملًا.

ولقد مرَّ كفَّارُ قُريشٍ على قريةِ قَومِ لوطٍ الذين أمطر اللهُ عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ، أفلَمْ يَكونوا يرَونَ في أسفارِهم آثارَ إهلاكِنا هذه القريةَ، فيعتَبِروا ويتَّعظوا بما حلَّ بهم بسَبَبِ كُفرِهم وتكذيبِهم؟! بل كانوا يَرونَ عاقِبةَ أهلِ تلك القريةِ التي أهلَكْناها، ولكِنَّهم كانوا لا يُؤمِّلونَ وُقوعَ البَعثِ بعْدَ المَوتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا، ولا يخافونَ عذابًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ تكلَّمَ سُبحانَه وتعالى في التَّوحيدِ، ونَفيِ الأندادِ، وإثباتِ النبوَّةِ، والجَوابِ عن شُبُهاتِ المنكِرينَ لها، وفي أحوالِ القيامةِ- شرَعَ في ذِكرِ القَصَصِ على السُّنَّةِ المعلومةِ[١].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ تكذيبُ قُريشٍ والكفَّارِ لِمَا جاء به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٨).

وسلَّم؛ ذَكرَ تعالى ما فيه تسليةٌ للرَّسولِ، وإرهابٌ للمُكذِّبينَ، وتذكيرٌ لهم أنْ يصيبَهم ما أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن هلاكِ الاستِئصالِ لَمَّا كذَّبوا رسُلَهم، فناسَبَ أنْ ذَكرَ أوَّلًا مَن نزَلَ عليه كتابُه جُملةً واحدةً؛ ومع ذلك كفَروا وكذَّبوا به، فكذلك هؤلاء: لو نَزَلَ عليه القرآنُ دَفعةً لكَذَّبوا وكَفَروا كما كَذَّبَ قَومُ موسى[(١)].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ[(٢)].

﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾.

أي: وجعَلْنا مع موسى أخاه هارونَ مُعينًا له يُقوِّيه ويؤيِّدُه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٦].

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

أي: فقُلْنا لموسى وهارونَ: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه القِبطِ الذين كذَّبوا بأدِلَّتِنا وبراهينِنا(١).

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي: فكذَّب فِرعونُ وقَومُه موسى وهارونَ، فأهلَكْناهم بالغَرقِ إهلاكًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا هَدَّدَ سُبحانَه المكذِّبينَ بإهلاكِ الأوَّلينَ الذين كانوا أقوى منهم وأكثَرَ، وقَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ- أتبَعَه أوَّلَ الأُممِ؛ لأنَّهم أوَّلُ، ولِمَا في عذابِهم مِن الهَولِ، ولِمناسبةِ ما بيْنَه وبيْنَ عذابِ القِبطِ، فقال(٣):

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: المرئيَّةِ والمسموعةِ مِن الأنبياءِ الماضينَ قبْلَ إتيانِكما في عِلمِ الشَّهادةِ، والمرئيَّةِ والمسموعةِ منكما بعْدَ إتيانِكما في عِلمِنا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

أي: وأغرَقْنا قَومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْنا إغراقَهم بالطُّوفانِ عِبرةً للنَّاسِ وعِظةً[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَدْنا في الآخرةِ للظَّالِمينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا؛ جزاءً على ظُلمِهم[(٢)].

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه آخِرَ الأُمَمِ المهلَكةِ بعامَّةٍ وأوَّلَها، وكان إهلاكُهما بالماءِ- ذكَرَ مَن بيْنَهما ممَّن أُهلِكَ بغيرِ ذلك؛ إظهارًا للقُدرةِ والاختيارِ، وطوَى خبرَهم بغيرِ العذابِ؛ لأنَّه في سياقِ الإنذارِ، فقال[(٣)]:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

قال القرطبي: (﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتِنا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

أي: وأهلَكْنا أيضًا عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وأصحابَ الرَّسِّ، ودمَّرْناهم لكُفرِهم وتكذيبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

أي: ودمَّرْنا بين تلك الأُمَمِ الكافرةِ -التي سمَّيْناها- أُمَمًا أُخرى كثيرةً لا يعلَمُها إلَّا اللهُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٣).

قال ابنُ جريرٍ في التعريفِ بأصحابِ الرسِّ: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قومٌ كانوا على بئرٍ؛ وذلك أنَّ الرَّسَّ في كلام العربِ: كُلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك. ولا أعلَمُ قومًا كانت لهم قصَّةٌ بسببِ حُفرةٍ ذكَرَهم اللهُ في كتابِه إلَّا أصحابَ الأُخدودِ،... وإن يكونوا غيرَهم فلا نعرفُ لهم خبرًا إلَّا ما جاء مِن جملةِ الخبرِ عنهم أنَّهم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حفرةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).

وقال ابن عاشور: (اتَّفقوا على أنَّ الرَّسَّ بئرٌ عظيمةٌ، أو حَفيرٌ كبيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ فلم يأتِ في القرآنِ تفصيلُ قِصَّتِهم ولا اسمُ نبيِّهم، وللمفسِّرينَ فيهم أقوالٌ كثيرةٌ ترَكْناها؛ لأنَّها لا دليلَ على شَيءٍ منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٤). وتُنظَرُ أقوالُ المفسِّرينَ في أصحابِ الرَّسِّ في: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).
=

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قدَّمَ سُبحانَه أنَّه يأتي في هذا الكتابِ بما هو الحقُّ في جوابِ أمثالِهم؛ بَيَّنَ أنَّه فعَلَ بالجَميعِ نحوًا مِن هذا، فقال تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتأسيةً وبيانًا لتشريفِه بالعَفوِ عن أمَّتِه[(١)]، وعدمِ استِئْصالِها بالعذابِ:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: وكلُّ الأُمَمِ الكافرةِ التي أهلَكْناها أقَمْنا عليها الحُجَّةَ، ووَضَّحْنا لها الأدِلَّةَ بذِكرِ الأمثالِ؛ لِيَعتبِروا بها ويتَّعِظوا[(٢)].

= قال ابنُ كثير: (الأظهرُ: أنَّ القرنَ هم الأمَّةُ المتعاصِرون في الزَّمنِ الواحد، فإذا ذهبوا وخلَفَهم جيلٌ آخَرُ، فهم قرنٌ ثانٍ، كما ثبت في الصحيحينِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «خيرُ [الناسِ] قَرني، ثمَّ الذين يلونَهم، ثمَّ الذين يلونَهم...» الحديثَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

وقال الشنقيطي: (والأظهرُ أنَّ القرونَ الكثيرَ: المذكورُ بعْدَ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقبْلَ أصحابِ الرَّسِّ، وقد دلَّت آيةٌ من سورة «إبراهيم» على أنَّ بعْدَ عادٍ وثمودَ خَلْقًا كفَروا وكذَّبوا الرسُلَ، وأنَّهم لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ جلَّ وعلا. وتصريحُه بأنَّهم بعد عادٍ وثمودَ يوضِّحُ ما ذكَرْنا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

أي: وكُلَّ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ دمَّرْناها تدميرًا كامِلًا، واستأصَلْناها بالعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٥ - ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان سَوقُ خبرِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسِّ وما بيْنَهما مِنَ

= (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٤، ٥٥).

قال ابن عاشور: (والمَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِه، أي: بَيَّنَّا لهم الأشباهَ والنظائرَ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَعرِضوا حالَ أنفُسِهم عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

وقال ابن عثيمين: (يعني: بيَّنَّا له الأمثالَ، يعني: الوقائعَ التي أوقعَها الله تعالى بمَن قبْلَهم، كلُّ أمَّةٍ تُنذَرُ بمَن قبْلَها، ويُضرَبُ لها المثَلُ، يقالُ: هذا مَثَلُ المكذِّبين، حصَلَ عليهم كَيْتَ وكَيْتَ، فكُلُّ أمَّةٍ أنذرَها اللهُ تمامَ الإنذارِ، بحيثُ لا يبقَى لها حُجَّةٌ؛ أمَّةُ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغيرُها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٥).

القرونِ مقصودًا لاعتبارِ قريشٍ بمصائِرِهم؛ نُقِل نَظْمُ الكلامِ هنا إلى إضاعَتِهم الاعتِبارَ بذلك وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نَزَل بقريةِ قومِ لوطٍ[١].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾.

أي: ولقد مرَّ كُفَّارُ قُرَيشٍ على قَريةِ قَومِ لُوطٍ الذين أهلَكَهم اللهُ بالحِجارةِ التي أمطَرَها عليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦].

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾.

أي: أفلم يكُنْ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَرَونَ في أسفارِهم آثارَ عَذابِ اللهِ على قريةِ قَومِ لوطٍ، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا بما حلَّ بأهلِها مِن العذابِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالرَّسولِ، ومُخالفتِهم أوامِرَ اللهِ[٣]؟

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

أي: ما كذَّب كفَّارُ قُرَيشٍ بمحمَّدٍ لكونِهم لم يَرَوا ما حلَّ بقومِ لوطٍ، وإنَّما كذَّبوا ولم يعتَبِروا؛ لأنَّهم لا يُؤمِّلون وقوعَ البَعثِ بعْدَ الموتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا في الآخرةِ، ولا يخافونَ عذابًا فيها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقولُه في موضعٍ آخَرَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا يُنافي هذا؛ لأنَّهما إذا كانا مأمورَينِ فكُلُّ واحدٍ مأمورٌ، ويجوزُ أن يقالَ: أُمِرَ موسى أوَّلًا، ثمَّ لَمَّا قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩] قال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[2] [طه: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ إذا قيل: لماذا جُعِلَ قومُ نوحٍ مكذِّبينَ للرسُلِ مع أنَّهم كذَّبوا رسولًا واحدًا؟

فالجوابُ مِن أوجهٍ:

منها: أنَّهم استَنَدوا في تكذيبِهم رسولَهم إلى إحالةِ أنْ يُرسِلَ اللهُ بشَرًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ فكان تكذيبُهم مستلزِمًا تكذيبَ عمومِ الرسُلِ.

ومنها: أنَّهم أوَّلُ مَن كَذَّبَ رسولَهم؛ فكانوا قدوةً للمكذِّبين مِن بعْدِهم[3].

ومنها: أنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لباقي الرسلِ؛ لاشتراكِهم في المجيءِ بالتوحيدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

فيكونُ هذا مِن بابِ الجنسِ؛ لأنَّ مَن كذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّ أعداءَ الرسلِ لا يُعادونَهم لشخصِهم، وإنَّما يعادونَهم لِما يَدْعونَ إليه، وما جاؤوا به، وهذا جنسٌ؛ فيكونُ تكذيبُهم لرسولٍ تكذيبًا لجميعِ الرسُلِ(١).

ومنها: أنَّ مَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّهم لا يُفرِّقُ بيْنَهم في الإيمانِ، ولأنَّه ما مِن نبيٍّ إلَّا يُصدِّقُ سائرَ أنبياءِ الله، فمَن كذَّب منهم نبيًّا فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه مِن النبِّيين(٢).

ومنها: أنَّه لطولِ مُكثِه في قومِه صار كأنَّه رسُلٌ كثيرونَ؛ لأنَّه لَبِث فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، وهذه مدَّةٌ تستوعبُ رسُلًا كثيرينَ، فكأنَّه لطولِ المُكثِ صار متعدِّدًا(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فأخبرَ سُبحانَه أنَّه ضرَبَ الأمثالَ لجميعِ هؤلاء الذين أُرسِلَ إليهم وأهلَكَهم، فلم يعاقِبْهم إلَّا بعْدَ أنْ أقام عليهم الحُجَّةَ(٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في كلمةِ ﴿كَذَّبُواْ﴾ إشكالٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ التكذيبَ سابقٌ للرِّسالةِ، فكيف يكونون مكَذِّبين مع أنَّهم لم يأتِ إليهم رَسولٌ؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٢).

والجواب من أوجُهٍ:

منها: أنَّ الفعلَ الماضيَ هنا بمعنى المستقبَلِ، بمعنى: الذين يكَذِّبون بآياتِنا؛ لأنَّ الآياتِ لم تصِلْ إليهم بَعْدُ؛ فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: يُكَذِّبون بها في المستقبَلِ.

ومنها: أن يُقالَ: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بحسَبِ عِلمِ الله عزَّ وجَلَّ، يعني: قدَّرْنا أنَّهم يُكَذِّبون.

ومنها: أنَّهم قد أُرسِلَ إليهم رسولٌ فكذَّبوه، وهذا يؤيِّدُه قَولُ المؤمِنِ مِن آلِ فِرعَونَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

فإذا قيل: إنَّ يوسُفَ سابِقٌ جدًّا على موسى؟ فيُقالُ: لعلَّ آثارَ رسالتِه قد بَقِيت؛ ولهذا خاطبهم المؤمِنُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾، ولم يُنكِروا؛ ما قالوا: ما جاءَنا، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يعني: إلى الآنَ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إيذانٌ بطولِ مُدَدِ هذه القُرونِ وكَثرتِها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٣).

وقيل: قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وصْفٌ للقَومِ، وليس هو مِنَ المَقولِ لموسى وهارونَ؛ لأنَّ التَّكذيبَ حينَئذٍ لَمَّا يقَعْ منهم، ولكنَّه وصْفٌ لإفادةِ قُرَّاءِ القُرآنِ أنَّ موسى وهارونَ بلَّغَا الرِّسالةَ، وأظهَرَ اللهُ منهما الآياتِ، فكَذَّب بها قومُ فِرعونَ، فاستَحقُّوا التَّدميرَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ... ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ سِيقَتْ لتأكيدِ ما مرَّ مِنَ التَّسليةِ والوعدِ بالهدايةِ والنَّصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١] بحِكايةِ ما جرَى بيْنَ مَن ذُكِر مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ قَومِهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصودُ، واللَّامُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، أي: وباللهِ لقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ(١).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ حرْفُ التَّحقيقِ (قَدْ) ولامُ القسَمِ؛ لتأكيدِ الخَبرِ باعتِبارِ ما يَشتمِلُ عليه مِنَ الوعيدِ بتَدميرِهم. ولَمَّا جرَى الوعيدُ والتَّسليةُ بذِكرِ حالِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ عَطَف على ذلك تَمثيلَهم بالأُممِ المُكذِّبينَ رُسُلَهم؛ لِيَحصُلَ مِن ذلك موعظةُ هؤلاءِ، وزيادةُ تَسليةِ الرَّسولِ، والتَّعريضُ بوَعدِه بالانتِصارِ له(٢).

- والتَّعرُّضُ في مَطلَعِ القصَّةِ لإيتاءِ الكِتابِ مع أنَّه كان بعْدَ مَهلِكِ القَومِ، ولَمْ يكنْ له مَدخَلٌ في هَلاكِهم كسائرِ الآياتِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ ببُلوغِ نبيِّ الله موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غايةَ الكمالِ، ونَيْلِه نهايةَ الآمالِ، الَّتي هي إنجاءُ بَني إسرائيلَ مِن فِرعونَ، وإرشادُهم إلى الطَّريقِ الحقِّ بما في التَّوراةِ مِنَ الأحكامِ؛ إذْ به يَحصُلُ تأكيدُ الوَعدِ بالهدايةِ(٣).

- والتَّعرُّضُ هنا إلى تأييدِ موسى بهارونَ تَعريضٌ بالرَّدِّ على المشركينَ؛ إذْ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]؛ فإنَّ موسى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨).

لَمَّا اقتضَتِ الحِكمةُ تأييدَه لمْ يُؤيَّدْ بملَكٍ، ولكنَّه أُيِّدَ برسولٍ مِثْلِه(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ في الكَلامِ حذْفٌ، أي: فذَهَبَا وأدَّيَا الرِّسالةَ، فكذَّبوهما، وقد حصَل بهذا النَّظمِ إيجازٌ عَجيبٌ اختُصِرَتْ به القِصَّةُ؛ فذُكِر منها حاشِيَتاها: أوَّلُها وآخِرُها، وهما: الإنذارُ، والتَّدميرُ -أي: إلزامُ الحُجَّةِ ببَعثةِ الرسُلِ، واستِحقاقُ الأُممِ التَّدميرَ بتَكذيبِهم رُسُلَهم-؛ لأنَّهما المقصودُ بالقِصَّةِ؛ فدَلَّ بذِكرِهما على ما هو الغَرَضُ مِن القِصَّةِ الطَّويلةِ كلِّها، وهو أنَّهم قومٌ كذَّبوا بآياتِ اللهِ؛ فأرادَ إلزامَ الحُجَّةِ عليهم، فبَعَثَ إليهم رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فأهلَكهم(٢).

- قَولُه: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أُتبع الفِعلُ بالمفعولِ المطْلَقِ؛ لِما في تَنكيرِ المصدرِ مِن تَعظيمِ التَّدميرِ، وهو الإغراقُ في اليَمِّ(٣).

- وبدأ بذِكرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّه متأخِّرٌ بالنِّسبةِ إلى قَومِ نوحٍ؛ لأنَّ فِرعونَ أقربُ عهدًا، وأشَدُّ عُتُوًّا مِن قَومِ نوحٍ(٤). وقيل: قَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ لِمناسبةِ الكتابِ في نفْسِه أوَّلًا، وفي تنجيمِه ثانيًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾(٥) [الفرقان: ٣٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- قَولُه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ فيه تقديمُ قَومِ نُوحٍ؛ للاهتمامِ؛ لأنَّ حالَهم هو محَلُّ العِبرةِ؛ فقُدِّم ذِكرُهم، ثمَّ أُكِّد بضَميرِهم؛ فإنَّ (قَوْمَ نُوحٍ) انتصَبَ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه ﴿أَغْرَقْنَـٰهُمْ ﴾[1].

- قَولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فيه إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قيل: ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ ﴾، عِوَضًا عن: أعتَدْنا لهم-؛ للإيذانِ بتَجاوُزِهمُ الحدَّ في الكُفرِ والتَّكذيبِ، ولإفادةِ أنَّ عذابَهم جزاءٌ على ظُلْمِهم بالشِّركِ وتكذيبِ الرَّسولِ. أو هو عامٌّ يَتناوَلُهم بعُمومِه[2].

وقد أفاد هذا الإظهارُ أيضًا: إرادةَ الشُّمولِ والعُمومِ؛ ليَشمَلَهم هم وغيرَهم، حتى الظَّالِمون مِن قريشٍ يدخُلون في هذا؛ لأنَّه إذا قال: (وأعتَدْنا لَهم عَذابًا أليمًا) صار العذابُ الأليمُ لهم فقط، لكِنْ لَمَّا قال: ﴿لِلظَّـٰلِمِينَ ﴾ صار لهم ولغيرِهم، وأفاد تسجيلَ هذا الوَصفِ عليهم، وهو الظُّلمُ؛ لأنَّه وصَفَهم بأنَّهم ظالِمون. وأفاد أيضًا إظهارَ الحكمةِ مِن هذه العقوبةِ، وهي أنَّهم كانوا ظالِمين، يعني: أعَدَّ لهم عذابًا أليمًا؛ لأنَّهم ظالِمون. مع ما فيه من تنبيهِ المخاطَبِ؛ لأنَّ تغيُّرَ السياقِ يوجِبُ انتباهَ المخاطَبِ[3].

فقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ -على أنَّه وُضِع المُضمَرُ موضعَ المُظهَرِ- عطَفَه على (أَغْرَقْنَا)؛ ليَجمَعَ لهم نَكالَ الدَّارينِ، وعلى العمومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠).

مِن بابِ التَّذييلِ، فيَدْخلوا في العامِّ دُخولًا أَوَّليًّا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ قيل: هو عَطْفٌ على (هُم) في (جَعَلْنَاهُمْ)، أو على ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في معنَى الوعيدِ، أي: ووعَدْنا الظَّالِمينَ، ثمَّ عَطَف عادًا وثمودَ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ مُبالَغةً؛ لأنَّهم رُؤوسُ الظَّلَمةِ والأَوْحديُّون فيه[٢]. وقيل: انتصَبَتِ الأسماءُ الأربعةُ -﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾- بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿تَبَّرْنَا﴾، وفي تَقديمِها تَشويقٌ إلى معرفةِ ما سيُخبَرُ به عنها[٣].

- ولعلَّ الاكتِفاءَ في شؤونِ تلك القُرونِ بهذا البيانِ الإجماليِّ ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾؛ لِمَا أنَّ كلَّ قَرنٍ منها لم يكنْ في الشُّهرةِ وغَرابةِ القصَّةِ بمَثابةِ الأُممِ المَذكورةِ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾

- انتَصَب ﴿تَتْبِيرًا﴾ على أنَّه مفعولٌ مطْلَقٌ مؤكِّدٌ لعامِلِه؛ لإفادةِ شدَّةِ هذا الإهلاكِ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

لبيانِ مُشاهدتِهم لآثارِ هلاكِ بعضِ الأُممِ المُتبَّرةِ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بها. وتَصديرُها بالقسَمِ ﴿وَلَقَدۡ﴾؛ لمَزيدِ تقريرِ مَضمونِها. وقيل: اقترانُ الخَبرِ بلَامِ القسَمِ؛ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ مِن عدَمِ اعتبارِهم[1].

- والإتيانُ: المَجيءُ. وتَعديتُه في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ...﴾ بـ(على)؛ لتَضمينِه معنَى: (مرُّوا)؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ التَّذكيرِ بمَجيءِ القريةِ التَّذكيرُ بمَصيرِ أهْلِها؛ فكأنَّ مَجيئَهم إيَّاها مُرورٌ بأهْلِها، فضُمِّنَ المَجيءُ معنَى المرورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ المرورَ؛ فإنَّ المرورَ يَتعلَّقُ بالسُّكَّانِ، والمَجيءَ يَتعلَّقُ بالمكانِ[2].

- ووصَف القَريةَ بـ ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾؛ لأنَّها اشتُهرَتْ بمَضمونِ الصِّلةِ بيْن العربِ وأهْلِ الكِتابِ[3].

- وقوله: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ فيه تَسميةُ العذابِ الَّذي نَزَل عليهم مِنَ السَّماءِ مطَرًا على طريقةِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ حقيقةَ المطرِ ماءُ السَّماءِ[4].

- تَفرَّعَ على تَحقيقِ إتيانِهم على القَريةِ مع عدَمِ انتِفاعِهم به قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا﴾، وهو استِفهامٌ صُوريٌّ عنِ انتفاءِ رُؤيتِهم إيَّاها حينما يَأْتون عليها؛ لأنَّهم لَمَّا لمْ يتَّعِظوا بها كانوا بحالِ مَن يُسألُ عنهم: هل رأَوْها؟ فكان الاستِفهامُ لإيقاظِ العقولِ؛ للبحثِ عن حالِهم. وهو استِفهامٌ إمَّا مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّهديدِ، وإمَّا مُستعمَلٌ في الإيقاظِ لمعرفةِ سببِ عدَمِ اتِّعاظِهم[5].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستِفهامُ معناه التَّعجُّبُ[1]. وقيل: هو تَوبيخٌ لهم على ترْكِهمُ التَّذكُّرَ عِندَ مُشاهَدةِ ما يُوجِبُه. والهمزةُ لإنكارِ نَفْيِ استِمرارِ رُؤيتِهم لها، وتقريرِ استِمرارِها حسَبَ استِمرارِ ما يُوجِبُها مِن إتيانِهم عليها. والفاءُ لعَطفِ مَدْخولِها على مُقَدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ[2].

- و(بلْ) في قولِه: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ إمَّا إضرابٌ عمَّا قَبلَه مِن عدَمِ رؤيتِهم لآثارِ ما جَرَى على أهلِ القُرى مِنَ العُقوبةِ، وبيانٌ لكَونِ عدَمِ اتِّعاظِهم بسببِ إنكارِهم؛ لكَونِ ذلك عُقوبةً لِمعاصيهم، لا لعدَمِ رؤيتِهم لآثارِها، خَلَا أنَّه اكتَفى عنِ التَّصريحِ بإنكارِهم ذلك بذِكْرِ ما يَستلزِمُه مِن إنكارِهم للجَزاءِ الأُخْرويِّ، الذي هو الغايةُ مِن خلْقِ العالَمِ. وقد كُنيَ عن ذلك بعدَمِ النُّشورِ، أي: عدَمِ توقُّعِه، كأنَّه قيل: بل كانوا يُنكِرون النُّشورَ المُستتبِعَ للجزاءِ الأُخْرويِّ، ولا يرَوْنَ لنفْسٍ مِنَ النُّفوسِ نُشورًا أصلًا مع تَحقُّقِه حتْمًا، وشُمولِه للنَّاسِ عمومًا، واطِّرادِه وقوعًا؛ فكيف يَعترِفُون بالجزاءِ الدُّنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصَّةٍ مع عدَمِ الاطِّرادِ والملازَمةِ بيْنَه وبيْنَ المعاصي حتَّى يَتذكَّروا ويَتَّعِظوا بما شاهَدوه مِن آثارِ الهلاكِ، وإنَّما يَحمِلونه على الاتِّفاقِ؟! وإمَّا انتِقالٌ مِنَ التَّوبيخِ بما ذُكِر مِن تَرْكِ التَّذكُّرِ إلى التَّوبيخِ بما هو أعظَمُ منه مِن عدَمِ توقُّعِ النُّشورِ[3]. ويَجوزُ أن يكونَ (بلْ) للإضرابِ الانتِقاليِّ انتِقالًا مِن وصْفِ تَكذيبِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بما حَلَّ بالمكذِّبينَ مِنَ الأُممِ، إلى ذِكرِ تَكذيبِهم بالبَعثِ؛ فيكونَ انتِهاءُ الكلامِ عِندَ قولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا﴾، وهو الَّذي يَجري

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢١٩، ٢٢٠).

على الوجهِ الأوَّلِ في الاستِفهامِ، وهو الإنكارُ والتَّهديدُ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾ وُضِعَ الرَّجاءُ مَوضِعَ التَّوقُّعِ؛ لأنَّه إنَّما يَتوقَّعُ العاقبةَ مَن يؤْمِنُ، فمِن ثَمَّ لم يَنظُروا ولم يَذَّكَّروا، ومَرُّوا بها كما مرَّتْ رِكابُهم[٢].

- وعُبِّر عن إنكارِهمُ البَعثَ بعدَمِ رَجائِه؛ لأنَّ مُنكِرَ البَعثِ لا يَرْجو منه نفعًا، ولا يَخشى منه ضُرًّا، فعُبِّر عن إنكارِ البَعثِ بأحدِ شِقَّيِ الإنكارِ؛ تَعريضًا بأنَّهم ليسوا مِثْلَ المؤْمنِينَ يَرْجون رحمةَ اللهِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوَىٰهُ﴾: أي: ما تَميلُ إليه نفْسُه، والهَوى: مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ[1].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانِعًا وحافِظًا، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِك في أمرِك[2].

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى عن استِهزاءِ المشركينَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما كانوا يقولونَه عندَ رؤيتِهم له، فيقولُ تعالى: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قريشٍ، يَسخَرون منك، ويَستَهزِئون بك، قائِلينَ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه إلينا رَسولًا؟! لقد أوشَكَ أن يَصرِفَنا عن عبادةِ أصنامِنا لولا أن تمسَّكْنا بها ورَدَدْنا دعوتَه. ثمَّ يقولُ الله تعالى مهدِّدًا لهم: وسوف يعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ حينَ يرَونَ العذابَ مَن أبعَدُ طريقًا عن الحَقِّ، أهُم أمْ أنت؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثُمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه، ومبَيِّنًا حقيقةَ حالِ هؤلاء المشركينَ: أرأيتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّبَع هواهُ وانقاد له، أفأنت تكونُ عليه حَفيظًا؛ تمنَعُه مِنَ الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! بل أتظُنُّ أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون ما تُرشِدُهم إليه سماعَ تدَبُّرٍ وتعَقُّلٍ، أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! كلَّا، إنَّهم ليسوا كذلك؛ فما هؤلاء المُشرِكون في عدَمِ انتفاعِهم بما يقرَعُ قلوبَهم وأسماعَهم إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه مُبالَغةَ المُشرِكين في إنكارِ نبوَّتِه، وفي إيرادِ الشُّبُهاتِ في ذلك؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنَّهم إذا رأوُا الرسولَ اتَّخَذوه هُزُوًا، فلم يقتَصِروا على ترْكِ الإيمانِ به، بل زادوا عليه بالاستِهزاءِ والاستِحقارِ[1].

وأيضًا فإنَّ ما تقَدَّمتْ حكايتُه مِن صنوفِ أذاهم الرسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت أقوالًا في مَغيبِه، فعَطَفَ عليها في هذه الآيةِ أذًى خاصًّا، وهو الأذَى حينَ يرَونَه[2].

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قُرَيشٍ، لا يتَّخِذونَك إلَّا سُخريةً، فهم دائِبونَ على الاستِهزاءِ والسُّخريةِ بك[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

أي: ويقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ احتقارًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا رسولًا مِن بينِ خَلقِه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾.

أي: يقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: لقد أوشَكَ هذا الرَّسولُ أن يَصرِفَنا ويَصُدَّنا عن عبادةِ أصنامِنا بحُجَجِه وأدِلَّتِه، لولا أن ثبَتْنا على عبادةِ آلهتِنا فتمسَّكْنا بها ولم نَقبَلْ دَعْوتَه[2]!

= (ص: ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال السعدي: (وقالوا -على وجه الاحتقارِ والاستصغارِ-: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غيرُ مناسبٍ ولا لائقٍ أن يبعَثَ الله هذا الرجُلَ! وهذا مِن شِدَّةِ ظُلمِهم وعنادِهم وقَلبِهم الحقائِقَ؛ فإنَّ كلامَهم هذا يُفهِمُ أنَّ الرَّسولَ -حاشاه- في غايةِ الخِسَّةِ والحقارةِ، وأنَّه لو كانت الرِّسالةُ لغيرِه لكان أنسَبَ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٦، ٧].

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصفُوه بالإضلالِ في قَولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ بَيَّن تعالى أنَّه سيَظهَرُ لهم مَنِ المُضِلُّ ومَنِ الضَّالُّ عندَ مُشاهَدةِ العذابِ الذي لا مَخلَصَ لهم منه، فقال[1]:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: وسوف يعلَمُ الكُفَّارُ حين يرَونَ عذابَ اللهِ النَّازِلَ بهم[2] مَن أخطأَ طريقَ

= كثير)) (٦/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: ما وقع لهم يومَ بدرٍ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ المرادَ عذابُ السَّيفِ النازِلُ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

وقيل: يرونَ العذابَ في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢).

وقيل: يرون العذابَ في الآخرةِ وعندَ الموتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٠).

الهُدى: هم أم محمَّدٌ الذي دعاهم إلى توحيدِ اللهِ[(١)]؟!

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

أي: أرأيتَ -يا مُحمَّدُ- مَنِ اتَّبعَ هواه، وانقاد إليه وأطاعَه[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَتْبَاعُ الهوى دَرَجاتٌ: فمنهم المُشرِكون والذين يَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما يَستحسِنون بلا عِلمٍ ولا بُرهانٍ، كما قال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، أي: يتَّخِذُ إلهَه الذي يعبُدُه وهو ما يهواه من آلهةٍ، ولم يقُلْ: إنَّ هواه نفْسُ إلهِه، فليس كلُّ مَن يهوى شيئًا يَعبُده؛ فإنَّ الهوى أقسامٌ، بل المرادُ: أنَّه جعَلَ المعبودَ الذي يعبُدُه هو ما يهواه، فكانت عبادتُه تابعةً لهوى نفْسِه في العبادةِ؛ فإنَّه لم يَعبُدْ ما يجِبُ أن يُعبَدَ، ولا عبَدَ العبادةَ التي أُمِرَ بها. وهذه حالُ «أهلِ البدَعِ»؛ فإنَّهم عبَدوا غيرَ الله، وابتَدَعوا عباداتٍ زَعَموا أنَّهم يَعبُدون الله بها!). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٩٢).

وقال البقاعي: (أي: أنَّهم حقَّروا الإلهَ بإنزاله إلى رتبةِ الهوى، فهم لا يَعبُدون إلَّا الهوى، وهو مَيلُ الشهوةِ، ورميُ النفْسِ إلى الشَّيءِ، لا شبهةَ لهم أصلًا في عبادةِ الأصنام يرجِعون عنها إذا جَلَت، فهم لا يَنفكُّون عن عبادتِها ما دام هواهم موجودًا... فالمعنى: أنَّ هذا المذمومَ قصَر نفْسَه على تألُّهِ الهوى، فلا صلاحَ له ولا رشادَ، وقد يتألَّهُ لهوَى غيره. ولو قيل: مَنِ اتخذَ هواه إلهَه؛ لكان المعنى أنَّه قصَر هواه على الإلهِ، فلا غَيَّ له؛ لأنَّ هواه تابعٌ لأمرِ الإلهِ، وقد يُشاركُه في تألُّهِ الإلهِ غيرُه. قال أبو حيَّان: والمعنى أنَّه لم يتخِذْ إلهًا إلَّا هواه. انتهى.

فلو عُكِس لقيل: لم يتَّخِذ هوًى إلَّا إلهَه، وهو إذا فعل ذلك فقد سلَبَ نفْسَه الهوى فلم يعمَلْ به إلَّا فيما وافَقَ أمرَ إلهِه، ومما يوضِّحُ لك انعكاسَ المعنى بالتقديمِ والتأخيرِ أنَّك لو قلتَ: فلانٌ اتَّخذ عبدَه أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبدَ، ولو قيل: إنه اتَّخذ أباه عبدَه؛ لكان معناه أنَّه أهان =

= الأبَ، وسواءٌ في ذلك إتيانُك به هكذا على وِزانِ ما في القرآنِ أو نكَّرْت أحدَهما، فإنَّك لا تجِدُ ذَوقَك فيه يختلِفُ في أنه إذا قدَّم الحقيرَ شرَّفه، وإذا قدَّم الشريفَ حَقَّره، وكذا لو قلتَ: اتَّخَذ إصطبلَه مَسجِدًا، أو صديقه أبًا، أو عكسْتَ، ولو كان التقديمُ بمجرَّدِ العنايةِ مِن غيرِ اختلافٍ في الدَّلالةِ قُدِّم في «الجاثية» الهوى؛ فإنَّ السياقَ والسباقَ له، وحاصِلُ المعنى أنَّه اضمحلَّ وَصفُ الإلهِ، ولم يبقَ إلا الهوى، فلو قُدِّم الهوى لكان المعنى أنَّه زال وغَلَبت عليه صِفةُ الإلهِ، ولم يكُنْ ينظُرُ إلَّا إليه، ولا حُكمَ إلَّا له، كما في الطينِ بالنسبة إلى الخَزفِ سواءٌ، والله أعلم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢-٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إذا أُجرِيَ على الترتيب كان معناه: جعَلَ إلَهَه الشيءَ الذي يهوى عبادتَه، أي: ما يُحبُّ أن يكونَ إلهًا له، أي: لمجرَّدِ الشهوةِ، لا لأنَّ إلَهَه مستحِقٌّ للإلهيَّةِ، فالمعنى: مَن اتَّخَذ ربًّا له محبوبَه؛ فإن الذين عبدوا الأصنامَ كانت شهوتُهم في أن يعبدوها، وليست لهم حُجَّةٌ على استِحقاقِها العبادةَ. فإطلاقُ إلهِه على هذا الوجهِ إطلاقٌ حقيقيٌّ. وهذا يناسِبُ قَولَه قبْلَه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان: ٤٢]...، وإذا أُجريَ على اعتبار تقديم المفعولِ الثاني كان المعنى: مَنِ اتَّخَذ هواه قدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عملًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشهوتِه؛ فكأنَّ هواه إلَهه ... وهذا المعنى أشمَلُ في الذمِّ؛ لأنَّه يشمَلُ عبادتَهم الأصنامَ، ويشملُ غيرَ ذلك مِن المنكَراتِ والفواحشِ مِن أفعالِهم. ونحا إليه ابنُ عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحِبُ «الكشاف»، وابنُ عطية. وكِلا المعنيينِ يَنبغي أن يكونَ مَحملًا للآية). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

وقال ابن عثيمين: (الصوابُ أنَّ الآية على ظاهرها، وأنَّ الإلهَ هو الهوى، ومعنى ذلك: أنَّه جعل المتبوعَ الهوى، وكونُ الإنسان يتبَعُ غيرَه، سواءٌ هوى نفْسِه أو كونُه يتبَعُ غَيرَه، هذا مِن اتخاذِه إلهًا... فإذَنْ نقولُ: الآيةُ على ظاهِرِها، يعني: أنَّ الإلهَ هو الهوى نفْسُه، والهوى يقودُه إلى عبادة الشجَرِ والحجَرِ، ويقودُه إلى استحلالِ الزنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غيرِ ذلك؛ فعليه الأَولى جَعْلُ الآيةِ على ظاهِرِها، وألَّا تُصرَفَ إلى المعبودِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٦).

وقال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّهم قَومٌ كان الرجُلُ منهم يَعبُدُ حجَرًا يَستحسِنُه، فإذا رأى أحسَنَ منه عبَدَه وترَك الأوَّلَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّه الحارثُ بنُ قَيسٍ، كان إذا هوى شيئًا عبَدَه. حكاه النقاشُ. =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

أي: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تكونُ على مَنِ اتَّبع هواه حَفيظًا تمنَعُه مِن الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! كلَّا؛ فليست الهدايةُ والضَّلالةُ موكولتَينِ إليك، وإنَّما عليك البلاغُ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل(٢) أتظُنُّ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون الحَقَّ أو

= الثَّالثُ: أنَّه الذي يتَّبعُ هواه في كلِّ ما دعا إليه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿أَمْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ هي المنقَطِعةُ، وأشهَرُ معانيها أنَّها جامعةٌ بين =

يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! فليسوا كذلك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: ما المُشرِكون إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

= معنى «بل» الإضرابيَّةِ، واستفهام الإنكار معًا، والإضرابُ المدلولُ عليه بها هنا إضرابٌ انتقاليٌّ. والمعنى: بل أتحسَبُ أنَّ أكثَرهم يسمَعون أو يَعقِلون؟! أي: لا تعتَقِدْ ذلك ولا تظُنَّه؛ فإنَّهم لا يسمعون الحَقَّ ولا يعقِلونَه، أي: لا يُدرِكونه بعُقولِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٩).
ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠-١٨٢).
قال القرطبي: (﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ﴾ سماعَ قَبولٍ، أو يفكِّرون فيما تقولُ فيعقلونه؛ أي: هُم بمنزلةِ مَن لا يعقلُ ولا يسمعُ. وقيل: المعنى: أنَّهم لمَّا لم يَنتفعوا بما يَسمعون فكأنَّهم لم يَسْمعوا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦).
وقال ابن عاشور: (المرادُ مِن نفي أنَّ ﴿أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ﴾ نفيُ أثرِ السماعِ، وهو فَهْمُ الحقِّ؛ لأنَّ ما يُلقيه إليهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَرتابُ فيه إلَّا مَن هو كالذي لم يسمعْه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۞ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ والواجِبُ الذي يلزَمُ العمَلُ به: هو أن تكونَ جَميعُ أفعالِ المكَلَّفِ مُطابِقةً لِما أمَرَه به معبودُه جَلَّ وعلا، فإذا كانت جميعُ أفعالِه تابعةً لِما يَهواه، فقد صرفَ جميعَ ما يستحِقُّه عليه خالِقُه من العبادةِ والطاعةِ إلى هواه(١).

٢- أصلُ الطريقِ هو الإرادةُ والقَصدُ والعملُ، وذلك يَتضمَّنُ الحُبَّ، وكثيرًا ما يَعمَلُ السالكُ بمُقتضى ما يَجِدُه في قَلبِه مِنَ المَحبَّةِ، وما يُدرِكُه بذَوقِه مِن طَعمِ العِبادةِ، وهذا إذا لم يكُنْ موافِقًا لأمرِ الله ورسولِه فصاحِبُه في ضَلالٍ، وهو ممَّن اتَّبع هواه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

٥٠]؛ فجَعَل كلَّما خالَفَ الأمرَ فصاحِبُه مُتَّبِعٌ هواه، فما ثَمَّ واسِطةٌ، بل إمَّا الأمرُ وإمَّا الهوى(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جعَلَ الأكثرينَ أضَلَّ سبيلًا مِنَ الأنعام؛ لأنَّ البهيمةَ يَهديها سائقُها فتَهْتدي وتَتَّبِعُ الطَّريقَ، فلا تَحيدُ عنها يمينًا ولا شِمالًا، والأكثرونَ يَدْعوهم الرسُلُ ويَهْدونهم السَّبيلَ فلا يَستجيبونَ ولا يَهتدونَ، ولا يُفَرِّقون بيْن ما يَضُرُّهم وبيْن ما يَنفَعُهم، والأنعامُ تُفَرِّقُ بيْن ما يَضُرُّها مِن النَّباتِ والطَّريقِ فتَجتنِبُه، وما يَنفَعُها فتُؤْثِرُه، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ للأنعامِ قُلوبًا تَعقِلُ بها، ولا أَلْسِنةً تَنطِقُ بها، وأَعطى اللهُ ذلك لهؤلاء، ثمَّ لمْ يَنتفِعوا بما جعل لهم مِن العقولِ والقلوبِ والألْسِنةِ والأسماعِ والأبصارِ؛ فهُم أضَلُّ من البهائم، فإنَّ مَن لا يَهتدي إلى الرُّشْدِ وإلى الطَّريقِ -مع الدَّليلِ إليه- أضَلُّ وأسْوَأُ حالًا مِمَّن لا يَهتدي حيثُ لا دليلَ معه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخبَرَ عن المشركين أنَّهم متى رأَوُا الرسولَ أتَوا بنوعَينِ مِن الأفعالِ:

أحدُهما: أنَّهم يَستهزِئون به، وفسَّرَ ذلك الاستهزاءَ بقَولِه: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وذلك جهلٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ الاستهزاءَ إمَّا أن يقعَ بصورتِه أو بصِفتِه:

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

أمَّا الأولُ فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أحسَنَ منهم صورةً وخِلقةً، وبتقديرِ أنَّه لم يكُنْ كذلك لكنَّه عليه السَّلامُ ما كان يدَّعي التمييزَ عنهم بالصورةِ بل بالحُجَّةِ. وأمَّا الثَّاني فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ ادَّعى التميُّزَ عنهم في ظهورِ المعجِزِ عليه دونَهم، وأنَّهم ما قدَروا على القَدحِ في حُجَّتِه ودَلالتِه، ففي الحقيقةِ هم الذين يستحقُّون أن يُهزأَ بهم، ثم إنَّهم لوقاحتِهم قلبوا القضيَّةَ، واستَهزؤوا بالرَّسولِ عليه السلام، وذلك يدُلُّ على أنه ليس للمُبطِلِ في كلِّ الأوقاتِ إلَّا السفاهةُ والوقاحةُ.

وثانيهما: أنَّهم كانوا يقولون فيه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾، وذلك يدُلُّ على أمورٍ:

الأوَّل: أنَّهم سَمَّوا ذلك إضلالًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا مُبالِغين في تعظيمِ آلهتِهم، وفي استعظامِ صَنيعِه صلَّى الله عليه وسلَّم في صَرفِهم عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذا هو الحقُّ، وقولُهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يدُلُّ أيضًا على ذلك.

الثَّاني: يدُلُّ هذا القَولُ منهم على جِدِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ واجتهادِه في صَرفِهم عن عبادةِ الأوثانِ، ولولا ذلك لَما قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وهكذا كان عليه السَّلامُ؛ فإنَّه في أوَّلِ الأمرِ بالَغَ في إيرادِ الدَّلائِلِ والجوابِ عن الشُّبُهاتِ، وتحمَّلَ ما كانوا يفعلونَه مِن أنواعِ السَّفاهةِ وسُوءِ الأدَبِ.

الثَّالث: أنَّ هذا يدُلُّ على اعترافِ القَومِ بأنَّهم لم يعتَرِضوا البتَّةَ على دلائِلِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما عارَضوها إلَّا بمَحضِ الجُحودِ والتقليدِ؛

لأنَّ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارةٌ إلى الجُحودِ والتَّقليدِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه وعيدٌ ودَلالةٌ على أنَّهم لا يَفوتُونَه وإنْ طالَتْ مدَّةُ الإمهالِ، ولا بدَّ للوعيدِ أن يَلحَقَهم؛ فلا يَغُرَّنَّهمُ التَّأخيرُ[2].

٣- عبادةُ اللهِ تعالى إنَّما هي بطاعتِه وطاعةِ رُسُلِه، فإذا أمرَ اللهُ على ألْسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحبُّه هو؛ كان عابدًا لهواه، لا عابِدًا للهِ؛ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[3]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ مَن قَدَّمَ هوى نفْسِه على هُدى ربِّه، فهو قد اتَّخذَه إلهًا؛ ولهذا يمكِنُنا أن نقولَ: إنَّ جميعَ المعاصي داخِلةٌ في الشِّركِ بهذا المعنى؛ حيث إنَّه قدَّمَها على مَرضاةِ اللهِ تعالى وطاعتِه، فجَعَلَ هذا شريكًا لله عزَّ وجلَّ في تعبُّدِه له، واتِّباعِه إيَّاه[4]، ولا يعني ذلك أنَّ العاصيَ مشركٌ خرَج مِن المِلَّةِ بمعصيتِه.

٤- الإنسانُ إذا اعتبَرَ وتعَرَّف نفْسَه والنَّاسَ، رأى الواحِدَ يريدُ نفْسَه أن تُطاعَ وتَعلوَ بحسَبِ الإمكانِ، والنفوسُ مَشحونةٌ بحُبِّ العُلُوِّ والرئاسةِ بحسَبِ إمكانِها، فتَجِدُه يوالي مَن يوافِقُه على هواه، ويُعادي مَن يخالِفُه في هواه، وإنَّما معبودُه ما يَهواه ويُريدُه؛ قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفى عنهمُ السَّمعَ والعقلَ، فكيف ذَمَّهم على الإعراضِ عن الدِّينِ؟! وكيف بَعَثَ الرسولَ إليهم؛ فإنَّ مِن شرطِ التَّكليفِ العقلَ؟

الجوابُ: ليس المرادُ أنَّهم لا يَعقِلون، بل إنَّهم لا يَنتَفِعون بذلك العَقلِ، فهو كقَولِ الرجُلِ لغيرِه إذا لم يَفهَمْ: إنَّما أنت أعمى وأصَمُّ[(١)]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سؤالٌ: لِمَ جُعِلوا أضَلَّ مِن الأنعامِ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

أحدها: أنَّ الأنعامَ تَنقادُ لأربابِها ولِلَّذي يَعْلِفُها ويَتَعَهَّدُها، وتُمَيِّزُ بيْنَ مَن يُحْسِنُ إليها وبيْن مَن يُسيءُ إليها، وتَطلبُ ما يَنفعُها، وتَجتنبُ ما يضُرُّها، وهؤلاء لا يَنقادون لربِّهم، ولا يُميِّزونَ بيْنَ إحسانِه إليهم، وبيْن إساءةِ الشيطانِ إليهم الذي هو عدوٌّ لهم، ولا يَطلبون الثوابَ الذي هو أعظَمُ المنافعِ، ولا يَحترِزونَ مِن العقابِ الذي هو أعظَمُ المَضارِّ!

ثانيها: أنَّ قلوبَ الأنعامِ كما أنَّها تكونُ خاليةً عن العِلمِ فهي خاليةٌ عن الجهلِ الذي هو اعتِقادُ المعتقَدِ على خلافِ ما هو عليه مع التصميمِ، وأمَّا هؤلاء فقلوبُهم كما خَلَتْ عن العِلمِ فقد اتصفَتْ بالجهلِ؛ فإنَّهم لا يَعلمونَ، ولا يَعلمون أنهم لا يَعلمون، بل هم مُصِرُّون على أنَّهم يَعلمون.

ثالثها: أنَّ عدمَ عِلمِ الأنعامِ لا يَضُرُّ بأحدٍ، أمَّا جهلُ هؤلاء فإنَّه منشأٌ للضررِ العظيمِ؛ لأنَّهم يَصُدُّون الناسَ عن سبيلِ اللهِ، ويبغونها عِوَجًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

رابعها: أنَّ البهائمَ لا تَستحقُّ عقابًا على عدمِ العِلمِ، أمَّا هؤلاء فإنَّهم يَستحقُّون عليه أعظمَ العقابِ.

خامسها: أنَّ البهائمَ تُسبِّحُ اللهَ تعالى، على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وإذا كان كذلك؛ فضلالُ الكفارِ أشَدُّ وأعظَمُ مِن ضلالِ هذه الأنعامِ(١).

سادسها: أن البهائمَ لم يَعرفوا، ولم يَكونوا أُعطوا آلةَ المعرفةِ، وأمَّا الكفارُ فلم يَعرفوا وقد أُعطوا آلةَ المعرفةِ؛ فهم أضَلُّ(٢). والمحرومُ عن طلبِ المراتبِ العاليةِ إذا عَجَزَ عنه لا يكونُ في استحقاقِ الذَّمِّ كالقادر عليه التاركِ له لسوءِ اختيارِه(٣)!

سابعها: أنَّ البهائمَ لم تُفسِدْ ما لها مِن المعارفِ؛ فإنَّ الله تعالى أعطاها قدْرًا مِن المعارفِ فهي تَستعمِلُها، وأمَّا الكفارُ فقد أفسَدوا ما لهم مِن المعارفِ؛ فهم أضَلُّ وأقَلُّ مِن البهائمِ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾

- قولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الوصفُ بـ﴿هُزُوًا﴾ للمُبالَغةِ في استِهزائِهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

به، حتَّى كأنَّه نفسُ الهُزُؤِ؛ لأنَّهم مَحَّضُوه لذلك. وإسنادُ ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ إلى ضميرِ الجَمعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَماعاتِهم يَستهزِئون به إذا رأَوْه وهُم في مَجالِسِهم ومُنتَدياتِهم. وصِيغةُ الحَصرِ (إنْ... إلَّا)؛ للتَّشنيعِ عليهم بأنَّهم انحَصَر اتِّخاذُهم إيَّاه في الاستِهزاءِ به، يُلازِمونه ويَدْأبون عليه، ولا يَخلِطون معه شيئًا مِن تَذكُّرِ أقوالِه ودَعوتِه؛ فالاستِثناءُ مِن عُمومِ الأحوالِ المَنفيَّةِ، أيْ: لا يَتَّخِذونك في حالةٍ إلَّا في حالةِ الاستِهزاءِ[١].

- قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ مَقُولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولون. والإشارةُ بـ (هذا) للاستِحقارِ منهم، وإبرازِ بَعثِ اللهِ رَسولًا في مَعرِضِ التَّسليمِ بجَعْلِه صِلةً للمَوصولِ الَّذي هو صِفَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع كَونِهم في غايةِ النَّكيرِ لبَعْثِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريقِ التَّهكُّمِ والاستِهزاءِ والإنكارِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أَسنَدوا مُقاربةَ الإضلالِ إلى الرَّسولِ دُونَ أنفسِهم؛ تَرفُّعًا على أن يَكونوا قارَبوا الضَّلالَ عن آلهتِهم، مع أنَّ مُقارَبَتَه إضلالَهم تَستلزِمُ اقترابَهم مِنَ الضَّلالِ[٣].

- وجوابُ (لولا) في قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

عَلَيۡهَا ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبلَ (لولا) عليه، وهو ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا ﴾؛ وفائدةُ نَسجِ الكلامِ على هذا المِنوالِ دُونَ أن يُؤْتَى بأداةِ الشَّرطِ ابتِداءً مَتْلوَّةً بجوابِها: قَصْدُ العِنايةِ والاهتِمامِ بالخَبرِ ابتِداءً بأنَّه حاصِلٌ، ثمَّ يؤْتَى بالشَّرطِ بعْدَه تَقييدًا لإطلاقِ الخَبرِ بعْدَ إطلاقِه[١].

- قولُه: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ...﴾ هذا جَوابُ قولِهم: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا ﴾ المُتضمِّنِ أنَّهم على هُدًى في دِينِهم، وكان الجوابُ بقطْعِ مُجادلتِهم، وإحالَتِهم على حينِ رؤْيتِهمُ العذابَ يَنزِلُ بهم، فتَضمَّنَ ذلك وعيدًا بعذابٍ[٢]. ولَمَّا كان الجوابُ بالإعراضِ عنِ المُحاجَّةِ عبَّر بأُسلوبِ التَّهكُّمِ، بجعْلِ ما يَنكشِفُ عنه المستقبَلُ هو معرفةَ مَن هو أشدُّ ضلالًا مِنَ الفَريقَينِ، على طريقةِ المُجاراةِ، وإرخاءِ العِنانِ للمُخطئِ إلى أن يَقِفَ على خطَئِه[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ استِئنافٌ خوطِبَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَخطُرُ بنفْسِه مِنَ الحُزنِ على تَكرُّرِ إعراضِهم عن دَعْوتِه؛ إذْ كان حَريصًا على هُداهُم، والإلحاحِ في دَعْوتِهم، فأَعلَمَه بأنَّ مِثلَهم لا يُرجَى اهتداؤُه؛ لأنَّهم جَعَلوا هواهُم إلهَهُم، فالخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- وقولُه: ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ فيه -على قَولٍ- تقديمُ المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٤، ٣٥).

الثَّاني ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الأوَّلِ ﴿هَوَىٰهُ﴾؛ للعنايةِ به، والأصلُ: اتَّخذ الهوَى إلهًا[١]. وفيه -إلى جانبِ هذه النُّكتةِ- نُكتةٌ ثانيةٌ، وهي إفادةُ الحَصرِ؛ فإنَّ الكلامَ قبْلَ دُخولِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مُبتدَأٌ وخَبرٌ، المبتدَأُ (هَوَاهُ) والخبرُ (إِلَهَهُ)، وتَقديمُ الخبرِ -كما علِمْتَ- يُفيدُ الحَصرَ، فكأنَّه قال: أرأيتَ مَن لمْ يتَّخِذْ مَعبودَه إلَّا هَواهُ؛ فهو أبلَغُ في ذمِّه وتَوبيخِه[٢].

- قولُه أيضًا: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أيْ: مَنِ اتَّخذ هَواه قُدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عمَلًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشَهوتِه، فكأنَّ هَواهُ إلهُه. وعلى هذا يكونُ معنَى إلهِه شبيهًا بإلهِه في إطاعتِه على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، وهذا المعنى أَشمَلُ في الذَّمِّ؛ لأنَّه يَشملُ عبادتَهمُ الأصنامَ، ويَشملُ غيرَ ذلك مِنَ المُنكَراتِ والفَواحشِ مِن أفعالِهم[٣].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قيل: الاستِفهامُ للتَّقريرِ، والتَّعجيبِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شَناعةِ حالِهم بعْدَ حِكايةِ قَبائِحِهم مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، وبيانِ ما لهم مِنَ المَصيرِ والمآلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ذلك مِنَ الغَرابةِ بحيث يَجِبُ أن يُرى ويُتعجَّبَ منه[٤].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنكارٌ واستِبعادٌ لكَونِه صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

عليه وسلَّمَ حفيظًا عليه يَزجُرُه عمَّا هو عليه مِنَ الضَّلالِ، ويُرشِدُه إلى الحقِّ طَوعًا أو كَرهًا. والفاءُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ لتَرتيبِ الإنكارِ على ما قبْلَه مِنَ الحالةِ المُوجِبةِ له[(١)].

- وإنْ كان مَجموعُ جُملَتَيْ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ كلامًا واحدًا متَّصِلًا ثانيهِ بأوَّلِه اتِّصالَ المفعولِ بعامِلِه؛ تعيَّنَ فِعلُ «رأيْتَ» لأنْ يَكونَ فِعلًا قلْبيًّا بمعنَى العِلمِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجملةِ الأُولى بقولِه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إنكاريًّا كالثَّاني في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، وكان مجموعُ الجُملتَينِ كلامًا على طريقةِ الإجمالِ، ثمَّ التَّفصيلِ. والمعنَى: أرأيْتَك تكونُ وَكيلًا على مَنِ اتَّخذ إلهَه هَواهُ؟ وتكونُ الفاءُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ﴾ فاءَ الجوابِ للمَوصولِ؛ لمُعاملَتِه مُعاملةَ الشَّرطِ، وهمزةُ الاستِفهامِ الثَّانيةُ تأكيدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ، كقولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٤٩] على قِراءةِ إعادةِ همزةِ الاستِفهامِ، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ عِوَضًا عنِ المفعولِ الثَّاني لفِعلِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾، والفِعلُ مُعلَّقٌ عنِ العملِ فيه؛ بسببِ الاستِفهامِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وعليه لا يُوقَفُ على قوله: ﴿هَوَىٰهُ﴾، بلْ يوصَلُ الكلامُ. وإنْ كانتْ كلُّ جملةٍ مِنَ الجُملتَينِ مُستقِلَّةً عنِ الأُخرى في نظْمِ الكلامِ، كان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الأُولى مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين اتَّخذوا إلهَهم هَواهُم تَعجيبًا مَشوبًا بالإنكارِ، وكانتِ الفاءُ في الجُملةِ الثَّانيةِ للتَّفريعِ على ذلك التَّعجيبِ والإنكارِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الثَّانيةِ مِن قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ بمعنَى: أنَّك لا تَستطيعُ قَلْعَه عن ضَلالِه، كما أشار إليه قَولُه قبْلَه: ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١] [الفرقان: ٤٢].

- و(مَن) في قَولِه: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ صادِقةٌ على الجَمْعِ المُتحدَّثِ عنه في قَولِه: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الفرقان: ٤٢]، ورُوعيَ في ضَمائرِ الصِّلةِ لفْظُ (مَن)؛ فأُفرِدَتِ الضَّمائرُ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه (أَنْت) على الخَبرِ الفِعليِّ؛ للتَّقوِّي؛ إشارةً إلى إنكارِ ما حَمَّل الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفْسَه مِنَ الحِرصِ والحُزنِ في طلَبِ إقلاعِهم عنِ الهوَى[٣]. ولَمَّا كان مُرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -حِرْصًا عليهم، ورَحمةً لهم- ردَّهُم عنِ الغَيِّ ولا بدَّ؛ عَبَّر بأداةِ الاستِعلاءِ في قَولِه: ﴿عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ عنِ التَّأْييسِ مِن اهتِدائِهم؛ لغلَبةِ الهوَى على عُقولِهم، إلى التَّحذيرِ مِن أن يُظَنَّ بهم إدراكُ الدَّلائلِ والحُجَجِ، وهذا تَوجيهٌ ثانٍ للإعراضِ عن مُجادلَتِهمُ الَّتي أَنبأَ عنها قَولُه تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، فـ (أَمْ) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتِقاليِّ مِن إنكارٍ إلى إنكارٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٤).

وهي مؤْذِنةٌ باستِفهامٍ عطَفَتْه على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَها. والتَّقديرُ: أَمْ أَتَحسَبُ أنَّ أَكثرَهم يَسمَعون أو يَعقِلون[١]؟

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ نُفيَ فَهمُ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ والعَقليَّةِ عن (أكثَرِهم) دُونَ جميعِهم؛ لأنَّ هذا حالُ دَهْمائِهم ومُقَلِّدِيهم فقطْ، ومِنهم مَن عَقَل الحَقَّ وكابَرَ استِكبارًا، وخَوفًا على الرِّئاسةِ؛ ففيهم مَعشَرٌ عُقلاءُ يَفهَمون ويَستَدِلُّون بالكائناتِ، ولكنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، وأَنِفوا مِن أن يَعُودوا أتْباعًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُساوِينَ للمؤْمنينَ مِن ضُعفاءِ قُرَيشٍ وعَبيدِهم مِثْلِ: عَمَّارٍ وبِلالٍ. وأيضًا تَخصيصُ الأَكثَرِ؛ لأنَّه كان مِنهم مَن آمَنَ[٢].

- وضَميرُ ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ (مَن)، وجمْعُه باعتِبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتِبارِ لفْظِها[٣].

- وعَطْفُ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ على ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لنفْيِ أن يَكونوا يَعقِلون الدَّلائلَ غيرَ المَقاليَّةِ، وهي دَلائلُ الكائناتِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتَقريرِ النَّكيرِ وتأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحُسبانِ بالمرَّةِ[٥]. وقيل: مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن إنكارِ أنَّهم يَسمَعون يُثيرُ في نفْسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن نفْيِ فَهمِهم لِما يَسمَعون مع سلامةِ حَواسِّ السَّمعِ منهم؛ فكان تَشبيهُهم بالأنعامِ تَبيينًا للجَمعِ بيْن حُصولِ اختِراقِ أصواتِ الدَّعوةِ آذانَهم مع عدَمِ انتِفاعِهم بها؛ لعدَمِ تَهَيُّئِهم للاهتِمامِ بها؛ فالغرضُ مِنَ التَّشبيهِ التَّقريبُ والإمكانُ[١].

- وقولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه تشبيهٌ لأكثرِ النَّاسِ بالأنعامِ، والجامعُ بيْن النوعينِ: التَّساوي في عدمِ قَبولِ الهدى والانقيادِ له[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

الآيات (٤٥-٥٤)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: أي: أزَلْناه ونسَخْناه، وأصلُ (قبض): يدُلُّ على شيءٍ مأخوذٍ[١].

﴿لِبَاسًا﴾: أي: ساتِرًا وغِشاءً، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[٢].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم، وقَطعًا لأعمالِكم، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على القَطعِ[٣].

﴿نُشُورًا﴾: أي: يَقَظةً وحياةً، يَنتشِرونَ فيه، ويَبتَغونَ الرِّزقَ، ويَتصرَّفونَ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢).

حاجاتِهم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبه[١].

﴿بُشْرًا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإِخْبار بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[٢].

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: الأناسيُّ: جَمعُ إنسيٍّ، وهو مرادِفُ إنسانٍ، مِثلُ كُرسيٍّ وكَراسيَّ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وكلِّ شَيءٍ خالَفَ طريقةَ التَّوحُّشِ[٣].

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: قسَّمْناه، يعني المطرَ: يَسقي أرضًا، ويتركُ أرضًا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[٤].

﴿كُفُورًا﴾: أي: جُحُودًا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[٥].

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بيْنهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

﴿فُرَاتٌ﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ، قِيل: سُمِّي الماءُ الحُلوُ فُراتًا؛ لأنَّه يَفْرُتُ العطشُ، أي: يقطَعُه ويكسِرُه[(١)].

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: شَديدُ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ[(٢)].

﴿بَرْزَخًا﴾: أي: حاجِزًا ومانِعًا؛ لئلَّا يَختلطَا، وكلُّ حاجزٍ بيْنَ شَيئينِ فهو برزخٌ[(٣)].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حَرامًا مُحَرَّمًا على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَه ويُفْسِدَه، أو مانِعًا مَمْنوعًا، وأصلُ (حجر): المَنعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ[(٤)].

﴿نَسَبًا﴾: النَّسبُ: اشتِراكٌ مِن جهةِ أحدِ الأبوَينِ، أي: أن يجتمعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، وقيل: ﴿نَسَبًا﴾ أي: ذا نسبٍ، وهو ما لا يَحِلُّ نكاحُه، وأصلُ (نسب): اتِّصالُ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه النَّسَبُ؛ سُمِّيَ لِاتِّصالِه ولِلاتِّصالِ به[(٥)].

---

(١) ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).
قال ابن فارس: (مِمَّا فيه حرفٌ زائدٌ «البرزَخُ»: الحائِلُ بيْنَ الشَّيئيْنِ، كأنَّ بيْنهما بَرازًا، أي: مُتَّسَعًا مِن الأرضِ، ثُمَّ صارَ كُلُّ حائِلٍ بَرْزَخًا، فالخاءُ زائِدَةٌ). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٣٣).
وقال الراغب: (وقيل: أصلُه «برزه»، فعُرِّب). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠١)، =

﴿وَصِهْرًا﴾: الصِّهرُ: قرابةُ النِّكاحِ، وأهلُ بَيتِ المرأةِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على قُربى[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه، ويمتَنُّ على عبادِه ببيانِ بعضِ النِّعمِ التي أنعَم بها عليهم، فيقول: ألمْ ترَ -يا محمَّدُ- إلى كيفيَّةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ دائمًا لا يتحَرَّكُ، ثمَّ جعَلَ الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ، ثمَّ نقَصَ ذلك الظِّلَّ.

واللهُ سُبحانَه الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ سِترًا يَستُرُكم بظَلامِه، وجعَل النَّومَ قاطعًا لحركتِكم لِتَستريحوا، وجعل النَّهارَ حياةً تنتَشِرونَ فيه لطلَبِ الأرزاقِ.

واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ تبَشِّرُ النَّاسَ بنُزولِ المطَرِ، وأنزَل مِن السَّماءِ ماءَ المطَرِ الطَّهورَ؛ ليُحييَ به أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها، ويَسقيَ به ما خلَقَه مِن الأنعامِ والنَّاسِ.

ولقد قسَّم سُبحانَه ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ للتذكُّرِ والاعتِبارِ، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ باللهِ والجُحودَ، ولو شاء اللهُ تعالى لجعَلَ في كلِّ قَريةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويدعوهم إليه؛ فلا تُطِعِ الكافرين -يا محمَّدُ- فيما يُريدونَه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو تَرْكِ شَيءٍ مما أُرسِلتَ به، وجاهِدْهم بالقُرآنِ جِهادًا شديدًا.

واللهُ وحْدَه هو الذي أرسل البَحرينِ وخلَّاهما؛ أحدُهما شديدُ العذوبةِ، والآخَرُ شديدُ الملوحةِ، وهو بقدرتِه يَفصِلُ بيْنهما ويمنَعُهما التَّمازُجَ والاختِلاطَ.

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

وهو وحْدَه الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا، فجعَلَ ذلك الإنسانَ ذا نَسَبٍ وذا صِهرٍ، ولم يزَلْ سُبحانَه قَديرًا على كلِّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا بَيَّنَ سُبحانَه جهْلَ المُعرِضين عن دلائلِه، وفَسادَ طريقِهم في ذلك؛ ذَكَرَ بعْدَه أنواعًا مِن الدَّلائلِ الدالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، فقال تعالى[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.

أي: ألم تَرَ[2] -يا محمَّدُ- إلى هيئةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذه الرُّؤيةُ إمَّا بَصَريَّةٌ، والمرادُ بها: ألم تُبصِرْ إلى صُنعِ رَبِّك؟ أو ألم تُبصِرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟ وإمَّا قَلبيَّةٌ، بمعنى العِلمِ؛ فإنَّ الظِّلَّ مُتغيِّرٌ، وكُلُّ مُتغيِّرٍ حادثٌ، ولكُلِّ حادِثٍ مُوجِدٌ. قال الزَّجَّاجُ: ألم تَرَ: ألم تَعلَمْ، وهذا مِن رؤيةِ القَلبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ القلبِ، والمراد: ألَمْ تَعلَمْ: الفرَّاءُ، والزجَّاجُ، وابنُ عطية، وأبو حيان، والعليمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ بصَريَّةٌ، أي: ألَمْ تَنظُرْ: البيضاويُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩).

وجمَع السعديُّ بيْن القولينِ، فذكَر أنَّ المعنى: (ألم تشاهِدْ ببصرِك وبصيرتِك). ((تفسير =

طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ مَمدودًا دائِمًا لا يتحَرَّكُ بزيادةٍ ولا نُقصانٍ[1]؟!

= السعدي)) (ص: ٥٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٠).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالظِّلِّ: مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والبَغَوي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ، وسعيدُ بنُ جُبَير، وأبو العاليةِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، ومسروقٌ، والحسَنُ، وقتادةُ، وأبو مالِكٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وأبو سِنانٍ الشَّيبانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠١).

قال الواحديُّ: (والمفَسِّرون جميعًا قالوا في معنى الظِّلِّ هاهنا: إنَّه الظِّلُّ مِن وَقتِ طُلوعِ الفَجرِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ). ((البسيط)) (١٦/ ٥١٧).

ونَسَب النَّسَفيُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠).

قال البغوي: (وهو ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، جعَلَه ممدودًا؛ لأنَّه ظِلٌّ لا شَمسَ معه، كما قال في ظِلِّ الجنَّةِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لم يكُنْ معه شمسٌ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧).

واعترض ابنُ عطيَّةَ على هذا المعنى بأنَّ ذلك في غيرِ نهارٍ، بل في بقايا اللَّيلِ، وهذا لا يُقالُ له ظِلٌّ، واختار أنَّ المرادَ بمَدِّ الظِّلِّ بإطلاقٍ هو بيْنَ أوَّلِ الإسفارِ إلى بُزوغِ الشَّمسِ، ومِن بَعدِ مَغيبِها مُدَّةً يَسيرةً؛ فإنَّه في هذينِ الوقتَينِ على الأرضِ كُلِّها ظِلٌّ ممدودٌ على أنَّها نهارٌ، وفي سائِرِ أوقاتِ النَّهارِ ظِلالٌ مُتقَطِّعةٌ، والمَدُّ والقَبضُ مُطَّرِدٌ فيها. قال: (وهو عندي المرادُ في الآيةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢).

وقيل: المرادُ به: ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظِّلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَضُ شيئًا فشيئًا. وهذا ظاهِرُ اختيار ابن القيِّمِ، وابنِ عاشور. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن =

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ؛ فهو يَتبَعُها، ويتفاوَتُ بحَركتِها(١).

= القيم (٣/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩-٤١).

وقيل: المرادُ بالظلِّ هنا: اللَّيلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو القاسم النيسابوريُّ، والبقاعي. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٧).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على جميعِ هذه المعاني: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١-١٩٢).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالظِّلِّ على الخِلافِ ثلاثةُ آراءٍ: إمَّا أنَّه ما بينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طلوعِ الشَّمسِ... أو أنَّه اللَّيلُ كُلُّه، ويكونُ مَدُّه تطويلَه ثمَّ ينقُصُ، ففي هذا من قدرةِ الله تعالى: تغيُّرُ الفُصولِ بسبَبِ طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه. أو أنَّ المرادَ به ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثمَّ يُقبَضُ شيئًا فشَيئًا، ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ سُبحانَه وتعالى ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، والسُّكونُ هنا يختلفُ معناه بحسَبِ اختلافِ معنى الظلِّ؛ فإذا قُلْنا: المرادُ بالظلِّ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، كان المرادُ بالسكونِ أنَّ الشمسَ تخرجُ دَفعةً واحدةً بدون أن يكونَ ظِلُّها شَيئًا فشَيئًا، وإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ به اللَّيلُ، كان المرادُ بسكونِه أن يبقَى الليلُ دائمًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وإذا قلنا: إنَّ المرادَ بالظلِّ ظلُّ الشاخصِ، صار المرادُ بسكونِه أنَّ الشمسَ لا تتحرَّكُ، وتبقَى في مكانٍ واحدٍ، ويكونُ الظلُّ ساكنًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ... [و] ما دام أنَّ هذه المعانيَ لا تتنافى، فالواجِبُ أن تُحمَلَ الآيةُ على الجميعِ، وهذه قاعدةٌ... قرَّرها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجِبُ أن تُحمَلَ على كلِّ هذه المعاني؛ لأنَّ كلامَ الله سُبحانه وتعالى لا يُحيطُ به شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جعْلُ الشَّمسِ دَليلًا على الظِّلِّ فيه دليلٌ ليس على مجرَّدِ وجودِ الظلِّ، بل دليلٌ على ما فيه مِن المصالحِ، وهي أيضًا مدلولٌ عليها به؛ فالشَّمسُ الآنَ يُستدَلُّ بها على ما في الظلِّ مِن المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلِّ على ما فيها من =

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾.

أي: ثمَّ نَقَصْنا ذلك الظِّلَّ الممدودَ بسُهولةٍ وتدريجٍ[1].

= المصالحِ أيضًا؛ لأنَّ غيبَ الشَّمسِ عن الأرضِ قد يؤثِّرُ، وبقاءَها دائمًا على وجهِ الأرضِ قد يؤثِّرُ، مِثلُ قَولِ الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ * قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، فكونُ هذا دليلًا على هذا، وهذا دليلًا على هذا: هو أيضًا مِن رحمةِ الله؛ لأنَّه لولا الشمسُ ما عرَفْنا فائدةَ الظلِّ، ولولا الظلُّ ما عرَفْنا فائدةَ الشَّمسِ، فكُلٌّ منهما في الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٦، ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

قال الواحدي: (﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ﴾ الكنايةُ تعودُ إلى الظِّلِّ الذي سَبَق ذِكرُه، وهو: ظِلُّ الغَداةِ بإجماعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ٥٢٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾: الظِّلُّ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والماوَرْدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦١).

وقيل: المعنى: قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ. ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال البقاعي: (﴿إِلَيۡنَا﴾ أي: إلى الجهةِ التي نُريدُها، لا يقدِرُ أحَدٌ غيرُنا أن يحوِّلَه إلى جهةٍ غيرِها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٨). =

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: على مَهلٍ، قَبضًا خفيفًا، جُزءًا فجُزْءًا، وشيئًا بعْدَ شَيءٍ، لا دَفعةً واحدةً: السمرقنديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن جُزي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: (وقولُه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًّا؛ لأنَّ الظلَّ بعْدَ غروبِ الشَّمسِ لا يذهَبُ كُلُّه دَفعةً واحدةً، ولا يُقبِلُ الظلامُ كُلُّه جملةً، وإنما يَقبِضُ الله جلَّ وعزَّ ذلك الظِّلَّ قَبضًا خفيًّا شَيئًا بعدَ شَيءٍ، ويُعقِبُ كُلَّ جزءٍ منه يَقبِضُه بجزءٍ مِن سوادِ الليلِ حتى يذهبَ كُلُّه. فدلَّ الله عز وجلَّ بهذا الوصفِ على قدرتِه ولطفِه في معاقبتِه بيْن الشمسِ والظلِّ واللَّيلِ؛ لمصالحِ عِبادِه وبلادِه. وبعضُهم يجعَلُ قبْضَ الظِّلِّ عندَ نَسخِ الشَّمسِ إيَّاه، ويجعلُ قَولَه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا خفيفًا عليه. وهو وجهٌ، غيرَ أنَّ التفسيرَ الأوَّلَ أجمَعُ للمعاني، وأشبَهُ بما أراد). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾: أي: خفيًّا سريعًا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: ثمَّ قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبضًا خَفِيًّا سَريعًا بالفَيءِ الذي نأتي به بالعَشِيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤).

وقال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا: الظِّلُّ ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ أو ما بيْنَ وَقتِ الإسفارِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ، فإنَّه يُقبَضُ هذا الظِّلُّ شَيئًا فشَيئًا، لا يزالُ النُّورُ يَسطَعُ تدريجيًّا حتى تطلُعَ الشَّمسُ. هذه واحِدةٌ.

وإذا قُلْنا: المرادُ به اللَّيلُ، فهو أيضًا يُقبَضُ شَيئًا فشَيئًا، يعني: لا يكونُ اللَّيلُ في هذا اليومِ اثنَتَي عَشْرةَ ساعةً، ويكونُ تِسعَ ساعاتٍ في اليومِ الذي يليه، وإنَّما يُقبَضُ شيئًا فشيئًا.

كذلك إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالظِّلِّ ظِلُّ الشَّاخِصِ، فهو نفْسُ الشَّيءِ؛ إنَّما يتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا، وليس في الآيةِ إشكالٌ سِوى قَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ﴿إِلَيْنَا﴾ هذه الغايةُ فيها إشكالٌ؛ لأنَّه كان مِن المُمكِنِ أن يَقتَصِرَ على قَولِه: «ثمَّ قَبَضْناه قَبضًا يَسيرًا»، فما الحِكمةُ مِن هذه الغايةِ في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؟ =

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاءِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ اللَّيلِ والنَّهارِ: ظاهِرةٌ؛ فاللَّيلُ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّه ظُلمةٌ تَعقُبُ نورَ الشَّمسِ[1].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنتْ هذه الآيةُ اللَّيلَ والنهارَ؛ قال مُصَرِّحًا بهما دليلًا على الحَقِّ، وإظهارًا للنِّعمةِ على الخلْقِ[2]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

= بعضُهم يرى أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: الشَّمسَ، باعتِبارِها دَليلًا، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي: قَبَضْنا هذا الدَّليلَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

وعلى كلِّ حالٍ يُوجَدُ احتِمالُ أنَّه يَجعَلُ المرادُ بقولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: الدَّليلَ، أي: الشَّمسَ، ويكونُ المرادُ بالقَبضِ إليه ما أشار إليه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه في حديث أبي ذرٍّ: «فإنَّها تَذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ» [البخاري (٣١٩٩) ومسلم (٢٥٠)].

ويوجَدُ احتِمالٌ ثالِثٌ ذهب إليه الزمخشريُّ، وقال: إنَّ المرادَ بالقَبضِ هنا ما ذكَره اللهُ بقَوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وإنَّ المرادَ به قَبضُ هذه النَّيِّراتِ -الشَّمسِ وغَيرِها- يومَ القيامةِ، وجَعَل اليسيرَ ليس صفةً للقَبضِ، يعني: أنَّه يكونُ شَيئًا فشَيئًا، بل هو صِفةٌ للفِعلِ، يعني أنَّه يسيرٌ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، لكنِ الأخيرُ بَعيدٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إنما يمتَنُّ بذلك على أمرٍ يُدرِكُ النَّاسُ فائدتَه في الدُّنيا، وتمامَ قُدرةِ اللهِ تعالى فيه، فيكونُ على هذا إمَّا أن يُقالَ: إنَّ الغايةَ التي ذكرها اللهُ سبحانه وتعالى إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن تصرُّفِه وحْدَه، وأنَّ الأمرَ إليه وحْدَه لا إلى غَيرِه، فيكونُ دليلًا على عَظَمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، أو أنَّ المرادَ بالقَبضِ إليه أنَّ الشَّمسَ تُقبَضُ إلى اللهِ، بمعنى أنَّها تذهَبُ وتسجُدُ تحت العَرشِ، كما جاء به الحديثُ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٩).

أي: واللهُ هو الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ- غِطاءً وسِترًا يَستُركم ويُغشِّيكم بظَلامِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّومَ قاطِعًا لحركتِكم وأشغالِكم، فتستريحُ به أبدانُكم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٠).

قال ابنُ عثيمين: (وهل هو لباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لأنَّه يكسو الأرضَ، ويكسو الإنسانَ في الواقعِ، فهو كاسٍ للأرضِ، وكاسٍ أيضًا للإنسانِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (وأمَّا جَعلُه لهم النَّومَ سُباتًا، فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الرَّاحةُ مِن تَعَبِ العَمَلِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ يَقطَعُ العمَلَ النَّهاريَّ، فينقَطِعُ به التَّعبُ، وتحصُلُ الاستراحةُ كما هو معروفٌ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الراحةُ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدينِ المحليُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّهارَ حَياةً بعْدَ نَومِكم الذي يُشبِهُ الموتَ، ويَقَظةً تَنتَشِرون في ضيائِه لطَلَبِ الأرزاقِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

= وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: يَسبُتُ النائمُ حتَّى لا يَعقِلَ كأنَّه مَيتٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٤).

قال الزمخشريُّ: (والسُّباتُ: الموتُ. والمَسبوتُ: الميتُ؛ لأنَّه مقطوعُ الحياةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣).

وقال الشنقيطيُّ: (وإيضاحُ كلامِه: أنَّ النُّشورَ هو الحياةُ بعد الموتِ...، وعليه فقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: حياةً بعد الموتِ، وعليه فالموتُ هو المعبَّرُ عنه بالسُّباتِ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، وإطلاقُ الموتِ على النَّومِ معروفٌ في القرآنِ العظيمِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦١)

وقال ابن عاشور: (وفسَّر الزمخشريُّ السُّباتَ بالموتِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، ناظرًا في ذلك إلى مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: نومًا وسكونًا وراحةً، عبارة عن كونِه موتًا أصغرَ طاويًا لِما كان مِن الإحساسِ، قطعًا عمَّا كان مِن الشُّعورِ والتقلُّبِ، دليلًا لأهلِ البصائرِ على الموتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن ينامَ قال: باسمِك اللَّهمَّ أموتُ وأَحْيَا. وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعْدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دلَّ على عظَمتِه بتصَرُّفِه في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وخَتَمَه بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبَعَه التصرُّفَ في الأعيانِ بمِثلِ ذلك؛ دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ، وبدأه بما هو قريبٌ لِلَطافتِه مِن المعاني، فقال[٢]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿بُشْرًا﴾ أي: تُبَشِّرُ بالمطَرِ[٣].

٢- قراءةُ ﴿نَشْرًا﴾، قيل: المرادُ: يُرسِلُ الرِّياحَ حياةً، أي: تحيا بها البلادُ الميتةُ. وقيل: أي: تهبُّ مِن كُلِّ وجهٍ لجمعِ السَّحابِ الممطِرةِ. وقيل: النَّشْرُ مِن الرِّياحِ: الطيِّبةُ الليِّنةُ التي تُنشئُ السَّحابَ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠). =

٣- قراءةُ ﴿نُشْرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السَّحابَ وتَبسُطُها في السَّماءِ، وقيل: لَيِّنةً طيِّبةً. وقيل: متفَرِّقةً، وهي الرِّياحُ التي تهبُّ مِن كُلِّ ناحيةٍ[(١)].

٤- قراءةُ ﴿نُشُرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السحابَ، وتبسطُها في السماءِ. وقيل: متفرقةً[(٢)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ فتبَشِّرُ النَّاسَ بمَجيءِ السَّحابِ ونُزولِ المطَرِ قبْلَ أن يفجَأَهم بنُزولِه[(٣)].

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان السَّحابُ قريبًا مِن الرِّيحِ في اللَّطافةِ، والماءُ قريبًا منهما، ومُسَبَّبًا عمَّا تحمِلُه الريحُ مِن السَّحابِ؛ أتبَعَهما به، فقال[(٤)]:

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾.

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٧)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ، الطَّاهِرَ في نفْسِه، المطَهِّرَ لِغَيرِه[1].

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾.

أي: لِنُحييَ بالمطَرِ أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾.

أي: ونُسقِيَ بالمطَرِ كَثيرًا مِمَّا خلَقْنا مِن الأنعامِ والنَّاسِ، فيَشرَبون مِن ماءِ المطَرِ، ويَسقُونَ به زُروعَهم[3].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وعلَّله بحياةِ البَلدةِ المَيْتةِ، وسَقْيِ بعضِ الأنعامِ وبَعضِ الأَناسيِّ، عُرِف أنَّ ذلك كان بقَدْرِ الاحتِياجِ، ولا بدَّ مِن قادرٍ مُختارٍ عالِمٍ بجُزئيَّاتِ أحوالِ المَخلوقينَ، حتَّى يُحوِّلَ إلى كلٍّ مِن ذلك ما يَحتاجُ إليه(١)؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

أي: ولقد قسَّمْنا ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ؛ لأجْلِ أن يتذكَّروا ويعتَبِروا(٢).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢، ٦٣).

قال أبو حيان: (والضَّميرُ في ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ عائدٌ على الماءِ المنزَّلِ مِن السَّماءِ، أي: جعَلْنا إنزالَ الماءِ تَذكِرةً بأن يُصرِّفَه عن بعضِ المواضِعِ إلى بعضٍ، وهو في كلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدٍ، قاله الجمهورُ؛ منهم: ابنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، فعلى هذا التأويلِ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ هو قولُهم بالأنواءِ والكواكِبِ، قاله عِكرمةُ. وقيل: ﴿كُفُورًا﴾ على الإطلاقِ لَمَّا ترَكوا التذكُّرَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا: عائدٌ على القرآنِ وإن لم يتقدَّمْ له ذِكرٌ؛ لوضوحِ الأمرِ، ويعضِّدُه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾؛ لتوافُقِ الضَّمائرِ. وعلى أنَّه للمطَرِ يكونُ ﴿بِهِۦ﴾ للقرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعودُ على المطرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢).

ونسَب السمعانيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥). =

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: فلمْ يتذكَّرْ أكثَرُ النَّاسِ بتَصريفِ اللهِ للمطَرِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ باللهِ، وجُحودِ نِعَمِه، وإنكارِ قُدرتِه وحِكمتِه(١).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦٤).

قال الشنقيطيُّ: (المعنى: ولقد صرَّفْنا ماءَ المطرِ بيْن الناسِ؛ فأنزَلْنا مطرًا كثيرًا في بعضِ السِّنينَ على بعضِ البلادِ، ومنَعْنا المطرَ في بعضِ السِّنينَ عن بعضِ البلادِ، فيَكثُرُ الخِصبُ في بعضِها، والجدبُ في بعضِها الآخَرِ. وقولُه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: صرَّفْناه بيْنَهم لأجْلِ أن يَتذكَّروا، أي: يتذكَّرَ الذين أخصبَتْ أرضُهم لكثرةِ المطرِ نعمةَ الله عليهم، فيَشكُروا له، ويتذكَّرَ الذين أجدبت أرضُهم ما نزَل بهم مِن البلاءِ، فيُبادِروا بالتَّوبةِ إلى الله جلَّ وعلا؛ لِيَرحمَهم ويَسقيَهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ الله تعالى غيَّرَ هذا المطرَ بالنسبةِ للنَّاسِ، ووزَّعه بيْنهم ما بيْن مُقِلٍّ ومُستكثِرٍ؛ فمِنهم مَن يكثُرُ المطرُ عندَه، ومِنهم مَن يقِلُّ، هذا بالنِّسبةِ للبينيَّةِ، كذلك أيضًا صرَّفه الله سبحانه وتعالى بيْنهم بالنِّسبةِ لكلِّ أحدٍ؛ أحيانًا يكونُ المطرُ كثيرًا في عامٍ، وقليلًا في عامٍ... ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: نِعمةَ الله فيما إذا نزَلَ عليهم، و﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ يتَّعِظوا ويَذكُروا ما هم عليه مِن المعاصي والآثامِ فيما إذا لم ينزِلْ، وكذلك أيضًا ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بذلك قدرةَ الله، حيث صرَفَ في محلٍّ دونَ محلٍّ. فالمهمُّ أنَّ تصريفَ هذا المطرِ في محلٍّ دونَ محلٍّ، أو في سَنةٍ دون سَنةٍ هذا لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ لِتَذكُّرِ الإنسانِ؛ إما تذَكُّرِ النعمةِ إذا كان ناسيًا، وإما تذكُّر النِّقمةِ ومعاصيه إذا كان ممتنعًا، وإما تذكُّر القدرةِ حينما يَعرفُ أنَّه في مكانٍ يكونُ غَزيرًا، وفي مكانٍ يكونُ قليلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾: أي: القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٧).

وقيل: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ أي: هذا القولَ، وهو ذكرُ إنشاءِ السَّحابِ، وإنزالِ المطرِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثرِ السَّماءِ[1] كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبَلَ على النَّاسِ، فقال: هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ[2] كذا

= (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

قال النحاسُ: (لا يُعلَمُ بينَ أهلِ التَّفسيرِ اختِلافٌ أنَّ الكُفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، وأنَّ نظيرَه قَولُ المنجِّمِ: فعَلَ النَّجمُ كذا وكذا، وأنَّ كُلَّ مَن نَسَبَ إليها فعلًا، فهو كافرٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١١٤).

قال ابنُ عثيمينَ: (ومِن الكُفرِ بهذا المطَرِ... أن يجعَلَ ذلك سببًا للأشَرِ والبطَرِ، مِثلَما يحصُلُ مِن بعضِ الناسِ: إذا نزلَتِ الأمطارُ وكثُرت الأبيارُ صارت سببًا لأشَرِه وبطَرِه وفُسوقِه، فهذا من أسبابِه. ومِن أسبابِ الكُفرِ أيضًا: أنَّه إذا امتنَع المطَرُ صار امتناعُه سببًا لقُنوطِ الإنسان مِن رحمةِ الله سبحانَه وتعالى، والقُنوطُ مِن رحمةِ الله مِن كبائرِ الذنوبِ، وليس بالأمرِ الهَيِّنِ؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أن يَقنَطَ مِن رحمةِ الله، ولا أن يأمَنَ مَكرَ الله، لا هذا ولا هذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(١) إثرِ السَّماءِ أي: بعْدَ نُزولِ مطرٍ. والإثرُ: هو ما يعقُبُ الشيءَ، والسماءُ: المطرُ، وأُطلق عليه سماءً؛ لكونِه ينزلُ مِن جهةِ السماءِ، وكلُّ جهةِ علوٍّ تُسمَّى سماءً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٢٣).

(٢) مُطرنا بنَوءِ كذا: أي: بسُقوطِ نَجمٍ وطُلوعِ نظيرِه، (والأنواءُ): ظهورُ الكواكبِ، أو منازل القَمَرِ في السَّماءِ، وكانت العربُ تزعُمُ أنَّ بسقوطِ المنزلةِ وطلوعِ رقيبِها يكونُ مطرٌ، ويَنسبونه إليها، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. وإنَّما سُمِّيَ نَوءًا؛ لأنَّه إذا سقَطَ السَّاقِطُ منها بالمَغربِ ناء الطَّالع =



وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمِنٌ بالكوكَبِ))[(١)].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ تعالى ما كابَدَه الرَّسولُ مِن أذَى قَومِه؛ أعْلَمَه أنَّه تعالى لو أراد لَبعَثَ في كلِّ قريةٍ نذيرًا فيُخَفِّفُ عنك الأمرَ، ولكنَّه أعظَمَ أجرَك وأجَلَّك؛ إذْ جعَلَ إنذارَك عامًّا للنَّاسِ كلِّهم، وخَصَّك بذلك؛ لِيَكثُرَ ثوابُك؛ لأنَّه على كثرةِ المجاهَدةِ يكونُ الثَّوابُ، ولِيَجمعَ لك حَسَناتِ مَن آمَنَ بك؛ إذْ أنت مُؤَسِّسُها[(٢)].

وأيضًا فهذه الآيةُ متَّصِلةٌ بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ، فبعْدَ أن بيَّنَ إبطالَ طَعنِهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، انتقَل إلى تنظيرِ القُرآنِ بالكتابِ الذي أوتيَه موسى عليه السَّلامُ وكيف استأصل اللهُ مَن كذَّبوه، ثمَّ استطرَد بذِكرِ أُمَمٍ كذَّبوا رسُلَهم، ثم انتقَل إلى استهزاءِ المُشرِكين بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشار إلى تحرُّجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إعراضِ قَومِه عن دعوتِه، بقَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ

= بالمشرِقِ، أي: نهضَ وطلَعَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤١٥) (٧/ ٢٩٠٦).

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

وقال ابن باديس: (لمَّا تبيَّن مِن الآياتِ المتقدِّمةِ ما كان يُكابِدُه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذيَّةِ قَومِه، وما كان يَلْقاه مِن مُكابرتِهم للحقِّ، وتعنُّتِهم بالباطلِ، وما كان يُعانيه مِن الجَهدِ الجَهيدِ في إنذارِهم، وتبليغِ دِينِ اللهِ تعالى إليهم، وهو في ذلك كلِّه جاهِدٌ في القيام بتبليغِ الأمانةِ، ناهِضٌ بأعباءِ الرِّسالةِ، ماضٍ في تلك السبيلِ، وليس معه مِن نذيرٍ، وقد كان ذلك مما تَتفسَّخُ له القُوى البشريَّةُ لولا تأييدٌ مِن اللهِ- فأراد تعالى في هذه الآيةِ أن يُثبِّتَه في مقامِه، ويُؤنِسَه في انفرادِه، فيُبيِّنَ له أنَّ تخصيصَه بالقيامِ هذا المقامَ العظيمَ هو لأجْلِ تعظيمِه وتكريمِه، وتخصيصِه بالأجرِ الكثيرِ، والثوابِ الذي ليس له مِن مثيلٍ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وتسلْسَلَ الكلامُ بضَربِ المثَلِ بمَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه، وبحالِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وبإرسالِ الرِّياحِ، أمارةً على رحمةِ غَيثِه الذي تحيا به المَواتُ، حتى انتهى إلى قَولِه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١]، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا اشتِمالُ التَّفريعِ على ضميرِ القُرآنِ في قَولِه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾، وممَّا يَزيدُ هذه الآيةَ اتِّصالًا بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢]: أنَّ في بَعثِ نذيرٍ إلى كُلِّ قريةٍ ما هو أشَدُّ مِن تنزيلِ القرآنِ مجزَّأً، فلو بعَث اللهُ في كلِّ قَريةٍ نَذيرًا لقال الذين كفَروا: لولا أُرسِلَ رسولٌ واحِدٌ إلى الناسِ جميعًا؛ فإنَّ مَطاعِنَهم لا تقِفُ[1].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: ولو شِئْنا لجعَلْنا في كُلِّ مدينةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويَدْعوهم إليه، ولكِنَّنا خَصَصْناك -يا محمَّدُ- بالرِّسالةِ إلى جميعِ النَّاسِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ قَبلي:... وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[١].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما خَصَّصَه به مِن الكرامةِ؛ دعاه إلى مُقابَلةِ ذلك بعدَمِ طاعةِ أهلِ الكُفرِ، والثَّباتِ على جهادِهم بالقُرآنِ[٢].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطِعِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- فيما يَدْعونَك إليه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو في تَركِ شَيءٍ مِمَّا أُرسِلْتَ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا * فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤].

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

أي: وجاهِدِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ جِهادًا شَديدًا بكُلِّ طاقتِك بلا فُتورٍ؛ نُصرةً للحَقِّ، وقمعًا للباطِلِ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء =

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ٥٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَودٌ إلى الاستِدلالِ على تفرُّدِه تعالى بالخَلقِ[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي أرسَلَ البَحرينِ وخلَّاهما، لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ[٢].

= البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

قال الشنقيطيُّ: (اعلمْ أنَّ لفظةَ: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقينِ:

الأوَّل: مرَج بمعنى: أرسَلَ وخلَّى، ... وعلى هذا، فالمعنى: أرسَلَ البحرينِ وخلَّاهما، لا يختلِطُ أحَدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مختلِطٍ.

فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلحُ في جميعِها. وقولُه: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، يعني به: ماءَ الآبارِ والأنهارِ والعيونِ في أقطارِ الدُّنيا. وقولُه: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: البحرُ المِلحُ؛ كالبحرِ المُحيطِ وغيرِه مِنَ البحارِ الَّتي هي مِلحٌ أُجاجٌ، وعلى هذا التفسيرِ فلا إشكالَ.

وأمَّا على القولِ الثَّاني -بأنَّ مرَج بمعنى خلَط- فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنهما حاجزٌ مِن قُدرةِ الله تعالى، وهذا محقَّقُ الوُجودِ في بعضِ البلادِ... فسبحانَه جلَّ وعلا ما أعْظَمَه، وما أكمَلَ قُدرتَه!). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ المعنى الأوَّلَ، أي: أرسَلَهما وخلَّاهما مُتجاورينِ مُتلاصقينِ: =

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

أي: أحدُهما شَديدُ الحَلاوةِ، والآخَرُ شَديدُ الملوحةِ والمرارةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بقُدرتِه بيْنهما حاجِزًا، ومانِعًا حصينًا يمنَعُهما منعًا شديدًا مِن

= الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٢). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٢).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ -أنَّ مرَج بمعنى خلَط-: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٦).

قال ابن عطية: (والذي أقولُ به في الآيةِ: إنَّ المقصدَ بها التَّنبيهُ على قدرةِ الله تعالى، وإتقانِ خَلقِه للأشياءِ في أنْ بَثَّ في الأرضِ مِياهًا عَذبةً كثيرةً مِن أنهارٍ وعُيونٍ وآبارٍ، وجعَلَها خِلالَ الأُجاجِ وجعَل الأُجاجَ خِلالَها، فتَلْقَى البحرَ قد اكتنَفَتْهُ المياهُ العَذبةُ في ضَفَّتَيهِ، وتَلْقى الماءَ العَذبَ في الجزائرِ ونَحوِها قد اكتنَفَه الماءُ الأُجاجُ، فبَثُّها هكذا في الأرضِ هو خلطُها، وهو قولُه: ﴿مَرَجَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤).

وقال القرطبيُّ: (مرَج: خلَّى وخلَط وأرسَل). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣، ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

الامتِزاجِ والاختِلاطِ ببَعضِهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قُدرتَه في منْعِ الماءِ مِن الاختِلاطِ؛ أتبَعَه القُدرةَ على خَلطِه؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه مُمتَنِعٌ؛ تقريرًا للفِعلِ بالاختيارِ، وإبطالًا للقَولِ بالطَّبائعِ[2].

وأيضًا فمُناسَبةُ مَوقِعِ هذا الاستِدلالِ بعْدَ ما قبْلَه أنَّه استِدلالٌ بدَقيقِ آثارِ القُدرةِ في تكوينِ المياهِ وجعْلِها سببَ حياةٍ مُختلِفةِ الأشكالِ والأوضاعِ، ومِن أعظَمِها دقائقُ الماءِ الذي خُلِقَ منه أشرفُ الأنواعِ التي على الأرضِ، وهو نطفةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١، ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أي: بينَ العذْبِ والمالِحِ ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجِزًا، وهو اليَبَسُ مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: معنَى «حِجرًا مَحْجُورًا» ... أنَّها كلمةٌ يقولُها المُتَعَوِّذُ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِن البحرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِن صاحِبِه، ويقولُ له هذا القولَ. وقيلَ: حَدًّا محدودًا. وقيلَ: المرادُ مِن البحرِ العذْبِ: الأنهارُ العظامُ؛ كالنِّيلِ والفُراتِ وجَيْحونَ، ومِن البحرِ الأُجاجِ: البحارُ المشهورةُ، والبرزخُ بيْنَهما: الحائلُ مِن الأرضِ. وقيلَ: معنَى «حِجراً مَحْجُورًا» حرامًا مُحَرَّمًا أنْ يَعذُبَ هذا المالِحُ بالعذْبِ، أو يُمَلَّحَ هذا العذْبُ بالمالِحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

وتقدَّم ذِكرُ المعنى الثَّاني وهو اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العذبِ في مجرًى واحدٍ، دونَ امتزاجِ أحدِهما بالآخَرِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

الإنسانِ؛ بأنَّها سببُ تكوينِ النَّسلِ للبشَرِ؛ فإنَّه يكونُ أوَّلَ أمرِه ماءً، ثم يتخلَّقُ منه البَشرُ العظيمُ[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا ذكَرًا أو أُنثى[2].

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

أي: فجعَلَ اللهُ الإنسانَ ذا نَسَبٍ، وذا صِهرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالنَّسبِ سَبعةُ أصنافٍ مِن القرابةِ يجمعُها قولُه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، وأنَّ المرادَ بالصهرِ خمسٌ، يجمعُها قولُه تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣).

وقيل: المرادُ بالنَّسَبِ: الذي لا يحِلُّ نِكاحُه، والمرادُ بالصهرِ: الذي يحِلُّ نكاحُه؛ وممَّن ذهب إلى ذلك في الجملةِ: الفرَّاءُ -وقصَر الصِّهرَ على النَّسبِ الذي يحلُّ نكاحُه، كبناتِ العمِّ والخالِ وأشباهِهنَّ- والكرماني، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٧٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

وقيل: المعنى: فقسَّم البشَرَ قِسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكورًا يُنسَبُ إليهم، فيقال: فلانُ بنُ فلان، وفلانةُ بنتُ فلان. وذواتِ صِهرٍ، أي: إناثًا يُصاهَرُ بهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في =

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

أي: ولم يَزَلْ رَبُّك -يا محمَّدُ- مُتَّصِفًا بكَمالِ القُدرةِ، ومِن ذلك قُدرتُه البالِغةُ على خَلقِ ما يشاءُ[1].

= الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والقاسميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥).

وقيل: النَّسبُ أن يجتمِعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، والصِّهرُ هو الاختِلاطُ بالنكاحِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال القرطبي: (النَّسَبُ والصِّهرُ مَعنيانِ يعُمَّانِ كُلَّ قُربى تكونُ بينَ آدميِّين). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩).

وقال ابن عاشور: (﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: مصدران سمِّي بهما صِنفانِ مِن القرابة، على تقدير: ذا نسَبٍ وصِهرٍ، وشاع ذلك في الكلامِ. والنسَبُ: لا يخلو مِن أُبوَّةٍ وبُنوةٍ وأُخوَّةٍ لأولئك، وبُنُوَّةٍ لتلك الأُخوَّة. وأمَّا الصِّهرُ فهو: اسمٌ لِما بيْن المرءِ وبيْن قَرابةِ زوجِه وأقاربه مِن العَلاقةِ، ويُسمَّى أيضًا مُصاهرةً؛ لأنَّه يكونُ مِن جهتينِ، وهو آصرةٌ اعتباريَّةٌ تتقومُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهرُ الرجلِ قَرابةُ امرأتِه، وصِهرُ المرأةِ قَرابةُ زَوجِها؛ ولذلك يقال: صاهَرَ فُلانٌ فُلانًا: إذا تزوَّجَ مِن قرابتِه ولو قرابةً بعيدةً، كقرابة القبيلةِ. وهذا لا يخلو عنه البَشَرُ المتزوِّجُ وغيرُ المتزوِّجِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

وقال ابن عثيمين: (مِن كمالِ قُدرةِ الله سُبحانه وتعالى أنْ خلَقَ من الماءِ بَشَرًا، وقسَّمه إلى قسمينِ؛ هما: النَّسبُ، والصِّهرُ، أي الزوجيَّةُ، وهذه أسبابُ الصِّلةِ بين الناس؛ إمَّا صلةٌ بالوِلادة: النَّسَبُ، أو بالنِّكاحِ: وهو المصاهَرةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٤) بتصرف يسير.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: عظيمَ القُدرةِ، إذ أوجَد مِن هذا الماءِ خَلقًا عَظيمًا صاحِبَ عَقلٍ وتَفكيرٍ، فاختَصَّ باتِّصالِ أواصِرِ النَّسَبِ وأواصِر الصِّهرِ، وكان ذلك أصلَ نظامِ الاجتِماعِ البشريِّ لتكوينِ القبائلِ والشعوبِ وتعاوُنِهم ممَّا جاء بهذه الحضارةِ المرتقيةِ مع =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا يَجعَلَ النِّعَمَ أُمورًا عاديَّةً لا بُدَّ منها، بل يُقَدِّرُها بضِدِّها، فمَثَلًا: طُلوعُ الشَّمسِ على هذه الأرضِ وغُروبُها أمرٌ مُعتادٌ، ومن أجْلِ كَونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الإنسانُ بأنَّه نِعْمةٌ، لكِنْ قَدِّرْ هذا الشَّيءَ بضِدِّه ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، كذلك فإنَّ خُروجَ النَّفَسِ مِن جِسمِ الإنسانِ أمرٌ مُعتادٌ؛ ولهذا لا يُحِسُّ الإنسانُ بقَدْرِ هذه النِّعْمةِ، لكِنْ قَدِّرْ أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ لحَبَسَه، وحينَئِذٍ يتبَيَّنُ قَدْرُ النِّعْمةِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ هذه الآيةُ نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجهادَ في الدعوةِ إلى اللهِ وإحقاقِ الحقِّ: هو مِن الدِّينِ، وأنَّ إبطالَ الباطلِ مِن شُبَهِ المشبِّهين، وضلالاتِ الضالِّين، وإنكارِ الجاحِدين: هو بالقرآنِ العظيمِ؛ ففيه بيانُ العقائدِ وأدلَّتِها، ورَدُّ الشُّبَهِ عنها، وفيه بيانُ الأخلاقِ محاسِنِها ومساويها، وطُرُقِ الوصولِ إلى التحلِّي بالأولى، والتخلِّي عن الثانيةِ ومعالجتِها، وفيه أصولُ الأحكامِ وعِلَلُها، وهكذا فيه كلُّ ما يَحتاجُ إليه المجاهِدُ به في دينِ اللهِ، فيُستفادُ منها -كما يُستفادُ مِن آياتٍ أخرى غيرِها- أنَّ على الدعاةِ والمرشِدين أنْ تكونَ دعوتُهم وإرشادُهم بالقرآنِ العظيمِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ عندَما يختلفُ عليك الدعاةُ الذين يَدَّعي كلٌّ منهم أنَّه يَدعوك إلى اللهِ تعالى، فانظُرْ مَن يَدعوك بالقرآنِ إلى القرآنِ -ومثلُه ما صَحَّ مِن السُّنَّةِ؛ لأنَّها تفسيرُه وبيانُه- فاتَّبِعْه؛ لأنه هو المُتَّبِعُ

= العصورِ والأقطارِ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوتِه وجهادِه بالقرآنِ، والمُتمثِّلُ لِمَا دلَّتْ عليه أمثالُ هذه الآيةِ الكريمةِ مِن آياتِ القرآنِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ في مَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه نِعمةُ مَعرفةِ أوقاتِ النَّهارِ للصَّلواتِ وأعمالِ النَّاسِ، ونِعمةُ التناوُبِ في انتِفاعِ الجماعاتِ والأقطارِ بفوائِدِ شُعاعِ الشَّمسِ وفوائِدِ الفَيءِ، ووراءَ ذلك عِبرةٌ عِلميَّةٌ كُبرى توضِّحُها قواعِدُ النِّظامِ الشَّمسيِّ، وحَركةُ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، وظهورُ الظُّلمةِ والضِّياءِ، ونشَأ عن تداوُلِ الظُّلمةِ والنُّورِ نِظامُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعن ذلك نظامُ الفُصولِ، وخطوطُ الطولِ والعَرضِ للكُرةِ الأرضيَّةِ، وبها عُرِفت مناطِقُ الحرارةِ والبرودةِ.

ومِن وراءِ ذلك إشارةٌ إلى أصلِ المخلوقاتِ كيف طَرأ عليها الإيجادُ بعْدَ أنْ كانت عَدَمًا، وكيف يَمتدُّ وُجودُها في طَورِ نَمائِها، ثمَّ كيف تعودُ إلى العدَمِ تدريجًا في طَورِ انحطاطِها إلى أنْ تصيرَ إلى العدمِ؟ فذلك ممَّا يشيرُ إليه ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، فيكونُ قد حصَلَ مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ في هذه الآيةِ -مع المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القدرةِ- تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النَّاسِ، وأحوالِ الشَّبابِ، وتقَدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلك صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيه ولا بُعْدَ -كما يزعمون-، فلمَّا صار قَبضُ الظِّلِّ مثلًا لمصيرِ النَّاسِ إلى اللهِ بالبَعثِ، وصَفَ القَبضَ بـ﴿يَسِيرًا﴾؛ تلميحًا إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

إلى أنَّ الحياةَ في الدُّنيا كظلٍّ يَمتدُّ ويَنقَبضُ، وما هو إلَّا ظِلٌّ، فهذان المحمَلانِ في الآيةِ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فيه الاستِدلالُ بالشَّيءِ على ضِدِّه (وبضِدِّه يُعرَفُ الضِّدُّ)، ويقولُ بعضُهم: (وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ)[2]، والمرادُ بالاستِدلالِ بالشَّيءِ على ضِدِّه: النِّعَمُ؛ ففيه مَعرِفةُ قدْرِ النِّعَمِ بمَعرفةِ ضِدِّها، وأنَّ الإنسانَ يستَدِلُّ على مِقدارِ هذه النِّعمةِ بضِدِّها[3].

٣- جمعَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ استِدلالًا وامتِنانًا؛ فهي دَليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ، وهي أيضًا تذكيرٌ بنِعَمِه؛ فإنَّ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٍ جَمَّةً لِما يدُلُّ عليه حُصولُ الظُّلمةِ مِن دِقَّةِ نظامِ دَورانِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، ومِن دِقَّةِ نِظامِ خَلقِ الشَّمسِ، ولِما يتوقَّفُ عليه وُجودُ النَّهارِ مِن تغيُّرِ دورانِ الأرضِ، ومِن فوائِدِ نورِ الشَّمسِ، ثمَّ ما في خلالِ ذلك مِن نظامِ النَّومِ المناسِبِ للظُّلمةِ حين ترتخي أعصابُ النَّاسِ فيَحصُلُ لهم بالنَّومِ تجَدُّدُ نشاطِهم، ومِن الاستعانةِ على التستُّرِ بظُلمةِ اللَّيلِ، ومِن نِظامِ النَّهارِ مِن تجَدُّدِ النَّشاطِ وانبعاثِ النَّاسِ للعَمَلِ وسآمتِهم مِنَ الدَّعةِ، مع ما هو ملائِمٌ لذلك مِن النُّورِ الذي به إبصارُ ما يَقصِدُه العامِلون[4].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٢) هذا عجُزُ بيتٍ للمتنبي، وهو:

وَنَذِيمُهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَه ... وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ

يُنظر: ((شرح ديوان المتنبي)) للعكبري (١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

نُشُورًا ﴾، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، فانظُرْ إلى هاتين الآيتينِ وما تضَمَّنَتاه مِن العِبرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللهِ وحِكمتِه؛ كيف جعل اللَّيلَ سَكنًا ولِباسًا يغشى العالَمَ فتَسكُنُ فيه الحَرَكاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتِها، والطيرُ إلى أوكارِها، وتستجِمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ مِن كَدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ؟! حتى إذا أخَذَت منه النُّفوسُ راحتَها وسُباتَها، وتطَلَّعَت إلى معايشِها وتصَرُّفِها، جاء فالِقُ الإصباحِ سُبحانَه وتعالى بالنَّهارِ يَقدُمُ جَيشَه بشيرُ الصَّباحِ، فهزَم تلك الظُّلمةَ، ومَزَّقَها كُلَّ مُمَزَّقٍ، وكشَفَها عن العالَمِ، فإذا هم مُبصِرون، فانتشر الحيوانُ، وتصَرَّف في معاشِه ومصالحِه، وخرجت الطيورُ مِن أوكارِها، فيا له مِن مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرةِ الله سُبحانَه على المعادِ الأكبرِ! وتكَرُّرُه ودوامُ مُشاهَدةِ النُّفوسِ له بحيثُ صار عادةً ومألَفًا منَعَها مِن الاعتِبارِ به والاستِدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيةِ وإحياءِ الخَلقِ بعْدَ موتِهم، ولا ضَعْفَ في قدرةِ القادِرِ التَّامِّ القُدرةِ، ولا قُصورَ في حكمتِه ولا في عِلمِه يوجِبُ تخلُّفَ ذلك، ولكِنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، وهذا أيضًا مِن آياتِه الباهرةِ: أن يُعميَ عن هذه الآياتِ الواضحةِ البَيِّنةِ مَن شاء مِن خَلقِه، فلا يهتديَ بها ولا يُبصِرَها، وبهذا وأمثالِه يُعرَفُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، ويُشكَرُ ويُحمَدُ، ويُتضَرَّعُ إليه ويُسألُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّومَ واليقظةَ أُنموذجانِ للمَوتِ والنُّشورِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ قُدرةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في إرسالِ الرِّياحِ؛ لأنَّ هذه الرِّياحَ لو اجتمَعَ الخلْقُ كلُّهم على أنْ يأتوا بواحدةٍ منها، ما استطاعوا إلى ذلك سَبيلًا، مع أنَّ هذه الرِّياحَ في بعضِ الأحيانِ تقتَلِعُ الأشجارَ، وتُدمِّرُ المنازِلَ، هذه القوَّةُ العظيمةُ لو أتيتَ بمولِّداتِ الدُّنيا كلِّها لِتَخلُقَ مِثلَ هذا الهواءَ، ما حَصَلَ هذا[1].

٧- إرسالُ المُبَشِّراتِ والمُقَدِّماتِ بيْن يدَيِ الأشياءِ لقوَّةِ الرَّجاءِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾[2].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ هو أصلٌ في الطَّهارةِ بالماءِ[3]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الماءَ يُطَهِّرُ مِن الحَدَثِ والنَّجاسةِ[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أنَّ الأصلَ في الماءِ الطَّهارةُ، ونحن نَعرفُ أنَّ الماءَ الموجودَ في الأرضِ كلُّه مِن السماءِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فإذا كان مِن السَّماءِ فإنَّ الأصلَ فيما نَبَعَ مِن الأرضِ، أو فيما نَزَلَ مِن السَّماءِ أنْ يكونَ طَهورًا[5]، فكلُّ ماءٍ نزَلَ مِن السَّماءِ فهو طَهورٌ[6].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكَونِ المطرِ يَنزِلُ مِن السَّماءِ، لو كان هذا المطرُ -الذي تحيا به الأرضُ- يأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٦٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).
(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٠٦).

جريًا على سَطحِ الأرضِ ما كان فيه هذا النَّفعُ؛ لأنَّه لا يَصِلُ إلى قِمَمِ الجبالِ إلَّا بعدَ أنْ يُغرِقَ ما تحتَها، لكنَّه إذا نَزَلَ مِن فوقٍ أتَى على قِمَمِ الجبالِ، وأتَى على ما هو أسفَلَ منها، وهذا مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك[1].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لِماءِ المطرِ خاصيَّةُ الإحياءِ لكُلِّ أرضٍ؛ لأنَّه لخُلوِّه مِن الجراثيمِ ومِن بعضِ الأجزاءِ المعدِنيَّةِ والترابيَّةِ التي تشتَمِلُ عليها مياهُ العُيونِ ومياهُ الأنهارِ والأوديةِ، كان صالحًا بكُلِّ أرضٍ وبكلِّ نباتٍ على اختِلافِ طِباعِ الأرَضينَ والمنابِتِ[2].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ إخبارٌ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ حياةَ بعضِ مخلوقاتِه ببَعضٍ[3].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ إيماءٌ إلى تقريبِ إمكانِ البَعثِ[4].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ[5].

١٥- نستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إثباتَ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾، وهذه «اللامُ» هي لامُ التَّعليلِ، وهذا دليلٌ مِن مئاتِ الأدلَّةِ على إثباتِ الحِكمةِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ المبتدِعةِ وهم الجهميَّةُ؛ لأنَّهم يَرَون أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

فِعْلَ اللهِ لمجرَّدِ المشيئةِ ليس لعلَّةٍ، فإنَّه لا يُرَجِّحُ شيئًا على شَيءٍ لحِكمةٍ، إنَّما لمجرَّدِ المشيئةِ، ولا يَفعَلُ شيئًا إلَّا لمجرَّدِ المشيئةِ[(١)]!!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ جوازُ ذِكْرِ بَعضِ الفوائِد، وأنَّ الاقتِصارَ على البَعضِ لا يُعَدُّ نقصًا، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى مِن فوائِدِ المطرِ فائدتينِ فقط: إحياءَ الأرضِ، وسَقْيَ الأنعامِ والأناسيِّ، مع أنَّ للمَطرِ فوائدَ أُخرى؛ كالتطهُّرِ به مثلًا، فالتطهُّرُ به ليس سَقيًا، وليس إحياءً للأرضِ، وغير ذلك أيضًا مِن الفوائِدِ، لكنَّه لَمَّا كان أشَدُّ ما يكونُ ضرورةً للمَطرِ هو إحياءَ الأرضِ بالنباتِ؛ ليأكُلَ الناسُ والأنعامُ، وكذلك السَّقيُ؛ فالطعامُ والشرابُ ضرورةٌ مِن ضرورياتِ الحياةِ بالنِّسبةِ للأنعامِ وبالنِّسبةِ للناسِ، فاقتصَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ على ذِكرِ هاتينِ الفائدتينِ فقط؛ لأنَّهما هما الفائدتان الضروريَّتانِ الحاصِلتان بنزولِ المطرِ[(٢)].

١٧- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾ يؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ الماءَ المنزَّلَ مِن السَّماءِ لا يختلفُ مِقدارُه، وإنما تختلفُ مقاديرُ توزيعِه على مواقعِ القَطرِ؛ فعن ابنِ عباس: (ما عامٌ أقَلَّ مطرًا مِن عامٍ، ولكنَّ اللهَ قَسَمَ ذلك بيْن عِبادِه على ما شاء. وتلا هذه الآيةَ)[(٣)]، فحصَلَ مِن هذا أنَّ المقدارَ الذي تفضَّل اللهُ به مِن المطَرِ على هذه الأرضِ لا تختَلِفُ كَمِّيَّتُه، وإنَّما يختَلِفُ توزيعُه. وهذه حقيقةٌ قَرَّرها عُلَماءُ حوادثِ الجوِّ في القرن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٤٦٨)، والحاكم (٣٥٢٠)، والبيهقي (٦٧١٧) واللفظ له. صحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه الألباني على شرط الشيخين في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٤٦١).

الحاضِرِ، فهو من معجزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[١].

١٨- ثبوتُ الحكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾، فـ «اللامُ» للتَّعليلِ[٢].

١٩- إبطالُ مذهَبِ الجبريَّةِ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، فجعَلَ هذا باختيارِهم؛ أَبوا إلَّا أن يكفُروا بذلك[٣].

٢٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يدخُلُ فيه مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، ومَن قال: مُطِرْنا بالبُخارِ، يعني: أنَّ البحرَ يتصاعَدُ منه بُخارُ الماءِ ثمَّ يتجَمَّعُ، ثمَّ يَنزِلُ على الأرضِ بمُقتضى الطَّبيعةِ لا بفِعلِ فاعلٍ، وأنَّ المطَرَ منه[٤]!

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أنَّ مِن إكرامِ اللهِ تعالى عبدَه تحميلَه أعباءَ الرِّسالةِ وحْدَه[٥].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ المرادُ مِن ذلك تعظيمُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وذلك لوُجوهٍ:

أحدُها: كأنَّه تعالى بيَّن له أنَّه مع القُدرةِ على بَعثةِ رَسولٍ ونَذيرٍ في كُلِّ قَريةٍ، خَصَّه بالرِّسالةِ وفضَّلَه بها على الكُلِّ؛ ولذلك أتبَعَه بقَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تُوافِقْهم.

وثانيها: المرادُ: ولو شِئْنا لخفَّفْنا عنك أعباءَ الرِّسالةِ إلى كُلِّ العالَمينَ، ولَبَعَثْنا في كُلِّ قَريةٍ نَذيرًا، ولكِنَّا قصَرْنا الأمرَ عليك، وأجلَلْناك وفضَّلْناك على سائرِ الرُّسُلِ، فقابِلْ هذا الإجلالَ بالقوَّةِ في الدِّينِ.

وثالثها: أنَّ الآيةَ تقتضي مَزْجَ اللُّطفِ بالعُنفِ؛ لأنَّها تدُلُّ على القُدرةِ على أن يَبعَثَ في كُلِّ قريةٍ نَذيرًا مِثلَ محمَّدٍ، وقولُه: ﴿وَلَوْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه لا يفعَلُ ذلك، فبالنَّظَرِ إلى الأوَّلِ يحصُلُ التأديبُ، وبالنظَرِ إلى الثاني يحصُلُ الإعزازُ[١].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كما لا تجوزُ طاعةُ الكافرين في شيءٍ ممَّا يُمليه عليهم كُفرُهم؛ كذلك لا تجوزُ طاعةُ العصاةِ في شيءٍ ممَّا تُمليه عليهم معصيتُهم؛ لأنَّ الجميعَ فيه مخالفةٌ لدينِ اللهِ، وكما يُجاهَدُ أهلُ الكُفرِ بالقرآنِ العظيمِ الجهادَ الكبيرَ، كذلك يُجاهَدُ به أهلُ المعصيةِ؛ لأنَّه كتابُ الهدايةِ لكلِّ ضالٍّ، والدَّعوةِ لكل مُرشدٍ، وفي ذِكرِ الكافرين تنبيهٌ على العصاةِ مِن بابِ التَّنبيهِ بالأعلى على الأدنى؛ لاشتِراكِهم في العلَّةِ، وهي المخالَفةُ[٢].

٢٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ النهيَ عن الشَّيءِ لا يقتضي كونَ المنهيِّ عنه مُشتغِلًا به[٣].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أنَّه قد سمَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

تعالى الجهادَ بالقرآنِ جهادًا كبيرًا، وفي هذا مَنقبةٌ كبرى للقائمِين بالدَّعوةِ إلى اللهِ بالقُرآنِ العظيمِ، وفي ذلك نِعمةٌ عظيمةٌ مِن اللهِ عليهم حيثُ يَسَّرَهم لهذا الجهادِ، حتى لَيَصِحُّ أن يُسَمَّوا بهذا الاسمِ الشَّريفِ «مجاهدون»؛ فحُقَّ عليهم أنْ يُقَدِّروا هذه النِّعمةَ، ويُؤَدُّوا شُكرَها بالقَولِ والعَمَلِ والإخلاصِ، والصَّبرِ والثَّباتِ واليقينِ[(١)].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الله سُبحانَه جعل الماءَ سَبَبَ الاجتِماعِ والتآلُفِ[(٢)].

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى المحرَّماتِ بالسَّبَبِ والنَّسَبِ، وأنَّ كُلَّ ذلك تولَّد مِن الماءِ[(٣)].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيانُ خطأِ مَن يُسمِّي أقاربَ الزَّوجِ أو الزَّوجةِ «أنسابي» لأنَّه تزوَّجَ منهم، وهذا خطأٌ على اللُّغةِ؛ فإنَّ الأنسابَ هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، والأرحامَ كذلك هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، وأمَّا أقاربُ الزَّوجينِ فإنهم يُسمَّون أصهارًا لا أنسابًا؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى الصِّلةَ بيْن البشَرِ بهذينِ الأمْرينِ: النَّسبِ، والصِّهرِ، وهما قَسيمانِ، أي: أنَّ بعضَهما قسيمٌ للآخَرِ، ومُباينٌ له[(٤)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٥١٦).

﴿ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، فيه انتِقالٌ مِن إثباتِ صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتِ أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ أنزَلَه على رَسولِه، وصِفاتِ الرُّسلِ وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ الوَعيدِ، وهو مِن هذا الاعتبارِ متَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ. وفيه انتِقالٌ إلى الاستِدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ، وهو مِن هذه الجهةِ متَّصِلٌ بقولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [الفرقان: ٣] الآيةَ[١].

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ ...﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[٢].

- وأصْلُ النَّظمِ: (ألَمْ تَنظُرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟)، فغُيِّرَ النَّظمُ فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ إشعارًا بأنَّه المعقولُ مِن هذا الكلامِ؛ لوُضوحِ بُرهانِه، وهو دَلالةُ حُدوثِه وتَصرُّفِه على الوجهِ النَّافعِ بأسبابٍ مُمكِنةٍ، على أنَّ ذلك فِعلُ الخالِقِ الحَكيمِ كالمُشاهَدِ المَرْئيِّ، فكيف بالمَحسوسِ منه؟! ولو قيل: (ألَمْ تَرَ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه؟) كان الانتِقالُ مِنَ الأثرِ إلى المؤثِّرِ، والَّذي عليه التِّلاوةُ عكْسُه، والمَقامُ يَقتَضِيه؛ لأنَّ الكلامَ في تَقريعِ القَومِ، وتَجهيلِهم في اتِّخاذِهمُ الهوَى إلهًا مع وُضوحِ هذه الدَّلائلِ؛ ولذلك جَعَل ما يدُلُّ على ذاتِه مُقدَّمًا على أفعالِه في سائِرِ آياتِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ [الفرقان: ٤٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا﴾ [الفرقان: ٥١][٣]. وأيضًا لعلَّ تَوجيهَ الرُّؤيةِ إليه سبحانه وتعالى مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨، ٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

أنَّ المرادَ تَقريرُ رؤْيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لكيفيَّةِ مَدِّ الظِّلِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نظَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ مَقصورٍ على ما يُطالِعُه مِنَ الآثارِ والصَّنائعِ، بل مَطمَحُ أنظارِه مَعرِفةُ شُؤونِ الصَّانعِ المَجيدِ(١).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وللإيذانِ بأنَّ ما يَعقُبُه مِن آثارِ رُبوبيَّتِه ورحمتِه تعالى(٢).

- وقُوبِلَ قَولُه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿سَاكِنًا﴾، ومقابِلُ السُّكونِ الحرَكةُ؛ فيكونُ إطلاقُ مَدِّ ظِلٍّ وبَسْطِه على الحركةِ مِن بابِ تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُلابِسِه أو سببِه. وعَدَل عن (متحرِّكًا) إلى (مَدَّ)، وهو أَظهَرُ مِن (مَدَّ) في تَناوُلِه الانبِساطَ والامتِدادَ؛ ليُدمِجَ فيه معنَى الانتِفاعِ المقصودِ بالذَّاتِ، وهو معرفةُ أوقاتِ الصَّلَواتِ؛ فإنَّ اعتِبارَ الظِّلِّ فيها بالامتِدادِ دُونَ الانبِساطِ، وتَمَّمَ معنَى الإدماجِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾، أيْ: بالتَّدريجِ والمَهَلِ لمعرفةِ السَّاعاتِ والأوقاتِ، وفيه لَمحةٌ مِن معنَى قَولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٨](٣)؛ فلَمَّا كان مَدُّ الظِّلِّ يُشبِهُ صورةَ التَّحرُّكِ أَطلَقَ على انتِفاءِ الامتِدادِ اسمَ السُّكونِ بأنْ يُلازِمَ مِقْدارًا واحدًا لا يَنقُصُ ولا يَزيدُ. ودلَّتْ مُقابَلةُ قَولِه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ على حالةٍ مَطْويَّةٍ مِنَ الكلامِ؛ وهي حالةُ عُمومِ الظِّلِّ جميعَ وجْهِ الأرضِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

- وجُملةُ ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ جملةٌ معترِضةٌ للتَّذكيرِ بأنَّ في الظِّلِّ مِنَّةً[1]، وأيضًا قدِ اعترَضتْ بيْن المَعطوفَينِ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه لا مَدخَلَ فيما ذُكِر مِنَ المَدِّ للأسبابِ العاديَّةِ، وإنَّما المؤثِّرُ فيه المَشيئةُ والقُدرةُ. ومَفعولُ المشيئةِ مَحذوفٌ، أي: ولو شاء سُكونَه لجَعَله ساكنًا، أي: ثابتًا على حالِه مِنَ الطُّولِ والامتِدادِ، وإنَّما عُبِّر عن ذلك بالسُّكونِ؛ لِما أنَّ مُقابِلَه الَّذي هو تَغيُّرُ حالِه حسَبَ تَغيُّرِ الأوضاعِ بيْن الظلِّ وبيْن الشَّمسِ يُرَى رأيَ العَينِ حرَكةً وانتِقالًا، وحاصِلُه: أنَّه لا يَعترِيهِ اختِلافُ حالٍ بألَّا تَنسَخَه الشَّمسُ[2].

- وجُعِل امتِدادُ الظِّلِّ لاختِلافِ مَقاديرِه كامتِدادِ الطَّريقِ، وعلاماتُ مقاديرِه مثلَ صُوَى الطَّريقِ (أي: الأعلامِ المنصوبةِ التي يُستدلُّ بها عليه)، وجُعِلَتِ الشَّمسُ -مِن حيثُ كانتْ- سببًا في ظهورِ مَقاديرِ الظِّلِّ كالهادي إلى مَراحِلَ، بطريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ؛ فكما أنَّ الهادي يُخبِرُ السَّائرَ أين يَنزِلُ مِنَ الطَّريقِ، كذلك الشَّمسُ بتَسبُّبِها في مَقاديرِ امتِدادِ الظِّلِّ تُعرِّفُ المُستدِلَّ بالظِّلِّ بأوقاتِ أعمالِه ليَشرَعَ فيها. وتَعديةُ ﴿دَلِيلٗا﴾ بحرف (على) تُفيدُ أنَّ دَلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ هنا دَلالةُ تَنبيهٍ على شَيءٍ قد يَخفَى[3].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَا في الجَعْلِ المَذكورِ العاري عنِ التَّأثيرِ مع ما يُشاهَدُ بيْنَ الشَّمسِ والظِّلِّ مِنَ الدَّورانِ المُطَّرِدِ المُنبِئِ عنِ السَّببيَّةِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

الحكمةِ، وهو السِّرُّ في إيرادِ كلمةِ التَّراخي[١]. وقيل: الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾؛ لأنَّ ضميرَ المتكلِّم أَدخَلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ، فهو مُشعِرٌ بأنَّ هذا الجَعْلَ نِعمةٌ، وهي نعمةُ النُّورِ الَّذي به تَمييزُ أحوالِ المَرئيَّاتِ؛ وعليه فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ارتِقاءٌ في المِنَّةِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، وأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مَدلولَ المَعطوفِ بها مُتَراخٍ في الرُّتبةِ عن مَدلولِ المعطوفِ عليه، شأنُ (ثُمَّ) إذا عَطَفَتِ الجملةَ. ومعنَى تَراخي الرُّتبةِ أنَّها أبعَدُ اعتِبارًا، أي: أنَّها أرفَعُ في التَّأثيرِ أو في الوُجودِ؛ فإنَّ وُجودَ الشَّمسِ هو عِلَّةُ وُجودِ الظِّلِّ للأجسامِ الَّتي على الأرضِ، والسَّببُ أرفَعُ رُتبةً مِنَ المُسبَّبِ، أي: أنَّ اللهَ مَدَّ الظِّلَّ بأنْ جَعَلَ الشَّمسَ دليلًا على مَقاديرِ امتِدادِه[٣].

- وموقعُ (ثُمَّ) في هذَينِ المَوضعَينِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ لبيانِ تَفاضُلِ الأمورِ الثَّلاثةِ (مَد الظِّل، وسُكونه، وقَبْضه): كأن الثَّاني أَعظَمُ مِنَ الأوَّلِ، والثَّالثَ أَعظَمُ منهما -لأنَّ في إزالةِ الظِّلِّ بالشَّمسِ دَليلًا على جُودِه؛ فلولا الشَّمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ-؛ تشبيهًا لتَباعُدِ ما بيْنَهما في الفضلِ بتَباعُدِ ما بيْنَ الحَوادثِ في الوقتِ، أو لتَفاضُلِ مَبادئِ أوقاتِ ظُهورِها. أو أنَّ «ثمَّ» تُفيدُ التَّراخيَ في الزَّمانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٣).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ؛ لِما أنَّ في بيانِ كَونِ القبضِ والمدِّ مُرتَّبَينِ دائِرَينِ على قُطبِ مَصالِحِ المَخلوقاتِ مَزيدَ دَلالةٍ على الحكمةِ الرَّبَّانيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، أي: أزَلْناه بعْدَ ما أَنشَأْناهُ مُمتدًّا، ومَحَوْناه بمَحْضِ قُدرتِنا ومَشيئتِنا عِندَ إيقاعِ شُعاعِ الشَّمسِ مَوقعَه، مِن غيرِ أن يكونَ له تأثيرٌ في ذلك أصلًا، وإنَّما عَبَّر عنه بالقَبضِ المُنبئِ عن جمْعِ المُنبسِطِ وطَيِّه؛ لِمَا أنَّه قد عَبَّر عن إحداثِه بالمَدِّ الَّذي هو البَسْطُ طُولًا[1].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا ...﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أو على جُملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأنَّ قَبضَ الظِّلِّ مِن آثارِ جعْلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ. و(ثمَّ) الثَّانيةُ مِثلُ الأُولى مُفيدةٌ التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ مَضمونَ جملةِ ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أهَمُّ في الاعتِبار بمَضمونِها مِن مَضمونِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ إذْ في قَبضِ الظِّلِّ دَلالةٌ مِن دَلالةِ الشَّمسِ هي عكْسُ دَلالتِها على امتِدادِه؛ فكانت أَعجَبَ؛ إذْ هي عمَلٌ ضِدٌّ للعملِ الأوَّلِ، وصُدورُ الضِّدَّينِ مِنَ السَّببِ الواحدِ أَعجَبُ مِن صُدورِ أحدِهما السَّابقِ في الذِّكرِ[2].

- قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتَّنصيصِ على كَونِ مَرجعِه إليه تعالى، كما أنَّ حُدوثَه منه عزَّ وجلَّ[3].

- قولُه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أفادَ قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ وصِيغةُ الجَمعِ: القَبضَ التَّامَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾(١) [فاطر: ٢].

- ومَوقعُ وصْفِ القَبضِ بـ (يَسيرٍ) هنا أنَّه أُريدَ أنَّ هذا القَبضَ يَحصُلُ ببُطْءٍ دُونَ طَفْرةٍ؛ فإنَّ في التَّريُّثِ تَسهيلًا لقَبضِه؛ لأنَّ العملَ المُجزَّأَ أيسَرُ على النُّفوسِ مِنَ المُجتمِعِ غالبًا، فأُطلِقَ اليُسرُ، وأُريدَ به لازِمُ معناهُ عُرْفًا، وهو التَّدريجُ ببُطْءٍ، على طريقةِ الكِنايةِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ بيانٌ لبعضِ بَدائعِ آثارِ قُدرتِه تعالى وحِكمتِه ورَوائعِ أحكامِ رحمتِه ونِعَمِه الفائِضةِ على الخَلْقِ. وتَلوينُ الخِطابِ لتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حقَّه، واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وتَقديمُها على مَفعولَيْه؛ للاعتِناءِ ببَيانِ كَونِ ما يَعْقُبُه مِن مَنافِعِهم، وفي تَعقيبِ بَيانِ أحوالِ الظِّلِّ ببَيانِ أحكامِ اللَّيلِ -الَّذي هو ظِلُّ الأرضِ- مِن لُطْفِ المَسلَكِ ما لا مَزيدَ عليه(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ التِفاتٌ؛ حيث رَجَع أسلوبُ الكلامِ مِنَ المُتكلِّمِ إلى الغَيبةِ(٤).

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ قَصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشْركُه غَيرُه في جَعْلِ اللَّيلِ والنَّهارِ، أمَّا كَونُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).



الجَعلِ المذكورِ بخَلْقِ اللهِ فهُم يُقِرُّون به، ولكنَّهم لَمَّا جَعلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الأزمانِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختَلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ[١].

- قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾ شُبِّه ما يَستُرُ مِن ظَلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السَّاترِ، على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا ﴾ قيل: عبَّر عنِ النَّومِ بالسُّباتِ الَّذي هو الموتُ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ لِما بيْنهما مِنَ المُشابَهةِ التَّامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾، أيْ: جعَل النَّهارَ زمانَ بَعثٍ ونُشورٍ مِن ذلك السُّباتِ كبَعثِ الموتَى؛ على حَذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، أو: جعَل النَّهارَ نفْسَ البَعثِ على طَريقِ المبالَغةِ[٤]. والنُّشورُ هنا الإحياءُ؛ شَبَّهَ اليَقظةَ به؛ لِيَتطابَقَ الإحياءُ مع الإماتةِ اللَّذَينِ يَتضمَّنُهما النَّومُ والسُّباتُ[٥].

- وإعادةُ فِعلِ (جَعَل) في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ دُونَ أن يُعادَ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا ﴾ مُشعِرةٌ بأنَّه تَنبيهٌ إلى أنَّه جَعْلٌ مُخالِفٌ لجَعلِ اللَّيلِ لِباسًا؛ وذلك أنَّه أخبَرَ عنه بقوله: ﴿نُشُورًا ﴾، والنُّشورُ: بَعثُ الأمواتِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤).

إدماجٌ[١] للتَّذكيرِ بالبَعثِ، وتَعريضٌ بالاستِدلالِ على مَن أَحالُوه بتَقريبِه بالهُبوبِ في النَّهارِ. والنُّشورُ: الحياةُ بعْدَ المَوتِ، وهو هنا يَحتمِلُ مَعنيَينِ: أن يكونَ مُرادًا به البُروزُ والانتِشارُ؛ فيكونَ ضِدَّ اللِّباسَ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾، فيكونَ الإخبارُ به عنِ النَّهارِ حقيقيًّا، والمِنَّةُ في أنَّ النَّهارَ يَنتشِرُ فيه النَّاسُ لحَوائجِهم واكتِسابِهم. ويحتمِلُ أن يكونَ مرادًا به بَعْثُ الأجسادِ بعْدَ مَوتِها؛ فيكونَ الإخبارُ على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ الاعتِبارُ بحالةِ سَترِ اللَّيلِ على الاعتِبارِ بحالةِ النَّومِ؛ لرَعيِ مناسَبةِ اللَّيلِ بالظِّلِّ، بخِلافِ قَولِه في سُورةِ النَّبَأ: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا * وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا * وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ: ٨-١٠]؛ فإنَّ نِعمةَ النَّومِ أهَمُّ مِن نِعمةِ السَّترِ، ولأنَّ المناسَبةَ بيْنَ نِعمةِ خلْقِ الأزواجِ وبيْنَ النَّومِ أَشَدُّ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ حيثُ ذَكَر السُّباتَ أوَّلًا دليلًا على الحركةِ ثانيًا، والنُّشورَ ثانيًا

---

(١) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشَّيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -من مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا من إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجت المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٥).

(٤) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

دليلًا على الطَّيِّ والسُّكونِ أوَّلًا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ استِدلالٌ على الانفِرادِ بالخَلْقِ، وامتِنانٌ بتَكوينِ الرِّياحِ والسُّحبِ والمطرِ، ومَردودُ الاستِدلالِ قَصْرُ إرسالِ الرِّياحِ وما عُطِف عليه على اللهِ تعالى؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ له في الإلهيَّةِ بنَفيِ الشَّرِكةِ في التَّصرُّفِ في هذه الكائناتِ، وذلك ما لا يُنكِرُه المشْركونَ، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَت شَرِكتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الرِّياحِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ المَوجوداتِ اختلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ[٢].

- وجملةُ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطْفٌ على جملةِ ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ فهي داخلةٌ في حَيِّزِ القَصرِ، أي: وهو الَّذي أَنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ التِفاتٌ إلى نونِ العَظَمةِ؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بالإنزالِ؛ لأنَّه نتيجةُ ما ذُكِر مِن إرسالِ الرِّياحِ[٤]. وأيضًا الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، ﴿لِّنُحْـِۧىَ﴾، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾؛ لِمَا في إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإحياءِ البلدِ المَيْتِ به، وسَقْيِه للنَّاسِ والدَّوابِّ، وتَصريفِ الماءِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ الحِكمةِ،

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

ولأنَّ ضَميرَ المُتكلِّمِ أَدخلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ؛ فهو مُشعِرٌ بأنَّ (الإنزالَ، والإحياءَ، والسَّقيَ، والتصريفَ) نِعمةٌ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وصَفَ الماءَ بالطَّهارةِ، وعلَّلَ إنزالَه بالإحياءِ والسَّقْيِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سَقْيُ الأناسيِّ مِن جملةِ ما أنزَلَ له الماءَ، وصَفَه بالطَّهورِ إكرامًا لهم، وتَتْميمًا للمِنَّةِ عليهم، وبيانًا أنَّ مِن حقِّهم حينَ أرادَ اللهُ لهمُ الطَّهارةَ، وأَرادَهم عليها أن يؤْثِرُوها في بَواطِنِهم ثمَّ في ظَواهِرِهم، وأنَّ يَرْبَؤوا بأنفُسِهم عن مُخالَطةِ القاذُوراتِ كلِّها، كما رَبَأ بهم ربُّهُم. وقيل: الظَّاهرُ في قَولِه: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أن يكونَ للمُبالَغةِ في طَهارتِه، وجِهةُ المُبالَغةِ: كَونُه لم يَشُبْهُ شَيءٌ بخِلافِ ما نَبَع مِنَ الأرضِ ونَحوِه؛ فإنَّه تَشوبُه أجزاءٌ أَرْضيَّةٌ مِن مَقرِّه أو مَمَرِّه أو ممَّا يُطرَحُ فيه، ويَجوزُ أن يوصَفَ بالاسمِ وبالمَصدرِ[2]. والطَّهورُ -بفَتحِ الطَّاءِ- مِن أمثلةِ المُبالَغةِ في الوَصفِ بالمصدرِ، ووصْفُ الماءِ بالطَّهورِ يَقتَضي أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه؛ إذِ العُدولُ عن صيغةِ (فاعِلٍ) إلى صيغةِ (فَعولٍ) لزيادةِ معنًى في الوَصفِ، فاقتِضاؤُه في هذه الآيةِ أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه اقتِضاءٌ التِزاميٌّ؛ ليَكونَ مُستكمِلًا وصْفَ الطَّهارةِ القاصِرةِ والمُتعدِّيةِ، فيكونَ ذِكرُ هذا الوَصفِ إدماجًا لمِنَّةٍ في أثناءِ المِنَنِ المَقصودةِ، ويكونَ كقَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وصَفَ الطَّهارةَ الذَّاتيَّةَ وتَطهيرَه، فيكونُ هذا الوَصفُ إدماجًا، ولولا ذلك لكان الأحَقَّ بمَقامِ الامتِنانِ وصْفُ الماءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١- ٤٢، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

بالصَّفاءِ أو نَحوِ ذلك[١].

٥- قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾

- قولُه: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لَمَّا كان المقصودُ بإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ إحياءَ البلادِ لإحياءِ أهْلِها؛ قال: ﴿بَلْدَةً﴾، ولو كان مِلْحًا أو مُرًّا أو مُكَبرتًا لم تكنْ فيه قوَّةُ الإحياءِ. ولَمَّا كُرِه أن يُفهَمَ تَخصيصُ البلادِ، أُجريَ الوَصفُ باعتِبارِ المَوضعِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مكانٍ، فقال: ﴿مَّيْتًا﴾[٢].

- وقيل: ذكَّر الصِّفةَ ﴿مَّيْتًا﴾ مع أنَّ المَوصوفَ ﴿بَلْدَةً﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّه أُريدَ به اسمُ المَيتِ، ووصْفُ البَلدةِ به وصْفٌ على معنَى التَّشبيهِ البَليغِ[٣]. وقيل: ذَكَّره نظرًا إلى معنَى البلدةِ وهو المكانُ، لا إلى لفْظِها، والسِّرُّ فيه تَخفيفُ اللَّفظِ. وقيل: التَّذكيرُ لأنَّ البَلدةَ بمعنَى البلدِ، ولأنَّه غَيرُ جارٍ على الفعلِ كسائرِ أَبنيةِ المُبالَغةِ؛ فأُجريَ مَجرَى الجامدِ[٤].

- قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ المَوصولُ (ما) للإيماءِ إلى علَّةِ الخَبرِ، أي: نُسْقِيَهم؛ لأنَّهم مَخلوقاتٌ؛ ففائدةُ هذا الحالِ الإشارةُ إلى رحمةِ اللهِ بها؛ لأنَّها خَلْقُه[٥].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أنواعًا أُخرى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤، ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مِنَ الخَلائقِ تُسقَى بماءِ السَّماءِ، ولكنَّ الاقتِصارَ على ذِكرِ الأنعامِ والأناسيِّ؛ لأنَّهما مَوقِعُ المِنَّةِ؛ فالأنعامُ بها صَلاحُ حالِ البادينَ بألْبانِها وأَصوافِها وأَشعارِها ولُحومِها، وهي تَشرَبُ مِن مياهِ المطرِ مِنَ الأَحواضِ والغُدْرانِ[1].
وقيل: خَصَّ الأنعامَ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما خَلَق مِنَ الحَيوانِ الشَّاربِ بخِلافِ الأنعامِ؛ لأنَّ أهلَ القُرَى والأمصارِ يُقِيمون بقُربِ الأنهارِ والمَنابعِ، فبهم وبما لهم مِنَ الأنعامِ غُنْيةٌ عن سُقْيَا السَّماءِ؛ فكان الإنعامُ عليهم بسَقيِ أنعامِهم كالإنعامِ بسَقْيِهم، والطَّيرُ والوَحْشُ وسائرُ الحيواناتِ بخِلافِ ذلك؛ إذ تُبعِدُ في طلَبِ الماءِ فلا يُعوِزُها الشُّربُ غالبًا، مع أنَّ مَساقَ الآياتِ الكريمةِ كما هو للدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ فهو لتَعدادِ أنواعِ النِّعمةِ، والأنعامُ -حيثُ كانتْ- قُنْيةٌ للإنسانِ، وعامَّةُ مَنافِعِهم ومَعايِشِهم مُتعلِّقةٌ بها[2].

- وتَنكيرُ الأنعامِ والأَناسيِّ ووصْفُها بالكَثرةِ في قولِه: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾؛ لأنَّ عِلْيَةَ النَّاسِ وجُلَّهم قَريبونَ مِنَ الأوديةِ والأنهارِ ومَنابعِ الماءِ؛ ففيهم غُنْيةٌ عن سَقيِ السَّماءِ، وأعقابُهم -وهُم كثيرٌ منهم- لا يُعيِّشُهم إلَّا ما يُنزِلُ اللهُ مِن رَحمتِه، وسُقْيَا سَمائِه[3].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا * لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ فقد قَدَّمَ حَياةَ الأرضِ وإسقاءَ الأنعامِ على إسقاءِ النَّاسِ، وإنْ كانوا أَشرَفَ محلًّا؛ لأنَّ حياةَ الأرضِ هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

سبَبٌ لحَياةِ الأنعامِ والنَّاسِ؛ فلمَّا كانت بهذه المَثابةِ جُعِلَتْ مُقدَّمةً في الذِّكرِ، ولَمَّا كانتِ الأنعامُ مِن أسبابِ التَّعيُّشِ والحياةِ للنَّاسِ قدَّمَها في الذِّكرِ على النَّاسِ؛ لأنَّ حياةَ النَّاسِ بحياةِ أرْضِهم وأنعامِهم، فقُدِّمَ سَقْيُ ما هو سبَبُ نَمائِهم ومَعاشِهم على سَقْيِهم، وهذا الوَجهُ مَبنيٌّ على تَقدُّمِ الأسبابِ على المُسبَّباتِ. ووجْهٌ آخَرُ: أنَّهم إذا وجَدوا ما يَسقي أرضَهم ومواشيَهم وجَدوا سُقياهُم، وهذا الوجهُ مَبنيٌّ على تقديمِ ما يَشتَدُّ فيه الاحتِياجُ إلى الماءِ، ويَكثُرُ به الانتِفاعُ؛ فإنَّ انتِفاعَ الإنسانِ بحياةِ الأرضِ أكثَرُ، واهتِمامَه بسُقياها أشَدُّ مِن سُقيَا الأنعامِ، ثمَّ اهتِمامُه بسُقْيا الأنعامِ أقدَمُ مِن سُقيا نفْسِه؛ لأنَّهم إذا ظَفِروا بما يكونُ سُقْيَا أرْضِهم ومواشيهم لمْ يَعدَموا سُقياهم. وهذا الوجهُ أحسَنُ، ولمعنَى الإيغالِ[1] والتَّتميمِ[2] أجمَعُ؛ إذْ ليس اهتِمامُ مَن يَقرَبُ الأَوديةَ والأنهارَ ومَنابعَ الماءِ كاهتِمامِ مَن هو بعيدٌ منها؛ فعلى هذا المرادُ بالأناسيِّ: أصحابُ البَوادي والمُتبعِّدونَ مِن مَظانِّ الماءِ[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قَدَّم ذِكرَ الأنعامِ على الأَناسيِّ؛ لأنَّه اقتَضاهُ نَسْجُ الكلامِ على طريقةِ الإحكامِ في تعقيبِه بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، ولو قُدِّمَ ذِكرُ (أَناسيَّ) لتَفكَّكَ النَّظمُ. ولم يُقدِّمْ ذِكرَ النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، عبس: ٣٢]؛ لانتِفاءِ الدَّاعي للتَّقديمِ؛ فجاءَ

(١) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٢) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥).

على أصلِ التَّرتيبِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ جيءَ بالجملةِ القَسَميَّةِ، لإبطالِ زَعمِ مَن يَزعُمُ أنَّ ذلك بسببِ الأنواءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فيه توكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ و(قد) لتَحقيقِ التَّعليلِ؛ لأنَّ تَصرُّفَ المطرِ مُحقَّقٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وإنَّما الشَّيءُ الَّذي لم يَكُنْ لهم عِلمٌ به هو أنَّ مِن حِكمةِ تَصريفِه بيْن النَّاسِ أن يَذْكروا نِعمةَ اللهِ تعالى عليهم مع نُزولِه عليهم، وفي حالةِ إمساكِه عنهم؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يَقدُرُ قَدْرَ النِّعمةِ إلَّا عِندَ فَقدِها، فيَعلَموا أنَّ اللهَ هو الرَّبُّ الواحِدُ المُختارُ في خلْقِ الأسبابِ والمُسبَّباتِ[٣].

- ولَمَّا كان التَّذكُّرُ شاملًا لشُكرِ المُنعَمِ عليهم بإصابةِ المطرِ، ولتَفطُّنِ المَحرومينَ إلى سببِ حِرمانِهم إيَّاه لعلَّهم يَستَغفِرون، جيءَ في التَّعليلِ بفِعلِ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾؛ لِيَكونَ علَّةً لحالَتَيِ التَّصريفِ بيْنهم[٤].

- وقولُه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ تَركيبٌ جرَى بمادَّتِه وهَيئتِه مَجرَى المَثَلِ في الإخبارِ عن تَصميمِ المُخبَرِ عنه على ما بعْدَ حَرْفِ الاستِثناءِ، وذلك يَقتَضي وُجودَ الصَّارفِ عنِ المُستثنَى، أي: فصَمَّموا على الكُفورِ لا يَرجِعون عنه؛ لأنَّ الاستِثناءَ مِن عُمومِ أشياءَ مُبهمَةٍ جُعِلَتْ كلُّها ممَّا تَعلَّقَ به الإباءُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٠).

كأنَّ الآبِينَ قد عُرِضَتْ عليهم -مِنَ النَّاسِ أو مِن خَواطِرِهم- أمورٌ وراجَعوا فلمْ يَقبَلوا منها إلَّا الكُفورَ، وإنْ لم يَكُنْ هنالك عَرْضٌ ولا إباءٌ[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾

- الأصلُ في (بَعَث) و(أرسل) وأمثالِهما أنْ يَتعدَّى بـ (إلى)، وهنا قال: ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ فجُعِلتِ القريةُ موضعًا للإرسالِ؛ فلم يُعَدَّ بـ (في) كما عُدِّي بـ (إلى)، ولم يُجعَلْ صِلةً مِثلَه، يعني: أنَّ «في» هنا ليستْ للتَّعديةِ، مِثل «إلى»، لكنها: ظرفٌ له، اقتطع «بَعَثْنا» مِن صِلتِه، وجُعِلَ مطلقًا[2].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ هذا النهيُ مرادٌ به تَهييجُه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَهييجُ المؤْمنينَ وتَحريكُهم على عَدمِ طاعةِ الكافِرينَ فيما يُريدونَهم عليه؛ والخِطابُ وإنْ كان له فالحُكمُ شاملٌ لِأُمَّتِه[3].

- وتفريعُ قَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ على جُملةِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ لأنَّها تَتضمَّنُ أنَّه مُرسَلٌ إلى المشْركينَ مِن أهلِ مكَّةَ، وهُم يَطلُبون منه الكَفَّ عن دَعوَتِهم، وعن تَنقُّصِ أصنامِهم. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، وفِعلُ ﴿تُطِعِ﴾ في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ عُمومَ التَّحذيرِ مِن أَدْنى طاعةٍ لهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ قيل: إنَّه أُمِر بالحِرصِ على الدَّعوةِ والمُبالَغةِ فيها، وعُبِّرَ عن ذلك بالجِهادِ -وهو الاسمُ الجامعُ لمُنتهَى الطَّاقةِ- وصِيغةِ المُفاعَلةِ فيه؛ ليُفيدَ مُقابلةَ مَجهودِهم بمَجهودِه فلا يَضعُفُ؛ ولذلك وُصِف بالجِهادِ الكَبيرِ، أي: الجامعِ لكلِّ مُجاهَدةٍ(١). قيل: لأنَّ مُجاهَدةَ السُّفهاءِ بالحُجَجِ أَكبَرُ مِن مُجاهَدةِ الأعداءِ بالسَّيفِ، أو لأنَّ مُخالفتَهم ومُعاداتِهم فيما بيْن أظهُرِهم مع عُتُوِّهم وظُهورِهم(٢)، أو جعَلَه جِهادًا كبيرًا لِما يُحتمَلُ فيه مِنَ المَشاقِّ العِظامِ، أو لأنَّه جِهادٌ مع كلِّ الكَفرةِ؛ لأنَّه مَبعوثٌ إلى القُرى كافَّةً(٣).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ جمَعَتْ هذه الآيةُ: استِدلالًا، وتَمثيلًا، وتَثبيتًا، ووعْدًا؛ فصريحُها استِدلالٌ على شَيءٍ عظيمٍ مِن آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، وهو التِقاءُ الأنهارِ والأَبحُرِ. وفي ضِمْنِها تَمثيلٌ لحالِ دَعوةِ الإسلامِ في مكَّةَ يوْمَئذٍ واختِلاطِ المؤْمنينَ مع المشْركينَ بحالِ تَجاوُزِ البَحرينِ: أحدِهما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخَرِ مِلْحٌ أُجاجٌ. وتمثيلُ الإيمانِ بالعَذْبِ الفُراتِ، والشِّركِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وأنَّ اللهَ تعالى كما جعَل بيْن البَحرَينِ بَرْزخًا يَحفَظُ العَذْبَ مِن أنْ يُكدِّرَه الأُجاجُ، كذلك حَجَز بيْن المُسلِمينَ والمُشركينَ فلا يَستطيعُ المُشرِكونَ أنْ يَدُسُّوا كُفرَهم بيْن المسْلمينَ. وفي هذا تَثبيتٌ للمسْلمينَ بأنَّ اللهَ يَحجُزُ عنهم ضُرَّ المُشركينَ، لقَولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى﴾ [آل عمران: ١١١]. وفي ذلك تَعريضٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

كِنائيٌّ بأنَّ اللهَ ناصِرٌ لهذا الدِّينِ مِن أن يُكدِّرَه الشِّركُ؛ ولأجْلِ ما فيها مِنَ التَّمثيلِ والتَّثبيتِ والوعدِ كان لِموقِعِها عَقِبَ جملةِ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أكمَلُ حُسنٍ[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ القَصرُ المُستفادُ هنا مِن تعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ، هو قَصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشرَكُه غيرُه في مَرْجِ البَحرَينِ؛ لَمَّا جعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في مَرْجِ البَحرَينِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختلَّتْ حَقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿مَّحْجُورًا﴾ وصْفٌ لـ ﴿حِجْرًا﴾ مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ المعنَى المُشتَقِّ منه، كما قالوا: لَيْلٌ أَلْيَلُ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

- عَبَّر بالضَّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ -كما تقدَّمه- حَثًّا على استِحضارِ الأفعالِ والصِّفاتِ التي تقَدَّمتْ؛ لِتُعرفَ الحيثيَّةُ التي كُرِّرَ الضَّميرُ لأجلِها[٤].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ ...﴾ القَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ الجُزأينِ قَصرُ إفرادٍ؛ لإبطالِ دَعْوى شَرِكةِ الأصنامِ للهِ في الإلهيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣، ٥٤).

وهذا المذكورُ مِن قبيلِ التفسيرِ الإشاريِّ، وهو مِن بابِ الاعتبارِ والقياسِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

- والماءُ في قَولِه: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ مُطلَقٌ دَلَّ على شائعٍ في جِنسِ الماءِ؛ فتَقييدُه بقَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ دَلَّ على أنَّ المرادَ منه النُّطفةُ الواحدةُ، ثمَّ تَقسيمُه بقَولِه: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ دَلَّ على نَوعَينِ: ذكَرٍ وأُنثى، وإنَّما عَدَل عنِ الذَّكرِ والأُنثى؛ ليؤْذِنَ بالانشِعابِ نَصًّا؛ فالنُّطفةُ الواحدةُ نُطفةُ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ فإذَنِ الآيةُ على وِزانِ قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1] [النساء: ١].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ للتَّعظيمِ[2].

- وفي تركيبِ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مِن دَقيقِ الإيذانِ بأنَّ قُدرتَه راسِخةٌ واجِبةٌ له، مُتَّصِفٌ بها في الأزَلِ بما اقتَضاهُ فِعلُ (كان)، وما في صِيغةِ (قَدير) مِنَ الدَّلالةِ على قوَّةِ القُدرةِ المُقتضيةِ تمامَ الإرادةِ والعِلمِ[3].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٦).

الآيات (٥٥-٦٢)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُظاهِرًا ومُعاوِنًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[(١)].

﴿خَبِيرًا﴾: أي: عالِمًا، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائِقِها، والخبيرُ في أسماءِ الله: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطَةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[(٢)].

﴿نُفُورًا﴾: أي: هَرَبًا، وذَهابًا عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، =

﴿بُرُوجًا﴾: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ[١]، وقيل: البُروجُ: الكواكبُ العِظامُ، وأصلُ البرجِ: القَصرُ والحِصْنُ، وبه سُمِّي بروجُ السماءِ لمنازِلِها المختصةِ بها[٢].

﴿خِلْفَةً﴾: أي: مُتعاقِبَينِ؛ يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(١) قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشرَ بُرجًا، وهي: الحمَلُ، والثورُ، والجوزاءُ، والسرطانُ، والأسدُ، والسنبلةُ، والميزانُ، والعقربُ، والقوسُ، والجَدْي، والدلوُ، والحوتُ. وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزلٍ... وهذه البروجُ مقسومةٌ على ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ درجةً، لكلِّ برجٍ منها ثلاثونَ درجةً تقطَعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورةُ الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البُرجُ على بقعةٍ معيَّنةٍ مِن سَمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيَّارةِ -وتُسمَّى النجومَ الثوابتَ- متجمع بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بيْنَها، لا تتغيَّرُ فيما يُشاهَدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطتْ بينَها خطوطٌ لخرجَ منها شِبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سَيرِ الشمسِ... تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سَمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قُبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أنَّ الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيَّةِ... فبما كان لها مِن النظامِ تسَنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهُم ضبَطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وَهْميَّةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ... وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها، وأضافوا البرجَ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

مَجيءِ شَيءٍ بعْدَ شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن هذه النِّعمِ العظيمةِ: ويعبُدُ هؤلاء المُشرِكون آلهةً مِن دونِ اللهِ لا تنفَعُهم ولا تضُرُّهم، وكان الكافِرُ مُظاهِرًا ومُعاوِنًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ الله؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الوظيفةَ التي مِن أجْلِها أرسَل رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقول تعالى: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَهم بثوابِ اللهِ إذا آمَنوا بالله، ولِتُنذِرَهم عِقابَه وغَضَبَه إنْ كَفَروا وكذَّبوا. ويأمرُ الله نبيَّه أن يقولَ لمَن أُرسِل إليهم: لا أسألُكم على تبليغِ رِسالةِ الله إليكم مالًا، لكِنْ مَن شاء منكم أن يتَّخِذَ إلى مَرضاةِ رَبِّه سَبيلًا، كالصَّدَقةِ في سبيلِ الله، فليفعَلْ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوكَّلَ عليه، ويستعينَ به، فيقول: واعتَمِدْ على اللهِ الحيِّ الباقي الذي لا يموتُ، ونزِّهْه عن كلِّ نَقصٍ مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، وكفى برَبِّك خبيرًا عَليمًا بذُنوبِ عِبادِه، وسيُجازيهم عليها.

الذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثُمَّ علا على العَرشِ علُوًّا يليقُ بجَلالِه: الرَّحمنُ؛ فاسألْ -يا محمَّدُ- عن الرَّحمنِ عالِمًا يخبِرْك عنه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن جهالاتِ المشركينَ وسخافاتِهم، فيقول: وإذا قيل

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦).

لهؤلاء المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ، قالوا: لا نَعرِفُ الرَّحمنَ! أنسجُدُ لِما تأمُرُنا أنت أن نسجُدَ له مِن غيرِ أن نَعرِفَه، ومِن غيرِ أن نُؤمِنَ به؟ وزادهم الأمرُ بالسُّجودِ للرَّحمنِ نُفورًا عن الإيمانِ. ثمَّ يرُدُّ الله سبحانه عليهم بما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: تعاظَمَ اللهُ وجلَّ شأنُه وكثُرتْ خيراتُه؛ فهو الذي جعَل في السَّماءِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ، وخلَق فيها شَمسًا مُشرِقةً وقَمرًا مُضيئًا، وهو الذي جعل اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَين يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه التي لا تُحصى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عدَّدَ النِّعَمَ، وبيَّنَ كمالَ قُدرتِه؛ عَجَّب مِن المشرِكين في إشراكِهم به مَن لا يقدِرُ على نَفعٍ ولا ضرٍّ، أي: إنَّ اللهَ هو الذي خلَقَ ما ذكَرَه، ثمَّ هؤلاء لجَهلِهم يعبُدونَ مِن دونِه أمواتًا جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[1]!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تَنفَعُهم بشَيءٍ، ولا تضُرُّهم أبدًا، ويتركونَ عِبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم، وأنعَمَ عليهم، ويَملِكُ نَفعَهم وضُرَّهم[2].

﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾.

أي: وكان الكافِرُ مُعينًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ اللهِ؛ يُشرِكُ به ويعصيه،

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

تعلُّقُ ذلك بما تقدَّم هو أنَّ الكُفَّارَ يطلُبونَ العَونَ على اللهِ تعالى وعلى رَسولِه، واللهُ تعالى بَعَثَ رسولَه لِنَفعِهم؛ لأنَّه بعَثَه لِيُبَشِّرَهم على الطاعةِ، ويُنذِرَهم على المعصيةِ، فيَستحقُّوا الثوابَ، ويَحترِزوا عن العقابِ، فلا جهلَ أعظَمُ مِن جهلِ مَنِ استفرغَ جُهْدَه في إيذاءِ شخصٍ استفرغَ جُهْدَه في إصلاحِ مهمَّاتِه دينًا ودُنيا، ولا يسألُهم على ذلك البَتَّةَ أجرًا[2]!!

وأيضًا لَمَّا أفضى الكلامُ بأفانينِ انتِقالاتِه إلى التَّعجيبِ مِن استمرارِهم على أنْ يعبُدوا ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم؛ أعقَبَ بما يُومِئُ إلى استِمرارِهم على تكذيبِهم محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوى الرِّسالةِ، بِنسبةِ ما بَلَّغَه إليهم إلى الإفكِ، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّه سِحرٌ، فأُبطِلَتْ دعاويهم كلُّها بوَصفِ النَّبيِّ بأنَّه مُرسَلٌ مِن الله، وقَصْرِه على صفتَيِ التَّبشيرِ والنِّذارةِ[3].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَ مَن آمَنَ بك واتَّبَعَك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتُنذِرَ مَن كفَرَ بك وكذَّبَك وعصاك بالشَّقاءِ والعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ(١).

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وقَعَ جوابُهم عن قَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧]، وكان قد بقيَ قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ [الفرقان: ٨]، أُشيرَ إلى مَزيدِ الاهتِمامِ بجوابِه بإبرازِه في صورةِ الجوابِ لِمَن كأنَّه قال: ماذا يُقالُ لهم إذا تظاهَروا وطَعَنوا في الرِّسالةِ بما تقدَّمَ وغَيرِه؟ فقال(٢):

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أرسلْتُك إليهم: أنا لا أسألُكم على تبليغِ رسالةِ اللهِ إليكم مالًا(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

أي: لكنْ مَن شاء مِنكم أن يتَّخِذَ طَريقًا يقَرِّبُه إلى اللهِ، فليفعَلْ، ومِن ذلك أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

يُنفِقَ مِن مالِه في سبيلِ اللهِ[1].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الكُفَّارَ مُتظاهِرونَ على إيذائِه، فأمَرَه بألَّا يطلُبَ منهم أجرًا البتَّةَ- أمَرَه بأنْ يتوكَّلَ عليه في دفْعِ جَميعِ المَضارِّ، وفي جَلْبِ جميعِ المنافعِ[2].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه فطَمَ نفْسَه عن سؤالِهم شَيئًا؛ أمَرَه تعالى بتفويضِ أمرِه إليه، وثِقَتِه به، والاعتِمادِ عليه؛ فهو المتكفِّلُ بنَصرِه وإظهارِ دينِه[3].

وأيضًا لَمَّا كان المقصودُ رَدَّهم عن عِنادِهم، وكان ذلك في غايةِ الصُّعوبةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ كثير: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ومَسلَكًا ومَنهجًا يُقتَدى فيها بما جِئتُ به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨).

وقال البقاعي: (﴿إِلَّا مَن﴾ أي: إلَّا أجرَ مَن ﴿شَآءَ أَن يَتَّخِذَ﴾ أي: يكَلِّفَ نفْسَه ويخالِفَ هواه، ويجعَلَ له ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ فإنَّه إذا اهتدى بهدايةِ ربِّه، كان لي مِثلُ أجرِه، لا نفْعَ لي من جهتِكم إلَّا هذا، فإنْ سمَّيتم هذا أجرًا فهو مطلوبي، ولا مِريةَ في أنَّه لا يَنقُصُ أحدًا شيئًا مِن دنياه، فلا ضررَ على أحدٍ في طَيِّ الدُّنيا عنِّي، فأفاد هذا فائدتينِ؛ إحداهما: أنَّه لا طمعَ له أصلًا في شيءٍ يَنقُصُهم، والثانيةُ: إظهارُ الشَّفَقةِ البالِغةِ بأنَّه يَعتَدُّ بمنفعتِهم الموصلةِ لهم إلى ربِّهم ثوابًا لنَفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

وكان هذا الكلامُ لا يَرُدُّ مُتعنِّتيهم -وهم الأغلبُ- الذين تُخشَى غائلتُهم؛ عطَفَ على ﴿قُلْ﴾ قولَه[1]:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

أي: واعتَمِدْ -يا محمَّدُ- في دينِك ودُنياك على اللهِ الذي له الحياةُ الكامِلةُ الدَّائِمةُ التي لا موتَ معها أبدًا، وفوِّضْ أمورَك كُلَّها إليه وحْدَه لا إلى غيرِه، لا سيَّما في مُواجهةِ المُشرِكين بالإنذارِ، وتبليغِهم رسالةَ الله إليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: ونزِّهْ -يا محمَّدُ- ربَّك عن النَّقائِصِ والأندادِ والشُّركاءِ، مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، شاكرًا له على نِعَمِه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: فلا ضياعَ لِمَن تَوكَّل عليه أصلًا، بل هو المتولِّي لمصالحِه في حياتِه وبعْدَ مماتِه، ولا تلتَفِتْ إلى ما سِواه بوجهٍ؛ فإنَّه هالِكٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه. والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، ومعنى بحَمْدِه: أي: بحَمْدِه أقولُ ذلك. ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه؛ فهو أمرٌ بأن يَجمَعَ بينَ التَّسبيحِ والحَمدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥). =

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المُسَلَّى ربَّما وقَعَ في فِكرِه أنَّ مَن سَلَّاه إمَّا غيرُ قادرٍ على نَصرِه، أو غيرُ عالِمٍ بذُنوبِ خَصمِه، وكان السِّياقُ للشِّكايةِ مِن إعراضِ المبلِّغِينَ عن القُرآنِ، وما يَتبَعُ ذلك مِن الأذى- أشار بالعَطفِ على غيرِ مذكورٍ إلى أنَّ التقديرَ:

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه: ابنُ عطية، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه -أي أن يقولَ: سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ لِلهِ-: جلالُ الدينِ المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧).

وقال ابن كثير: (اقرِنْ بيْنَ حمدِه وتسبيحِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: نزِّهْه عن صفاتِ النُّقصانِ، مُثنيًا عليه بنعوتِ الكمالِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٧).

وممَّن فسَّر التَّسبيحَ بالتَّنزيهِ أيضًا: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: اعبُدْهُ شُكرًا منك له على نِعَمِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صَلِّ له شكرًا على نِعَمِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧).

وقال الثعلبي: (اعبُدْه وصَلِّ له شكرًا منك له على نِعَمِه). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال العليمي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ صلِّ له شكرًا، ونَزِّهْه عن صفات النقصان). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا أمْرُه بالتَّسبيحِ فهو تنزيهُ الله عمَّا لا يليقُ به، وأوَّلُ ذلك الشَّرِكةُ في الإلهيَّةِ، أي: إذا أهمَّك أمرُ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الإسلامِ، فعليك نفْسَك، فنَزِّهِ اللهَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

«فكفى به لك نصيرًا»، وعطَفَ عليه[(١)]:

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

أي: وحَسْبُك -يا محمَّدُ- ربُّك الخَبيرُ بذُنوبِ عبادِه، فلا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها يومَ القيامةِ؛ فليس عليك هُداهم، ولا حِفظُ أعمالِهم، فذلك كلُّه بيَدِ اللهِ وحْدَه[(٢)].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه نبيَّه بالتوكُّلِ والتَّسبيحِ، وذكَرَ صفةَ الحياةِ الدَّائمةِ؛ ذكَرَ ما دلَّ على القدرةِ التامَّةِ، وهو إيجادُ هذا العالَمِ[(٣)]، وأنَّه جديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّلِ، تبارَك وتعالى[(٤)].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: توكَّلْ على الحيِّ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في سِتَّةِ أيامٍ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧).

قال ابن كثير: (والسِّتَّةُ الأيامِ هي: الأحدُ، والاثنينُ، والثُّلاثاءُ، والأربعاءُ، والخميسُ، والجُمُعةُ =

= -وفيه اجتمَع الخَلْقُ كلُّه، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلام. واختلَفوا في هذه الأيَّام: هل كلُّ يَومٍ منها كهذه الأيَّامِ كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ؟ أو كلُّ يَومٍ كألْفِ سَنةٍ كما نَصَّ على ذلك مجاهِدٌ، والإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلٍ، ويُروى ذلك مِن روايةِ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فأمَّا يومُ السَّبتِ فلمْ يقَعْ فيه خَلْقٌ؛ لأنَّه اليَومُ السابعُ، ومنه سُمِّيَ السبت، وهو القطعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

ممَّن اختار أنَّها مِقدارُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبه للجمهورِ-، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

قال الألوسي عن هذا القول: (وهو الأنسَبُ بالمقامِ؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الباهرةِ بخَلقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ في مِثلِ تلك المُدَّةِ اليسيرةِ، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرِفُه). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢).

وقال ابنُ عثيمين عن القَولِ بأنَّ الأيامَ الستَّةَ هي مِن أيامِ الدُّنيا: (هذا هو القَولُ المشهورُ، وهو الراجِحُ، وأمَّا مَن قال: في ستةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الآخرةِ، وإنَّ اليومَ كألْفِ سَنةٍ، أو مَن قال: إنَّ المرادَ بالأيَّامِ مُطلقُ الزمَنِ، أي: في لحظاتٍ- فذلك أيضًا قولٌ مرجوحٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما يخاطِبُ النَّاسَ بما يَعرِفونَ، فالصَّحيحُ أنَّ المرادَ سِتةُ أيامٍ مِن أيامِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكُنْ هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ، إلَّا أنَّ اللهَ قبْلَ أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ يعلمُ زمَنَ الأيَّامِ قبْلَ وُجودِ الشَّمسِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وقال الزمخشري: (أمَّا الدَّاعي إلى هذا العَدَدِ -أعني: السِّتَّةَ دونَ سائرِ الأعدادِ- فلا نشُكُّ أنَّه داعي حِكْمةٍ؛ لعِلْمنا أنَّه لا يُقدِّر تقديرًا إلَّا بداعي حِكمةٍ، وإن كنَّا لا نطَّلِعُ عليه، ولا نهتدي إلى معرفتِه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨).

وقال البيضاوي: (ولعلَّ ذِكرَه زيادةُ تقريرٍ؛ لكونِه حقيقًا بأن يُتوكَّلَ عليه؛ من حيثُ إنَّه الخالِقُ للكُلِّ، والمتصَرِّفُ فيه، وتحريضٌ على الثباتِ والتأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى -مع كمالِ قدرتِه، وسرعةِ نفاذِ أمرِه في كلِّ مُرادٍ- خلَقَ الأشياءَ على تُؤَدةٍ وتدَرُّجٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ الرَّحمنُ على عرشِه بعْدَ خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه[1].

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان العِلمُ لازمًا للمُلْكِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه[2]:

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

أي: فاسألْ[3] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٠).

قال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ بعْدَ ذلك ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ الذي هو سَقفُ المخلوقاتِ وأعلاها، وأوسَعُها وأجمَلُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال أبو عمرو الداني: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ تامٌّ، إذا ارتفَع ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالابتِداءِ، وجُعِل الخبرُ فيما بعْدَه. فإنْ رُفِع بتقدير: هو الرَّحمنُ؛ كان الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ كافيًا. وإن جُعِل بدَلًا مِنَ المُضمَرِ الذي في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ لم يَكفِ الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾، وكفى على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٥).

(٣) قيل: الخطابُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١).

وقال الواحديُّ: (هذا الخِطابُ ظاهرُه للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه). ((الوسيط)) (٣/ ٣٤٤).

وقال أيضًا: (﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ فاسألْ -أيُّها الإنسانُ الذي لا تَعلَمُ صِفتَه- خَبيرًا يُخبِرْك بصِفاتِه). ((الوجيز)) (ص: ٧٨٢).

وقال أبو السعود: (وما قيل مِن أنَّ التَّقديرَ: إنْ شككتَ فيه فاسألْ به خَبيرًا، على أنَّ الخطابَ =

عن[١] الرَّحمنِ عالِمًا[٢] يُخبِرْك عنه وعن عَظَمتِه، وعن خَلقِه وسُلطانِه، وأفعالِه

= له صلَّى الله عليه وسلَّم والمرادَ غيرُه؛ بمعزلٍ مِن السَّدادِ، بل التَّقديرُ: إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسألْ معنيًّا بهِ ﴿خَبِيرًا﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

(١) قال ابنُ عثيمين في بيانِ أوجُهِ التَّعْديةِ بالباءِ:

(الوَجهُ الأوَّلُ: أن تكونَ «الباءُ» بمعنى «عن»، وهذا واضِحٌ: فاسألْ عنه خَبيرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أن تكونَ «الباء» متعلِّقةً بمحذوفٍ تقديرُه: مُعْتنيًا أو مُهتَمًّا به، حالٌ مِنَ الضَّميرِ المُستترِ في قولِه: ﴿فَسْئَلْ﴾. وعندي أيضًا أنَّه يوجدُ احتِمالٌ أنَّ المعنى: فاسألْ تُجَبْ به خَبيرًا، يعني كأنَّه ضُمِّنَ السُّؤالُ ما يدُلُّ على الجوابِ، مِثلُ ما قيلَ في: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]: سأل سائِلٌ وأُجيب بعَذابٍ واقعٍ، ويكونُ عَدَل عن «عن» إلى «الباء»؛ لأنَّ «عن» إنَّما تدُلُّ على مجرَّدِ السُّؤالِ، و «الباء» تدُلُّ على الإجابةِ أيضًا. وعلى كلِّ حالٍ فالمعنى أنَّ الرحمنَ الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ واستوى على العَرشِ اسألْ عنه خَبيرًا يُخبِرْك). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

(٢) قيل: المرادُ بالخبير: اللهُ تعالى. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، وأبو السعود، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠).

قال أبو السعود: (﴿خَبِيرًا﴾ عظيمَ الشأنِ، محيطًا بظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، وهو اللهُ سبحانه؛ يُطلِعْك على جليَّةِ الأمرِ. وقيل: فاسأَلْ به مَن وَجَدَه في الكُتُبِ المتقَدِّمةِ؛ لِيَصْدُقَك فيه). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

وقال السعدي: (﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعني بذلك: نَفْسَه الكريمةَ؛ فهو الذي يعلَمُ أوصافَه وعَظَمَته وجَلالَه، وقد أخبَرَكم بذلك، وأبانَ لكم مِن عظمَتِه ما تَسعَدونَ به مِن معرفتِه، فعَرَفه العارفون وخضَعوا لجلالِه، واستكبَرَ عن عبادتِه الكافِرونَ واستنكَفوا عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

قال ابن كثير: (أي: استعلِمْ عنه مَن هو خبيرٌ به عالمٌ به، فاتَّبِعْه واقتَدِ به، وقد عُلِم أنَّه لا أحدَ =

وصفاتِ كَمالِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا ذَكَرَ إحسانَه إليهم، وإنعامَه عليهم؛ ذَكَرَ ما أبدَوْهُ مِن كفْرِهم في مَوضِعِ

= أعلَمُ باللهِ ولا أخبَرُ به مِن عبدِه ورسولِه محمدٍ -صلواتُ الله وسلامُه على سيِّدِ ولدِ آدمَ- على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرةِ، الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى؛ فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبَرَ به فهو صِدقٌ، وهو الإمامُ المحكَّمُ الذي إذا تنازَع الناسُ في شَيءٍ وجَب ردُّ نزاعِهم إليه، فما يوافِقُ أقوالَه وأفعالَه فهو الحقُّ، وما يخالِفُها فهو مردودٌ على قائِلِه وفاعِلِه، كائنًا مَن كان؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ العلمِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ الأنباري. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٨٠٩).

قال ابن جُزي: (الأظهرُ أنَّ المُرادَ: اسألْ عنه مَن هو خبيرٌ عارفٌ به، وانتصَب ﴿خَبِيرًا﴾ على المفعوليَّةِ، وهذا الخبيرُ المَسؤولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والعلماءُ، وأهلُ الكتابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال الرسعني: (إمَّا أن يُرادَ بالخِطابِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو غيرُه بخِطابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤]: فإن كان المرادُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فالخبيرُ هو جبريلُ عليه السَّلامُ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ، على معنى: فسَلْني؛ فإنِّي الخبيرُ. وإن أُريدَ به غيرُه فالمعنى: فاسألْ رجُلًا خبيرًا، أي: عالمًا بما تسألُه عنه. وقيل: الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى ما دَلَّ عليه ﴿فَسْـَٔلْ﴾، وهو السؤالُ... المعنى: فاسألْ بسؤالِك خبيرًا أيُّها الإنسانُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

شُكْرِهم، فقال[١]:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾.

أي: وإذا قيلَ لأولئك المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ الذي أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ، ودفَعَ عنكم النِّقَمَ دونَ غيرِه؛ قالوا متعَجِّبين وكافرين بالله ومُنكِرين لاسمِه الرَّحمنِ: لا نعرِفُ الرَّحمنَ! أنطيعُك -يا محمَّدُ- فنَسجُدُ لله وحْدَه لمجرَّدِ قَولِك وأمْرِك بذلك[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا السجودُ يحتَمِلُ أن يرادَ به السجودُ الخاصُّ الذي هو خرورُ الإنسانِ على أعضائِه السبعةِ، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ به السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ المُطلَقُ؛ لأنَّ السجودَ يُطلَقُ بالمعنيين: السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ والذُّلُّ مُطلقًا، أو السجودُ الخاصُّ على هذه الأعضاءِ المعروفةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٩).

وقيل: المعنى: صَلُّوا للرَّحمنِ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٣/ ١٣١).

واختار القاسميُّ أنَّ المرادَ بالسُّجودِ: الإذعانُ بالإيمانِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٥).

قال ابن عاشور: (السجودُ الذي أُمِروا به سُجودُ الاعتِرافِ له بالوَحدانيَّةِ، وهو شِعارُ الإسلامِ، ولم يكنِ السُّجودُ مِن عبادتِهم، وإنَّما كانوا يَطوفون بالأصنامِ، وأمَّا سُجودُ الصَّلاةِ التي هي مِن قواعدِ الإسلامِ فليس مُرادًا هنا؛ إذ لم يكونوا ممَّن يُؤمَرُ بالصَّلاةِ، ولا فائدةَ في تكليفِهم بها قبْلَ أن يُسْلِموا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

وذَكَر النَّسَفي أنَّ المعنى: صَلُّوا لله، واخضَعوا له. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٦).

قال الشنقيطي: (وما ذَكَره هنا مِن أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ له وحْدَه -جَلَّ وعلا- مذكورٌ في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقَولِه تعالى: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم: ٦٢]، =

كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾.

أي: وزاد المُشرِكينَ أمْرُهم بالسُّجودِ للرَّحمنِ كراهيةً وفِرارًا مِن الحَقِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ * كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ * فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١﴾.

= وقد وَبَّخَهم تعالى على عدَمِ امتِثالِ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ﴾ [الانشقاق: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]. ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٠).

وممَّن اقتصَر على تفسيرِ السجودِ في الآيةِ بالسجودِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عنِ الكُفَّارِ مَزيدَ النُّفرةِ عن السُّجودِ؛ ذكَرَ ما لو تفكَّروا فيه لعَرَفوا وجوبَ السُّجودِ والعبادةِ للرَّحمنِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا سألَ المُشرِكون بقَولِهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كما يَسألون عنِ المجهولِ؛ ذكَرَ لهم القرآنُ ما يُعَرِّفُهم به مِن عظيمِ آياتِه، وجلائلِ إنعاماتِه التي هي مِن آثارِ رحمتِه، فذَكَرَ لهم بُروجَ السماءِ والشَّمسَ والقمرَ، ثمَّ ذَكَرَ لهم تعاقُبَ اللَّيلِ والنهارِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانَه حالَ النَّذيرِ الذي ابتدأَ به السورةَ في دعائِه إلى الرَّحمنِ -الذي لو لم يَدْعُ إلى عبادتِه إلَّا رحمانيَّتُه لكفى، فكيف بكلِّ جمالٍ وجلالٍ- فأنكروه؛ اقتضى الحالُ أن يُوصَلَ به إثباتُه بإثباتِ ما هم عالِمونَ به مِن آثارِ رحمانيَّتِه، ففَصَّلَ ما أُجمِلَ بعْدَ ذِكرِ حالِ النَّذيرِ، ثمَّ مِن المُلْكِ، مُصَدِّرًا له بوَصفِ الحقِّ الذي جعَلَه مَطلِعَ السورةِ؛ رادًّا لِمَا تضمَّنَ إنكارُهم مِن نفيِه، فقال[(٣)]:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبَتَتْ بَرَكاتُه، فهو الذي جعَلَ في السَّماءِ منازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سُرُجًا﴾ على الجَمعِ، قيل: المرادُ بها: ما أضاءَ مِن النُّجومِ، وقيل: المرادُ بها: الشَّمسُ، وإنَّما جاءت بصيغةِ الجَمعِ؛ لِتَعظيمِها[١].

---

(١) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٧).
قال ابن زنجلة: (ومَن قرأ ﴿سُرُجًا﴾: الشمسُ والقمرُ والكواكِبُ العِظامُ معها). ((حجة القراءات)) (ص: ٥١٢).
وقال السمعاني: (على هذه القراءةِ قد دخَل القمرُ في السُّرُجِ، إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكرِ لنوعِ فَضيلةٍ له، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨).
وقال ابن عثيمين: (فعَطفُ القمَرِ المنيرِ على السُّرجِ مِن بابِ عَطفِ المتغايرينِ، لا مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالقمَرُ ليس من السُّرُجِ؛ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، فالشَّمسُ -بلا شكٍّ- سراجٌ، ولكنَّ القمرَ نورٌ؛ فعليه لا يكونُ منها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٣).
وقال البِقاعي: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ بصيغةِ الجَمعِ؛ للتَّنبيهِ على عَظَمتِه في ذلك، بحيثُ إنَّه أعظَمُ مِن ألوفِ ألوفٍ مِن السُّرجِ، فهو قائمٌ مقامَ الوصفِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٧).

٢- قِراءةُ ﴿سِرَاجًا﴾ على الإفرادِ، والمرادُ: الشَّمسُ[(١)].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ في السَّماءِ شَمسًا مُشرِقةً تبعَثُ النُّورَ والحرارةَ، وقمرًا مُضيئًا في اللَّيلِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الآيتينِ: الشَّمسَ والقمرَ؛ ذكَرَ ما هُما آيتاهُ[(٣)].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

أي: واللهُ هو الذي جعَلَ اللَّيلَ والنَّهارَ بحيث يَخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، فهُما يَتعاقبانِ أبدًا، ولا يجتَمِعانِ[(٤)].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

القِراءات ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿يَذْكُرَ﴾ على معنى: الذِّكرِ لله، وقيل: هي بمعنى ﴿يَذَّكَّرَ﴾[1].

٢- قراءةُ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ أي: يَتذكَّر ويتَّعِظ، ويعتبِرَ ويتفكَّرَ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ[2].

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

أي: جعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلفةً لِمَن أراد أن يتَّعِظ ويعتبِرَ ويتفكَّرَ في اختِلافِهما، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه، فيَعبُدُه فيهما، ويَستَدرِكُ ما فاته في

= وقال البقاعي: (﴿خِلۡفَةٗ﴾ أي: ذوي حالةٍ معروفةٍ في الاختلاف؛ فيأتي هذا خَلفَ ذاك، بضِدِّ ما له مِن الأوصافِ، ويقومُ مقامَه في كثيرٍ مِن المراداتِ، والأشياءِ المقدَّراتِ، ويُعلَمُ قدرُ التسامُحِ فيها، ومَن فاته شَيءٌ مِن هذا قَضاهُ في ذاك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٨).

(١) قرأ بها حمزة، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٩).

أَحَدِهما فيَعمَلُه في وقتِ الآخَرِ(١).

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))(٢).

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن نام عن حِزبِه أو عن شَيءٍ منه، فقرأَه فيما بيْن صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ الظُّهرِ؛ كُتِب له كأنَّما قرأَه مِنَ اللَّيلِ))(٣).

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا فاتَتْه الصَّلاةُ مِن اللَّيلِ مِن وَجَعٍ أو غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرةَ ركعةً))(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥، ٦٦).

قال ابن عاشور: (التذكُّر: تفعُّلٌ مِن الذِّكر، أي: تكَلُّفُ الذِّكر. والذِّكرُ جاء في القرآن بمعنَى التأمُّل في أدلَّةِ الدِّينِ، وجاء بمعنى: تذكُّرِ فائتٍ أو مَنسيٍّ، ويجمَعُ المعنيَينِ استِظهارُ ما احتَجب عن الفِكرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وأمَّا قولُه: ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ فـ(أو) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنى أن يجعلَ هذا قسيمًا للأوَّلِ، فتكونَ مانعةَ اجتماعٍ، أو هي مانعةُ خُلوٍّ؟

الجوابُ: مانعةُ خُلوٍّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أنَّه إذا وُجِدَ الأول امتنعَ الثاني، لكنْ مانعةُ الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجَدَ هذا أو هذا، أو هما. ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ فهل يمكِنُ أن يجتَمِعا؟ نعَمْ؛ إذَنْ هي مانعةُ خُلوٍّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٣) رواه مسلم (٧٤٧).

(٤) رواه مسلم (٧٤٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المرءَ الكاملَ لا يَثِقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ التوكُّلَ على الأحياءِ المُعرَّضينَ للموتِ لا يَدومُ[١]؛ لأنَّه إذا مات المتوكَّلُ عليه صار المتوكِّلُ ضائِعًا، أمَّا هو سُبحانه وتعالى فإنَّه حيٌّ لا يموتُ، فلا يَضيعُ المتوكِّلُ عليه البتَّةَ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ دليلٌ على أنَّ واجبَ الدَّاعِيةِ أنْ يدعوَ إلى اللهِ، سواءٌ امتَثَلَ المدعوُّ أم نفَرَ[٣]، وألَّا يربطَ دعوتَه بنتائِجِها، بمعنى: أنَّه لا يقولُ: إنْ وجَدْتُ نتيجةً وإلَّا وقَفْتُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أنَّ عدَمَ استجابةِ المدعوِّين للدَّاعي لا يدُلُّ على فسادِ قَصْدِه أو عمَلِه، ولا يدُلُّ أيضًا على تَقصيرِه، يعني: إذا دعا الإنسانُ ولكِنَّه لم يَنجَحْ، فلا يجوزُ لنا أن نَتَّهِمَه ونقولَ: هذا لو كانت نيَّتُه صالحةً لانتفَعَ الناسُ به! إذنْ هذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّه ربَّما يكونُ مِن بَعضِ النَّاسِ اعتِراضٌ على الدَّاعي، يقولُ: هذا الدَّاعي نيَّتُه باطِلةٌ، لو أنَّ نيَّتَه صحيحةٌ ما نفَرَ النَّاسُ منه[٥]!

٤- إنَّ حياةَ الإنسانِ مِن بدايتِها إلى نهايتِها مَبنيَّةٌ على الأركانِ الثلاثةِ: الإرادةِ، والفِكرِ، والعمَلِ، وهي المذكوراتُ في قَولِه تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ لأنَّ التذكُّرَ بالتفكُّرِ، والشُّكرَ بالعملِ، فاستِفادةُ الإنسانِ ممَّا خلَقَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهُ له وجَعَلَه لأجْلِه لا تكونُ إلَّا بهذه الثَّلاثةِ، وهذه الثَّلاثةُ متوقِّفةٌ على ثلاثةٍ أخرى لا بُدَّ للإنسانِ منها؛ فالعملُ متوقِّفٌ على البدَنِ، والفِكرُ متوقِّفٌ على العقلِ، والإرادةُ متوقِّفةٌ على الخُلُقِ، فالتَّفكيرُ الصحيحُ مِن العقلِ الصحيحِ، والإرادةُ القويةُ مِن الخُلُقِ المتينِ، والعملُ المفيدُ مِن البدنِ السليمِ؛ فلهذا كان الإنسانُ مأمورًا بالمحافظةِ على هذه الثلاثةِ: عقْلِه، وخُلُقِه، وبدنِه؛ ودَفْعِ المضارِّ عنها، فيُثَقِّفُ عقْلَه بالعلمِ، ويُقَوِّمُ أخلاقَه بالسلوكِ النبويِّ، ويقُوِّي بدنَه بتنظيمِ الغذاءِ، وتوقِّي الأذى، والتريُّضِ على العمَلِ[(١)].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لِمن أراد أن يتذكَّرَ باللَّيلِ والنَّهارِ ويعتَبِرَ ويستَدِلَّ بهما على كثيرٍ مِن المطالِبِ الإلهيَّةِ، ويشكُرَ اللهَ على ذلك، ولِمَن أراد أن يذكُرَ اللهَ ويَشكُرَه وله وِردٌ مِن اللَّيلِ أو النَّهارِ، فمَن فاته وِردُه مِن أحَدِهما أدركَه في الآخَرِ، وأيضًا فإنَّ القُلوبَ تتقَلَّبُ وتنتَقِلُ في ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَحدُثُ لها النَّشاطُ والكسَلُ، والذِّكرُ والغَفلةُ، والقَبضُ والبَسطُ، والإقبالُ والإعراضُ، فجعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ يتواليانِ على العبادِ ويتكرَّران؛ ليَحدُثَ لهم الذِّكرُ والنَّشاطُ والشُّكرُ لله في وَقتٍ آخَرَ، ولأنَّ أورادَ العباداتِ تتكرَّرُ بتكَرُّرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فكلَّما تكرَّرت الأوقاتُ أحدَثَ للعبدِ هِمَّةً غيرَ هِمَّتِه التي كَسِلت في الوَقتِ المتقدِّم، فزاد في تذكُّرِها وشُكرِها، فوظائِفُ الطَّاعاتِ بمنزلةِ سَقيِ الإيمانِ الذي يمُدُّه، فلولا ذلك لَذَوى غَرسُ الإيمانِ ويَبِسَ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ هذا مِن ألطَفِ خِطابِ القرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وأشرفِ معانيه، وأنَّ المؤمنَ دائمًا مع اللهِ على نفْسِه وهواه وشَيطانِه وعدوِّ ربِّه، وهذا معنى كونِه مِن حزبِ اللهِ وجُندِه وأوليائِه؛ فهو معَ اللهِ على عدوِّه الداخلِ فيه والخارجِ عنه، يُحاربُهم ويُعاديهم ويُغضِبُهم له سُبحانَه، كما يكونُ خَواصُّ الملِكِ معه على حَربِ أعدائِه، والبعيدونَ منه فارِغونَ مِن ذلك، غيرُ مهتمِّينَ به، والكافِرُ معَ شيطانِه ونفْسِه وهواهُ على ربِّه. وعباراتُ السَّلَفِ على هذه تدورُ، فمعنى الآيةِ أنَّه يوالي عدُوَّه على معصيتِه والشِّركِ به، فيكونُ مع عدوِّه مُعينًا له على مَساخِطِ ربِّه، فالمَعيَّةُ الخاصَّةُ التي للمؤمِنِ مع ربِّه وإلهِه قد صارت لهذا الكافِرِ والفاجِرِ مع الشيطانِ ومع نفْسِه وهواهُ وقُربانِه؛ ولهذا صدَّر الآيةَ بقَولِه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادةُ هي الموالاةُ والمحبَّةُ والرِّضا بمعبوديهم، المتضَمِّنةُ لمعيَّتِهم الخاصَّةِ، فظاهَروا أعداءَ اللهِ على معاداتِه ومخالفتِه ومَساخِطِه، بخلافِ وليِّه سُبحانَه؛ فإنَّه معه على نفْسِه وشيطانِه وهواه، وهذا المعنى مِن كنوزِ القُرآنِ لِمَن فَهِمَه وعَقَلَه، وبالله التوفيقُ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ لَمَّا كان سياقُ السُّورةِ للإنذارِ -لِمَا ذُكِر فيها مِن سوءِ مقالِهم، وقُبْحِ أفعالِهم- حَسُنَ التعبيرُ في البِشارةِ بما يدُلُّ على كثرةِ الفِعلِ، ويُفهِمُ كثرةَ المفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ المطيعِ، وفي النِّذارةِ بما يقتضي أن يكونَ صفةً لازمةً، فقال: ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ أي: لكُلِّ مَن يؤمِنُ، ﴿وَنَذِيرٗا﴾ لكلِّ مَن يعصي[(٢)].

٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ سؤالٌ: أنَّ الأيَّامَ عِبارةٌ عن حرَكاتِ الشمسِ في السَّمواتِ، فقَبْلَ السَّمواتِ لا

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٩).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

أيَّامَ، فكيف قال اللهُ: خَلقَها في ستَّةِ أيَّامٍ؟

الجوابُ: يعني في مُدَّةٍ مِقدارُها هذه المدَّةُ[1].

٤- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سؤالٌ: لِمَ لمْ يَخلُقْها سُبحانَه في لحظةٍ وهو قادِرٌ على ذلك؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّه يَجِبُ على المُكَلَّفِ أن يَقطَعَ الطَّمَعَ عن مِثلِ هذا؛ فإنَّه بَحرٌ لا ساحِلَ له، مِن ذلك تَقديرُ الملائِكةِ الذين هم أصحابُ النَّارِ بتِسعةَ عَشَرَ، وحَملةِ العَرشِ بثَمانيةٍ، والشُّهورِ باثنَي عَشَرَ، والسَّمَواتِ بالسَّبْعِ، وعَدَدِ الصَّلواتِ، ومَقاديرِ النُّصُبِ في الزَّكَواتِ، والحُدودِ والكَفَّاراتِ؛ فالإقرارُ بأنَّ كُلَّ ما قاله اللهُ حَقٌّ: هو الدِّينُ، والواجِبُ تَركُ البَحثِ عن هذه الأشياءِ.

الثَّاني: ما جاء عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: (إنَّما خَلَقَها في سِتَّةِ أيَّامٍ، وهو قادرٌ أنْ يُخلُقَها في لَحظةٍ واحِدةٍ؛ تَعليمًا لخلْقِه الرِّفقَ والتثَبُّتَ)[2].

٥- اسمُ الرَّحمنِ هو على وزنِ (فَعْلان) الذي يدُلُّ على سَعةِ هذا الوَصفِ، وثبوتِ جَميعِ معناه الموصوفِ به، ألا ترَى أنَّهم يقولونَ: (غَضبانُ) للمُمتلِئِ غَضَبًا، و: (نَدْمانُ وحَيرانُ وسَكْرانُ ولَهْفانُ)، لِمن مُلِئَ بذلك، فبناءُ (فَعلان) للسَّعةِ والشُّمولِ؛ ولهذا يَقرِنُ استِواءَه على العَرشِ بهذا الاسمِ كثيرًا، كقَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فاستوى على عرشِه باسمِ «الرَّحمنِ»؛ لأنَّ العرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٩).

والأثر ذكره الثعلبيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٣٨).

والرَّحمةَ محيطةٌ بالخَلقِ واسِعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوَى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفاتِ؛ فلذلك وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((لَمَّا قضى اللهُ الخَلْقَ كتَب في كتابٍ فهو عندَه موضوعٌ على العرشِ: إنَّ رحمتي تغلِبُ غَضَبي))[١]، وفي لفظٍ: ((فهو عندَه على العَرشِ))[٢]. فتأمَّلِ اختِصاصَ هذا الكِتابِ بذِكرِ الرَّحمةِ، ووضْعِه عندَه على العَرشِ، وطابِقْ بيْنَ ذلك وبيْن قَولِه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقَولِه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ ينفَتِحْ لك بابٌ عظيمٌ مِن معرفةِ الربِّ تبارك وتعالى إنْ لم يُغلِقْه عنك التَّعطيلُ والتجَهُّمُ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أثبَتَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ خَلْقَه للمخلوقاتِ، واطِّلاعَه على ظاهِرِهم وباطِنِهم، وعُلوَّه فوقَ العرشِ، ومباينتَه إيَّاهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، ليس مِن الصِّفاتِ الذاتيَّةِ؛ لأنَّه مرتَّبٌ بعْدَ خلْقِ السَّمواتِ، يعني: حادِثًا[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ أنَّه لا تُطلَبُ معرفةُ اللهِ إلَّا مِن اللهِ؛ مِن الخبيرِ به، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى -على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

الآيةُ تَشهَدُ لِمَا عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ أسماءَ اللهِ وصفاتِه توقيفيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُثبِتَ منها إلَّا ما أثبَتَه اللهُ ورسولُه، يعني: أنَّ وصْفَ اللهِ تعالى لا يكونُ إلَّا بحسَبِ ما عَلِمْناه منه، فلا يمكِنُ أن نَصِفَ اللهَ تعالى بما لم يَصِفْ به نفْسَه(١)!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أنَّ السُّجودَ مِن أسبابِ الرَّحمةِ، سواءٌ السجودُ العامُّ أو السُّجودُ الخاصُّ؛ فإنَّه مِن أسبابِ الرَّحمةِ؛ ولهذا لم يَقُلْ: «اسجُدوا للهِ»، بل قال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾، يعني: لِتَصِلوا إلى رحمةِ هذا المَسجودِ له(٢).

١٠- مِن عادةِ الكُفَّارِ إنكارُ ما لا يَعرِفونَ، سواءٌ كان عمليًّا أو اعتقاديًّا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾(٣).

١١- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ إنَّ تعطيلَ الجَهميَّةِ وشِبهِهم أعظَمُ مِن تعطيلِ هؤلاء، فإذا كان هؤلاء كُفْرُهم بإنكارِ الرَّحمنِ، فكيف بمَن يُنكِرُ جميعَ الأسماءِ، مِن الجهميَّةِ ونحوِهم؟! ومعروفٌ أنَّ المعتزلةَ لا يُنكِرون الأسماءَ، لكنْ يُنكِرُها غُلاةُ الجهميَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الذي يُنكِرُ الأسماءَ أعظَمُ مِن الذي يُنكِرُ اسمًا واحدًا، والكفَّارُ يُقِرُّون باللهِ ويُقِرُّون بالرَّحيمِ، لم يُنكِروا إلَّا الرَّحمنَ، قالوا: ما نعرفُ إلَّا رحمنَ اليمامةِ(٤)!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ أنَّ المعاصيَ يَجُرُّ بعضُها بعضًا(٥).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أنَّه لَمَّا كان جَعلُ اللَّيلِ والنهارِ خِلفةً لأجلِ التذكُّرِ والعمَلِ، كان كلٌّ واحدٍ منهما صالحًا للعمَلِ الذي يُعمَلُ في صاحبِه، فمَن فاته عَمَلٌ بالليلِ أتَى به في النَّهارِ، ومَن فاته عَمَلٌ بالنَّهارِ أتَى به في الليلِ، وهذا إذا كان مِن العاداتِ فهو على سبيلِ التدارُكِ، وإذا كان مِن العباداتِ فهو على سبيلِ القضاءِ[١]، وفيه حجَّةٌ في قضاءِ النَّوافلِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الواوُ للحالِ، وهذا مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن استِمرارِهم في الشِّركِ؛ أُعقِب ذِكرَ ما نَفَع اللهُ به النَّاسَ مِن إلطافِه بهم في تَصاريفِ الكائناتِ؛ إذْ جَعَل لهمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وخَلَق لهمُ الماءَ، فأنبَتَ به الزَّرعَ، وسَقَى به النَّاسَ والأنعامَ، مع ما قارَنَه مِن دَلائلِ القُدرةِ، بذِكرِ عبادتِهم ما لا يَنفَعُ النَّاسَ؛ عَوْدًا إلى حكايةِ شَيءٍ مِن أحوالِ مُشْركي مكَّةَ[٣].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارعِ (يَعْبُدُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عبادتِهمُ الأصنامَ، وعدَمِ إجداءِ الدَّلائلِ[٤]. فالتعبيرُ بالمضارعِ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم لو فعَلوا ذلك مرَّةً لكان في غايةِ العجبِ، فكيفَ وهو على سبيلِ التجديدِ والاستمرارِ؟! وهو مصوِّرٌ لحالِهم زيادةً في تبشيعِها[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

- قولُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيه نَفيُ الضُّرِّ بَعْدَ نَفيِ النَّفعِ؛ للتَّنبيهِ على انتِفاءِ شُبهةِ عَبَدةِ الأصنامِ في شِركِهم؛ لأنَّ موجبَ العبادةِ إمَّا رَجاءُ النَّفعِ، وإمَّا اتِّقاءُ ضُرِّ المَعبودِ، وكِلاهما مُنتَفٍ عنِ الأصنامِ بالمُشاهَدةِ[1].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ هنا النَّفعُ على الضُّرِّ، فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (يونسَ) فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وفائِدتُه: أنَّه في سُورةِ (يونسَ) بدَأَ بما هو أبلَغُ إذا ابتُدِئَ به؛ لأنَّ امتِلاكَ الضُّرِّ أَسهَلُ مِنَ امتِلاكِ النَّفعِ؛ فالواحدُ منَّا يَقدِرُ لغَيرِه مِنَ الضُّرِّ ما لا يَقدِرُ عليه مِنَ النَّفعِ، ويتَسهَّلُ عليه ضُرُّه ما لا يَتسهَّلُ عليه نفْعُه، أي: يَعبُدون أصنامًا لا تَقدِرُ على ما يَتسهَّلُ على الفاعِلينَ؛ فكيف ما يَتعذَّرُ؟! ثمَّ ذَكَر بَعدَه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لاستيعابِ ما في البابِ. وأمَّا هنا في سورةِ (الفُرقانِ) فإنَّه تَبِعَ على ما قُدِّمَ فيه الأفضلُ على الأنقصِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقولِه بعْدَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فقَدَّمَ خِلطةَ النَّسبِ على خِلطةِ السَّببِ -وهي المُصاهَرةُ-، ثمَّ جاءَ بعدَ ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ فقَدَّم النَّفعَ على الضُّرِّ اتِّباعًا لِمَا تقدَّمَ[2].

- وأيضًا لَمَّا كان هذا السياقُ لِتَعدادِ نِعَمِه سُبحانَه، وكان الحامِلُ للإنسانِ على الإذعانِ رجاءَ الإحسانِ أو خوفَ الهَوانِ، وكان رجاءُ الإحسانِ مُقبلًا به إلى المحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ- قَدَّمَ النفعَ فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥).

بوَجهٍ، ولَمَّا كان الخوفُ إنَّما يوجِبُ الإقبالَ ظاهِرًا فقط؛ أتبَعَه قولَه: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: أصلًا في إزالةِ نعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ عنهم، فلا أسخَفَ عقلًا ممَّن يترُكُ مَن بيدِه كلُّ نفعٍ وضرٍّ، وهو يتقلَّبُ في نِعَمِه في يقظتِه ونومِه، وأمسِه ويومِه، ويُقبِلُ على مَن لا نَفعَ بيَدِه ولا ضُرَّ أصلًا[(١)]!

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ تَذْييلٌ لِما قَبلَه؛ فاللَّامُ في تَعريفِ الكافِرِ للاستِغراقِ، أي: كُلُّ كافرٍ على ربِّه ظَهيرٌ. وجُعِل الخَبرُ عنِ الكافرِ خَبرًا لـ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَه بالخبرِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُعتادٌ مِن كلِّ كافرٍ. وكذلك جُعِل المُشرِكُ في إشراكِه -مع وُضوحِ دَلالةِ عدَمِ استِئهالِ الأصنامِ للإلهيَّةِ- كأنَّه يَنصُرُ الأصنامَ على ربِّه الحقِّ[(٢)].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، فالسياقُ يقتضي أنْ يقولَ: (وكانوا على ربِّهم)، لكنْ قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذه العبادةَ أوصلَتْهم إلى الكُفرِ، وأيضًا لفائدةِ التعميمِ[(٣)].

- وفي ذِكرِ الرَّبِّ تعالى: تَعريضٌ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَولاهُ[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٥)]. وهذا الكلامُ الواردُ في الرَّدِّ عليهم جامعٌ بيْن إبطالِ إنكارِهم لِرسالتِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩).

وبيْن تأنيسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه ليس بمُضِلٍّ، ولكنَّه مُبشِّرٌ ونَذيرٌ. وفيه تَعريضٌ بألَّا يَحزَنَ لتكذيبِهم إيَّاهُ(١).

- وهاهنا نُكتةٌ شَريفةٌ؛ وهي أنَّه تعالى لَمَّا خَصَّ ذِكرَ النَّذيرِ في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أمسَكَ عن ذِكرِ المؤْمنينَ، وحين قَرَنه بالبَشيرِ في هذه الآيةِ، أتَى بذِكرِ الفَريقَينِ -أَعْني: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]-؛ لتَكونَ الخاتِمةُ مُشتمِلةً على ذِكرِ الأولياءِ، فلا تَخْلو السُّورةُ مِن ذِكرِهم(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استِثناءٌ، وهو تأكيدٌ لنَفيِ أنْ يَكونَ يَسألُهم أجْرًا؛ لأنَّه استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ مَحذوفٍ ما يدُلُّ عليها لقَصدِ التَّعميمِ، والاستِثناءُ مِعيارُ العُمومِ؛ فلذلك كثُرَ في كلامِ العربِ أن يُجعَلَ تأكيدُ الفِعلِ في صورةِ الاستِثناءِ، ويُسمَّى تأكيدَ المدحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ، أو: تأكيدَ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مِن قَبيلِ التأكيدِ في الجُملةِ؛ لأنَّ الكلامَ على حذْفِ مُضافٍ يُناسِبُ أجْرًا؛ إذِ التَّقديرُ: إلَّا عمَلَ مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلًا، وذلك هو اتِّباعُ دِينِ الإسلامِ. ولَمَّا كان هذا إجابةً لدَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشبَهَ الأجرَ على تلك الدَّعوةِ، وقد يُسمَّى مِثلُ هذا الاستِثناءِ: الاستِثناءَ المُنقطِعَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢).

ويُقدِّرونه كالاستِدراكِ[(١)].

- وقدْ صَوَّرَ ذلك بصُورةِ الأجرِ مِن حيثُ إنَّه مَقصودُ الإتيانِ به، واستَثنَى منه قلعًا كُلِّيًّا لشَائبةِ الطَّمعِ، وإظهارًا لغايةِ الشَّفقةِ عليهم، حيثُ جَعَل ذلك مع كَونِ نَفعِه عائدًا إليهم، عائدًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٢)].

- وجُعِل السَّبيلُ هنا إلى اللهِ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى إجابتِه فيما دَعاهُم إليه، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]. وذِكرُ وصْفِ الرَّبِّ دُونَ الاسمِ العَلَمِ؛ للإشارةِ إلى استِحقاقِه السَّيرَ إليه؛ لأنَّ العبدَ مَحقوقٌ بأن يَرجِعَ إلى ربِّه، وإلَّا كان آبِقًا[(٣)].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ هذا أمرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَشمَلُ الأُمَّةَ ما لم يكنْ دَليلٌ على الخُصوصيَّةِ[(٤)]. وأصلُ الكلامِ: تَوكَّلْ عليَّ، ثمَّ حُوِّل إلى: تَوكَّلْ على اللهِ؛ فخَصَّ الحَيَّ الَّذي لا يَموتُ بالذِّكرِ؛ ليَكونَ تَعريضًا بأنَّ غيرَه لا يَصِحُّ أن يُتوكَّلَ عليه؛ أمَّا الأصنامُ فإنَّها أمواتٌ لا يُكْفى أمْرُ مَن يَتوكَّلُ عليها، وأمَّا الأحياءُ الَّذين يَموتون فإنَّهم إذا ماتوا ضاعَ المُتوكِّلُ. أو نقولُ: إنَّ التَّركيبَ مِن بابِ تَرتيبِ الحُكمِ على الوَصفِ المُناسِبِ، وهو أنَّ المتوكِّلَ إذا عَلِم أنَّ المُتوكَّلَ عليه دائِمٌ باقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩).

يَعتَمِدُ عليه بشَراشِرِه -أي: بكُلِّيَّتِه-، ولا يَتوزَّعُ خاطِرُه إلى الغَيرِ بخِلافِه إذا لم يَكُنْ كذلك؛ فإذَنْ لا يَصِحُّ التَّوكُّلُ إلَّا على الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ، وهو اللهُ تعالى؛ فصَحَّ الحَصرُ(١).

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وصَفَ تعالى نفْسَه بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّوكُّلَ في قَولِه: ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لأنَّ هذا المعنى يختصُّ به تعالى دُونَ كلِّ حَيٍّ، كما قال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾(٢) [القصص: ٨٨].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وصْفٌ بالصِّفةِ الفِعليَّةِ بعدَ وصْفِه بالأبَديَّةِ الَّتي هي مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ. والإشارةُ إلى اتِّصافِه بالعِلمِ الشَّاملِ؛ لتَقريرِ وُجوبِ التَّوكُّلِ عليه تعالى وتَأكيدِه؛ فإنَّ مَن أنشَأَ هذه الأجرامَ العِظامَ على هذا النَّمطِ الفائقِ، والنَّسَقِ الرَّائقِ، بتَدبيرٍ مَتينٍ، وتَرتيبٍ رَصينٍ، في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ، مع كمالِ قُدرتِه على إبداعِها دَفعةً، لحِكَمٍ جليلةٍ، وغاياتٍ جميلةٍ، لا تَقِفُ على تفاصيلِها العُقولُ: أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأَوْلى مَن يُفوَّضُ الأمرُ إليه(٣).

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ هو اللهُ تعالى، وعَدَل عنِ اسمِ الجلالةِ إلى هذَينِ الوَصفَينِ؛ لِما يؤْذِنُ به مِن تَعليلِ الأمرِ بالتَّوكُّلِ عليه؛ لأنَّه الدَّائمُ، فيُفيدُ ذلك معنَى حَصرِ التَّوكُّلِ في الكَونِ عليه؛ فالتَّعريفُ في الحَيِّ للكاملِ، أي: الكاملِ حياتُه؛ لأنَّها واجبةٌ باقيةٌ مُستمِرَّةٌ، وحياةُ غَيرِه مُعرَّضةٌ للزَّوالِ بالمَوتِ، ومُعرَّضةٌ لاختِلالِ أثَرِها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

بالذُّهولِ كالنَّومِ ونَحوِه، فإنَّه مِن جِنسِ المَوتِ؛ فالتَّوكُّلُ على غَيرِه مُعرَّضٌ للاختِلالِ وللانخِرامِ. وفي ذِكرِ الوَصفَينِ تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذْ ناطُوا آمالَهم بالأصنامِ، وهي أمواتٌ غيرُ أحياءٍ[(١)].

- ولَمَّا كان الوَكيلُ يَحمِلُ عن الموكِّلِ ثِقَلَ ما أظهَرَ له عَجْزَه فيه، ويَقومُ بأعبائِه حتَّى يَصيرَ كمَنْ يَحمِلُ عن آخَرَ عَينًا مَحسوسةً لا يَصيرُ له عليه شَيءٌ منها أصلًا؛ عَبَّر بحرفِ الاستِعلاءِ تَمثيلًا لذلك، فقال: ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ﴾[(٢)].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ الباءُ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: سبِّحه تَسبيحًا مُصاحِبًا للثناءِ عليه بما هو أهلُه، وقد جَمَع له في هذا الأمرِ التَّخليةَ والتَّحليةَ، مُقدِّمًا التَّخليةَ؛ لأنَّ شأنَ الإصلاحِ أن يَبدَأَ بإزالةِ النَّقصِ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ، فيُفيدُ معنَى التَّذييلِ؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على عمومِ عِلمِه تعالى بذُنوبِ الخَلْقِ، ومِن ذلك أحوالُ المُشركينَ الَّذين هُم غرَضُ الكلامِ؛ ففي (ذُنوبِ عِبادِهِ) عُمومانِ: عُمومُ ذُنوبِهم كلِّها؛ لإفادةِ الجَمعِ المُضافِ عمومَ إفرادِ المُضافِ، وعمومُ النَّاسِ؛ لإضافةِ (عِبادِ) إلى ضَميرِ الجلالةِ، أي: جميعِ عِبادِه، مع ما في صيغةِ (خَبير) مِن شدَّةِ العِلمِ، وهو يَستلزِمُ العُمومَ؛ فكان كعُمومٍ ثالثٍ[(٤)].

- والعِلمُ بالذُّنوبِ كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو أنَّه يُجازيهم على ذُنوبِهم[(٥)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ تَعريضٌ بتَسليةِ الرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩، ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُلاقيهِ مِن أذاهُم، ووعيدٌ للكفَّارِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ في ذِكرِ هذه الآيةِ زِيادةُ تَقريرٍ لكَونِه حَقيقًا بأنْ يُتوكَّلَ عليه؛ مِن حيثُ إنَّه الخالقُ للكلِّ والمُتصرِّفُ فيه، وتَحريضٌ على الثَّباتِ والتَّأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى مع كَمالِ قُدرتِه وسرعةِ نَفاذِ أمْرِه في كلِّ مُرادٍ خلَقَ الأشياءَ على تؤدَةٍ وتَدرُّجٍ[٢].

- وأُجرِيَتْ هذه الصِّلةُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾ وصْفًا ثانيًا لـ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ لاقتِضائِها سَعةَ العِلمِ، وسَعةَ القُدرةِ، وعَظيمَ المجدِ؛ فصاحبُها حَقيقٌ بأنْ يُتوكَّلَ عليه، ويُفوَّضَ أمْرُ الجزاءِ إليه. وهذا تَخلُّصٌ إلى العَودِ إلى الاستِدلالِ على تَصرُّفِ اللهِ تعالى بالخَلقِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هو خَبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو الرَّحمنُ - وذلك على قولٍ-، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه الغالِبِ في الاستِعمالِ عِندَ ما تَتقدَّمُ أخبارٌ أو أوصافٌ لصاحبِها، ثمَّ يُرادُ الإخبارُ عنه بما هو إفصاحٌ عن وصْفٍ جامعٍ لِما مضَى أو أهَمَّ في الغرضِ ممَّا تَقدَّمَه؛ فإنَّ وصْفَ الرَّحمنِ أهَمُّ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو الأمرُ بالتَّوكُّلِ عليه؛ فإنَّه وصْفٌ يَقتَضي أنَّه يُدبِّرُ أُمورَ مَن تَوكَّلَ عليه بقَويِّ الإسعافِ[٤].

- وفُرِّعَ على وَصْفِه بالرَّحمنِ قَولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ في رَحمتِه مِنَ العَظَمةِ والشُّمولِ ما لا تَفِي فيه العِبارةُ، فيَعدِلُ عن زِيادةِ التَّوصيفِ إلى الحَوالةِ على عَليمٍ بتَصاريفِ رَحمتِه، مُجرِّبٍ لها، مُتلَقٍّ أحاديثَها ممَّن عَلِمَها وجرَّبَها[(١)]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وتَنكيرُ ﴿خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على العُمومِ، فلا يَظنُّ خبيرًا مُعَيَّنًا؛ لأنَّ النَّكِرةَ إذا تَعلَّقَ بها فِعلُ الأمرِ اقتَضَتْ عُمومًا؛ فقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجري مَجرَى المَثَلِ، ولَعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ، نَظيرَ قَولِ العربِ: «على الخبيرِ سَقَطْتَ»، يَقولُها العارِفُ بالشَّيءِ إذا سُئِل عنه. والمَثَلانِ وإنْ تَساوَيَا في عددِ الحُروفِ المَنطوقِ بها؛ فالمَثَلُ القُرآنيُّ أَفصَحُ؛ لسَلامتِه مِن ثِقَلِ تَلاقي القافِ والطَّاءِ والتَّاءِ في (سقَطْتَ)، وهو أيضًا أَشرَفُ؛ لسَلامتِه مِن مَعنَى السُّقوطِ. وهو أَبلَغُ مَعنًى؛ لِما فيه مِن عُمومِ كلِّ خَبيرٍ، بخِلافِ قَولِهم: «على الخبيرِ سقَطْتَ»؛ لأنَّها إنَّما يَقولُها الواحدُ المُعَيَّنُ[(٢)].

- والباءُ في قولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجوزُ أن تَكونَ مُتعلِّقةً بـ﴿خَبِيرًا﴾، وتَقديمُ المَجرورِ للرَّعيِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ[(٣)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ لَمَّا جَرَى وَصْفُ اللهِ تعالى بالرَّحمنِ مع صِفاتٍ أُخَرَ؛ استَطرَدَ بذِكْرِ كُفرِ المُشركينَ بهذا الوَصفِ، والخَبرُ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً في التَّعجُّبِ مِن عِنادِهم وبُهتانِهم، وليس المَقصودُ إفادةَ الإخبارِ عنهم بذلك؛ لأنَّه أمْرٌ مَعلومٌ مِن شأنِهم[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦١، ٦٢).

- قولُه: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استفهَمَ كُفَّارُ قُرَيشٍ عنِ الرَّحمنِ استِفهامَ مَن يَجهَلُه وهُم عالِمونَ به؛ فأظهَروا التَّجاهُلَ بهذه الصِّفةِ الَّتي للهِ؛ مُغالَطةً منهم ووقاحةً، فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهُم عارِفونَ به وبصِفتِه الرَّحمانيَّةِ، كما قال فِرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] حين قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] على سَبيلِ المُناكَرةِ، وهو عالِمٌ برَبِّ العالَمينَ(١)! فـ(ما) في قَولِه: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ استِفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الاستِغرابِ، يَعْنونَ تَجاهُلَ هذا الاسمِ؛ ولذلك استَفهَموا عنه بـ(ما) دُونَ (مَن)، باعتِبارِ السُّؤالِ عن معنَى هذا الاسمِ(٢).

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وامتِناعٍ(٣).

- ومَفعولُ ﴿تَأۡمُرُنَا﴾ في قولِه: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، تَقديرُه: يَأمُرُنا سُجودَه، نَحوَ قَولِهم: أَمَرْتُك الخَيرَ(٤).

- قولُه: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ فيه إسنادُ زيادةِ النُّفورِ إلى القَولِ؛ لأنَّه سبَبُ تلك الزِّيادةِ، فهُم كانوا أصحابَ نُفورٍ مِن سُجودٍ للهِ، فلمَّا أُمِروا بالسُّجودِ للرَّحمن زادُوا بُعدًا مِنَ الإيمانِ، وهذا كقَولِه في سورةِ (نوح): ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾(٥) [نوح: ٦].

٧- قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جُعِل تمهيدًا لقَولِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣).

ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ...﴾ الآياتِ(١) [الفرقان: ٦٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ على قِراءةِ (سُرُجًا) بالجَمعِ، وهو يَجمَعُ الأنوارَ؛ يكونُ خَصَّ القمرَ بالذِّكرِ تَشريفًا(٢). وقولُه: (سُرُجًا) جَمعُ سِراجٍ؛ فيَشمَلُ مع الشَّمسِ النُّجومَ؛ فيكونُ امتِنانًا بحُسنِ مَنظرِها للنَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. والكلامُ جارٍ على التَّشبيهِ البَليغِ؛ لأنَّ حقيقةَ السِّراجِ: المِصباحُ الزَّاهِرُ الضِّياءِ. والمقصودُ: أنَّه جَعَل الشَّمسَ مُزيلةً للظُّلْمةِ كالسِّراجِ، أو خَلَقَ النُّجومَ كالسِّراجِ في التَّلأْلُؤِ وحُسنِ المَنظرِ(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

- اختيرَتْ لَفظةُ (الخِلْفةِ) هنا؛ لدَلالتِها على الهيئةِ، فتكونُ مُنبِّهةً على هيئةِ هذا الاختِلافِ؛ بالطُّولِ والقِصَرِ المُختلفينِ في جِهاتٍ مِن الأرضِ، وذلك مُنبِّهٌ على أسبابِ هذا الاختِلافِ مِن وضْعِ جِرمِ الأرضِ وجِرمِ الشَّمسِ، وذلك كلُّه مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ عليه، وبتلك الهيئةِ مِنَ الاختلافِ المُقدَّرِ المُنظَّمِ عَظُمَت النِّعمةُ على البشرِ، وشَمِلَتْهم الرَّحمةُ؛ فكانتْ هذه اللَّفظةُ الواحدةُ مُنبِّهةً على ما في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن آيةٍ دالَّةٍ، ومِن نِعمةٍ عامَّةٍ؛ وهكذا جميعُ ألْفاظِ القرآنِ في انتِقائِها لِمواضعِها(٤).

- والجارُّ في ﴿لِّمَنْ أَرَادَ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿جَعَلَ﴾، وكان الجَعلُ لهما؛ لأنَّهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

المُستفيدانِ منه، ولم يُكرِّرِ الاسمَ الموصولَ؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحدَ يُمكِنُ أنْ يتَّصِفَ بالصِّفتينِ معًا. وكرَّرَ فِعلَ الإرادةِ؛ لأنَّها لا بدَّ منها في التَّذكُّرِ وفي الشُّكرِ[١].

- قولُه: ﴿خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ جِيءَ في جانبِ المُتذكِّرينَ بقَولِه: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾؛ لدَلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ والحُدوثِ؛ فإنَّ الغَفلةَ مُستوليةٌ على الإنسانِ، والآياتُ المرئيَّةُ ما تَزالُ تُحدِثُ له التذكُّرَ وتُجدِّدُه له. واقتَصَر في جانبِ الشَّاكِرينَ على المصدرِ بقَولِه: ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾؛ لأنَّ الشُّكرَ يَحصُلُ دَفعةً. ولأجْلِ الاختِلافِ بيْن النَّظْمَينِ أُعيدَ فِعلُ (أَرَادَ)؛ إذْ لا يَلتئِمُ عَطْفُ ﴿شُكُورٗا﴾ على ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾، وقيل: ﴿شُكُورٗا﴾؛ لمُناسَبةِ رُؤوسِ الآيِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ نَشْرٌ لمعنى اللَّفِّ[٣] في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ من المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ من السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين: الوجه الأوَّل: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّب». الوجه الثاني: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّب»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ فإنَّ مجرَّدَ الانتِقالِ والتَّغييرِ يدُلُّ على ناقِلٍ ومُغيِّرٍ عظيمِ القُدرةِ، وكَونَ ذلك الانتِقالِ مؤدِّيًا إلى النَّفعِ العظيمِ يدُلُّ على مُنعِمٍ واسعِ النِّعمةِ، وهُمَا يوجِبانِ المعرفةَ والعِبادةَ[١] [المرسلات: ٦].

و﴿أَوْ﴾ للتنويعِ على معنى الاشتمالِ على هذينِ المعنيينِ، أو للتخييرِ على معنى الاستقلالِ بكلٍّ، ولا منعَ مِن الاجتماعِ. وفائدةُ هذا الأسلوبِ إفادةُ الاستقلالِ، ولو ذكَر الواوَ بدلَها لتُوُهِّمَ المعيةُ[٢].

- وقوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أبَوُا التَّفكُّرَ في آياتِ اللهِ جُحودًا وعِنادًا، وامتَنَعوا عنِ الشُّكرِ لآلائِه عُتُوًّا واستِكبارًا، وتَصريحٌ بأنَّ الَّذين توَسَّموا بعِبادِ الرَّحمنِ على خِلافِ ذلك؛ ولذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ ليُقابِلَ قولَهم: ﴿أَنَسْجُدُ﴾، وقولَه: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[٣].



(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٢).

وتقدَّمت الإشارةُ إلى أنَّ (أو) مانعةُ خلوٍّ؛ فإمَّا أنْ يوجدَ هذا أو يُوجدَ هذا، ويمكنُ أن يجتمِعا. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

الآيات (٦٣-٦٧)

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿هَوْنًا﴾: أي: بالرِّفْقِ والسَّكينةِ والوَقارِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على سُكونٍ أو سَكينةٍ أو ذُلٍّ[1].

﴿سَلَامًا﴾: أي: سَدادًا مِن القَولِ ومَعروفًا، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[2].

﴿غَرَامًا﴾: أي: دائِمًا لازِمًا، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[3].

﴿وَمُقَامًا﴾: أي: إقامةً، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عن الدَّوامِ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٢) و(١٧/ ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

انتِصابٍ أو عَزمٍ[(١)].

﴿يَقۡتُرُواْ﴾: يُضَيِّقوا ويَبخَلوا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ[(٢)].

﴿قَوَامًا﴾: أي: وسَطًا وعَدلًا، والقَوامُ هو الشَّيءُ بينَ الشَّيئَيْنِ[(٣)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا صفاتِ عِبادِه المؤمنينَ: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشونَ على الأرضِ بسَكينةٍ ووَقارٍ ولِينٍ، وإذا خاطَبَهم السُّفَهاءُ بالسَّيِّئِ مِن القَولِ لم يُقابِلوهم بالمِثْلِ، بل قابَلوهم بالقَولِ الطيِّب، وهم الذين يُصَلُّون لله في اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ، والذين يقولونَ خَوفًا مِن عِقابِ رَبِّهم: ربَّنا أبعِدْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ؛ إنَّ عذابَها كان مُهلِكًا ومُلازِمًا لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، إنَّها قَبُحَت مَنزِلًا ومُقامًا لِمن يُقيمُ فيها.

والذين إذا أنفَقوا لم يُبذِّروا ولم يُضيِّقوا ويَبخَلوا، وكان إنفاقُهم وسَطًا بيْن الإسرافِ والتَّقتيرِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٨).

سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تجاهَلَ المشرِكون الرحمنَ، واستكبَروا عن السجودِ له؛ عَرَّفَهم القرآنُ بالرحمنِ: بخَلْقِه، وتدبيرِه وإنعامِه -كما مضى في الآياتِ المتقدمةِ- ثم عَرَّفَهم بعِبادِه الذين عَرَفوه بذلك فآمنوا به وخضَعوا له، بما اشتملتْ عليه هذه الآياتُ مِن صفاتِهم، وكما كانت مخلوقاتُ الله المذكورةُ سابقًا دالَّةً عليه، ومعَرِّفةً به، بما فيها مِن آثارِ قدرتِه وآثارِ رحمتِه، كذلك كان عِبادُه المذكورون أدِلَّةً عليه ومعَرِّفين به؛ بأقوالِهم وأفعالِهم، وهَديِهم وسلوكِهم، ومَظاهِرِ آثارِ رحمةِ الله عليهم، فذكَروا بعْدَ ذلك تلك المخلوقاتِ، وذُكِرت هي قبلَهم؛ لأنها كانت أدِلَّةً لهم، والدليلُ سابقٌ على المستدِلِّ سَبْقَ المُستفادِ منه على المستفيدِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانه التذكُّرَ والشُّكرَ في اللَّيلِ والنهارِ في الآيةِ المتقدِّمةِ؛ ذَكَرَ صفاتِ المتذكِّرينَ الشاكرينَ، وما أثمَرَه لهم تَذكُّرُهم وشُكرُهم؛ ترغيبًا في التذكُّرِ والشُّكرِ[٢].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ الله سُبحانه الكُفَّارَ في هذه السُّورةِ بما وَصَفَهم به مِن الفَظاظةِ والغِلظةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعداوتِهم له، ومُظاهَرتِهم على خالِقِهم، ونحوِ ذلك مِن جلافتِهم، وخَتَمَ بالتذكُّرِ والشُّكرِ، وكان التقديرُ: فعِبَادُ الشَّيطانِ لا يتذكَّرون ولا يشكُرون؛ لِما لهم مِن القسوةِ- عَطَفَ على هذا المُقَدَّرِ أضْدادَهم، واصفًا لهم بأضْدادِ أوصافِهم، مُبَشِّرًا لهم بضِدِّ جزائِهم، فقال تعالى[٣]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشون بحِلْمٍ وسَكينةٍ، ووَقارٍ وتواضُعٍ، ورِفقٍ ولينٍ، مِن غَيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ وتجبُّرٍ، وسَعيٍ للإفسادِ وارتكابِ المعاصي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

قال ابن كثير: (المرادُ بالهَونِ هاهنا السَّكينةُ والوقارُ، كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا أتيتُم الصَّلاةَ فلا تأتُوها وأنتم تَسْعَونَ، وأْتُوها وعليكم السَّكينةُ، فما أدركتُم فصَلُّوا، وما فاتكم فأتِمُّوا»[البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣)]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).
ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

وقال ابنُ جُزي: (﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: رِفقًا ولِينًا بحِلمٍ ووقارٍ، ويحتمِلُ أن يكون ذلك وَصْفَ مَشيِهم على الأرضِ، أو وصْفَ أخلاقِهم في جميعِ أحوالِهم، وعبَّرَ بالمَشيِ على الأرضِ عن جميعِ تصَرُّفِهم مدَّةَ حياتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أنَّه مدحٌ لِمشْيةٍ بالأرجُلِ، وهو الذي حمَل عليه جمهورُ المفسِّرينَ... [و] تقييدُ المشيِ بأنَّه على الأرضِ؛ لِيَكونَ في وَصفِه بالهَونِ ما يقتضي أنَّهم يَمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عندَ المشيِ في الصُّعُداتِ أو على الجنادِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارةٌ عن تصرُّفاتِهم في معاشرةِ النَّاسِ، وأنَّه ذكَر مِن ذلك المعظَمَ، لاسيَّما وفي ذلك الانتقالِ في الأرضِ معاشرةُ الناسِ وخلطتُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨).

وقال ابن عثيمين: (ثمَّ إنَّ هذا المَشيَ، هل هو المشيُ الحِسِّيُّ، أو يعُمُّ المشيَ الحسِّيَّ والمعنويَّ؟ الجواب: يَعُمُّهما جميعًا، حتَّى المشيَ المعنويَّ؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾، وهذا مِن هَونِ المشيِ المعنويِّ؛ أنَّهم إذا خاطَبَهم الجاهلون لا يتسَرَّعون فيقابلونَه بمِثلِ جَهلِه، ولكِنَّهم يقولون: سلامًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّها بيانٌ لحالِ عِبادِ الرحمنِ في المُعامَلةِ مع غَيرِهم إثْرَ بَيانِ حالِهم في أنفُسِهم(١).

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾.

أي: وإذا خاطَبَ السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونَه، أجابوهم بقَولِ سَدادٍ وصَوابٍ، ويَعفُون عنهم ويَصفَحون، فيَسْلَمون مِن الإثمِ، ومِن مُقابَلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومِن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

قال ابنُ باديس: (﴿ سَلَامًا ﴾ ... مفعولٌ مطلقٌ، والتقديرُ: قالوا قولًا سلامًا، أي: ذا سلامٍ، فيشملُ كلَّ قولٍ فيه سلامةٌ مِن الأذَى والمكروهِ؛ كسلام عليكم، ويغفرُ الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك. أو... مفعولٌ به، أي: قالوا هذا اللفظَ ﴿ سَلَامًا ﴾ نفْسَه). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: رَدُّوا معروفًا، وأجابوا بالسَّدادِ مِن الخِطابِ، ولم يقولوا إلَّا خيرًا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ جُزي، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وصْفَهم بالنَّهارِ مِن وَجهَينِ؛ أحدُهما: ترْكُ الإيذاءِ، بقَولِه: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾، والثَّاني: تحمُّلُ الإيذاءِ، بقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ

= (٢/ ٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢).

قال السعدي: (﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: خاطَبوهم خِطابًا يَسْلَمون فيه مِنَ الإثمِ، ويَسلَمون مِن مُقابَلةِ الجاهلِ بجَهلِه. وهذا مدحٌ لهم بالحِلمِ الكثيرِ، ومُقابَلةِ المُسيءِ بالإحسانِ، والعفوِ عن الجاهلِ، ورَزانةِ العقلِ الذي أوصَلَهم إلى هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وممَّن اختار أنَّهم قالُوا هذا اللَّفظَ -أي: سلامًا-: ابنُ عطية، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٧).

وقال القاسمي: (﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: إذا خاطَبَهم السُّفهاءُ بالقولِ السَّيِّئِ لم يُقابِلوهم بمِثلِه، بل قالوا كلامًا فيه سلامٌ مِن الإيذاءِ والإثمِ؛ سواء كان بصيغةِ السلام، كقولهم: «سلامٌ عليكم»، أو غيرِها ممَّا فيه لُطفٌ في القولِ، أو عفوٌ أو صفحٌ، وكَظمٌ للغَيظِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿سَلَٰمٗا﴾ أي: تسلُّمًا منكم لا نُجاهِلُكم، ومُتاركةً لا خَيرَ بيْننا ولا شَرَّ: المُبَرِّدُ، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((المقتضب)) للمبرِّد (٣/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٢).

وقال ابنُ عاشور: («السَّلامُ» يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى السَّلامةِ، أي: لا خيرَ بيْننا ولا شرَّ؛ فنحن مُسلَّمون منكم. ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به لفظُ التحيَّةِ، فيكونَ مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو المتاركةُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ لفظِ السَّلامِ في التحيَّةِ أنَّه يؤْذِنُ بالتأمينِ، أي: عدَمِ الإهاجةِ. والتأمينُ: أوَّلُ ما يَلقَى به المرءُ مَن يريدُ إكرامَه؛ فتكون الآيةُ في معنى قَولِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾؛ شرَحَ صِفتَهم في اللَّيلِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانه فيما تقدَّمَ سلوكَهم مع الخَلقِ؛ ذكَر في هذه الآيةِ سلوكَهم في القيامِ بعبادةِ الحقِّ، وفيما تَقَدَّمَ بيانُ حالِهم عندَ اختلاطِهم بالعِبادِ، وفي هذه بيانُ حالِهم عندَ تَفرُّدِهم لربِّ العبادِ[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هُمُ الذين يُصَلُّونَ في اللَّيلِ مُخلِصينَ لرَبِّهم، وهم في ذلك بيْنَ سُجودٍ وقِيامٍ[3].

كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

قال الزجاج: (كلُّ مَن أدركه اللَّيلُ فقد بات يبيتُ، نام أو لم ينَمْ... إنَّما المَبيتُ إدراكُ اللَّيلِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٧٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سبحانه حُسنَ سلوكِهم مع الخَلقِ، واجتهادَهم في عبادةِ الحقِّ؛ ذَكَر خَوفَهم مِن ربِّهم، واعتمادَهم عليه في نجاتِهم، وعدَمَ اعتزازِهم بأعمالِهم، فهُم يَأتون ما يَأتون مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ولا يَعتمدون إلَّا على الكبيرِ المُتعالِ(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾.

أي: والذين يقولونَ خَوفًا وحَذَرًا مِن عَذابِ اللهِ: ربَّنا ادفَعْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ، بتَوفيقِنا للطَّاعاتِ، واجتِنابِ المعاصي، وتكفيرِ السَّيِّئاتِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٦ - ٢٨].

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

أي: إنَّ عذابَ جهنَّمَ مُلازِمٌ لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، مُهلِكٌ لهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ تتقارَبُ معانيها: أحدُها: دائمًا،... والثاني: موجِعًا، رواه الضحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثالث: مُلِحًّا، قاله ابنُ السائبِ، وقال ابنُ جُرَيج: لا يفارِقُ. والرابعُ: هلاكًا، قاله أبو عُبَيدة. والخامسُ: أنَّ الغَرامَ في اللُّغةِ: أشَدُّ العذابِ... قاله الزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ قَبُحَت مَنزِلًا يَستقِرُّ فيه أهلُها، وبِئسَت موضِعَ إقامةٍ يَمكُثونَ فيها[1].

= ممَّن اختار في الجملةِ أن ﴿غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا كملازَمةِ الغَريمِ لغريمِه، مُلِحًّا، لازمًا، دائمًا، لا يفارِقُ صاحبَه: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والسمين الحلبيُّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٦).

وممَّن اختار أنَّ ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا مُلِحًّا لازمًا: الزمخشريُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨١).

وقال ابن جرير: (﴿غَرَامًا﴾ مُلِحًّا دائمًا لازمًا، غيرَ مفارِقٍ مَن عُذِّب به مِن الكفَّارِ، ومُهلِكًا له). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥).

قال ابن عاشور: (وجملة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يجوزُ أن تكونَ حكايةً مِن كلامِ القائلينَ، ويجوزُ أن تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى مُعترضةً بيْن اسمَيِ الموصولِ. وعلى كلٍّ فهي تعليلٌ لسؤالِ صَرْفِ عذابِها عنهم. والغرامُ: الهلاكُ المُلِحُّ الدَّائِمُ، وغلَبَ إطلاقُه على الشرِّ المستمِرِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أفعالَهم وأقوالَهم؛ أتبَعَ ذلك بذِكرِ إنفاقِهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أفعالَهم وأقوالَهم فيما بيْنهم وبيْن الخلْقِ والخالقِ؛ ذكَرَ أحوالَهم في أموالهم نظرًا إلى قول الكفرةِ ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ [الفرقان: ٨]، وهدايةً إلى طريق الغنى؛ لأنَّه ما عالَ مَنِ اقتصدَ، فقال[٢]:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾.

أي: والذين إذا أنفَقوا أموالَهم على أنفُسِهم وأهليهم وغَيرِهم، لم يُجاوِزوا الحَدَّ في إنفاقِها فيُبَذِّروا، ولم يُقصِّروا في النَّفَقةِ عن قَدرِ الحاجةِ فيَبخَلوا[٣].

= (٦/ ١٢٣)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

قال أبو حيان: (والظَّاهِرُ أن التَّعليلينِ غيرُ مترادفينِ؛ ذكرَ أوَّلًا لُزومَ عذابِها، وثانيًا مَساءةَ مكانِها، وهما متغايرانِ، وإن كان يلزمُ مِن لزومِ العذابِ في مكانٍ ذَمُّ ذلك المكانِ. وقيل: هما مترادِفان، والظَّاهِرُ أنَّه مِن كلامِ الداعينَ وحكايةٌ لقولِهم. وقيل: هو مِن كلامِ الله). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

وقال ابن عاشور: (جملة: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ يجوزُ أن تكونَ حِكايةً لكلامِ القائلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتعليلِهم الأوَّلِ، وأن تكونَ مِن جانب الله تعالى دونَ التي قبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتعليلِ القائلينَ، وأن تكونَ مِن كلامِ الله مع التي قبْلَها؛ فتكونَ تكريرًا للاعتراضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧، ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

= السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦).

قال ابن عطية: (الوجهُ أن يُقالَ: إنَّ النَّفَقةَ في المعصيةِ أمرٌ قد حظَرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مالِ الغيرِ، وهؤلاء الموصوفون منزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ بهذه الآيةِ هو في نفقةِ الطاعاتِ وفي المباحات، فأدَبُ الشَّرعِ فيها ألَّا يُفَرِّطَ الإنسانُ حتى يضيِّعَ حَقًّا آخَرَ أو عيالًا ونحوَ هذا، وألَّا يضَيِّقَ أيضًا ويقتِّرَ حتى يُجيعَ العيال، ويُفرِطَ في الشُّحِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ النفقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ بأن يَزيدوا على الحدِّ فيَدخلوا في قسمِ التبذيرِ، وإهمالِ الحقوقِ الواجبةِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ فيدخلوا في بابِ البخلِ والشُّحِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وقال ابن عاشور: (أُريدَ بالإنفاقِ هنا الإنفاقُ غيرُ الواجبِ، وذلك إنفاقُ المرءِ على أهلِ بيتِه وأصحابِه؛ لأنَّ الإنفاقَ الواجِبَ لا يُذَمُّ الإسرافُ فيه، والإنفاقَ الحرامَ لا يُحمَدُ مُطلقًا بَلْهَ أن يُذَمَّ الإقتارُ فيه، على أنَّ في قولِه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ إشعارًا بأنَّهم اختاروا أن يُنفِقوا ولم يكُنْ واجِبًا عليهم. والإسرافُ: تجاوُزُ الحَدِّ الذي يقتضيه الإنفاقُ بحسَبِ حالِ المنفِقِ وحالِ المنفَقِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

وقال الشنقيطي: (واعلَمْ أنَّ أظهَرَ الأقوالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ مدَحَ عبادَه الصالحينَ بتوسُّطِهم في إنفاقِهم، فلا يجاوِزون الحدَّ بالإسرافِ في الإنفاق، ولا يَقتُرون، أي: لا يُضَيِّقون فيَبخَلون بإنفاقِ القَدرِ اللازمِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: الإسرافُ في الآيةِ: الإنفاقُ في الحرامِ والباطِلِ، والإقتارُ: منعُ الحقِّ الواجبِ. وهذا المعنى وإن كان حقًّا فالأظهرُ في الآيةِ هو القَولُ الأوَّلُ... والظَّاهِرُ أنَّ التوسُّطَ في الإنفاقِ الذي مدَحَهم به شامِلٌ لإنفاقِهم على أهليهم، وإنفاقِهم المالَ في أوجُه الخيرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٥، ٧٦).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الإنفاقَ شامِلٌ للإنفاقِ على العيالِ والإنفاقِ في سبيلِ الله، وفي الزَّكَواتِ والصَّدَقات، والإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ، وفي كُلِّ ما يكونُ إنفاقًا، قال: (لأنَّه لم يبيِّنِ المتعَلَّقَ، لم يقُلِ اللهُ: «أنفَقوا على عيالِهم»، بل أطلَق؛ فيشمَلُ كُلَّ ما أنفقوه؛ على العيالِ وعلى غيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٩، ٢٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في دعائه: ((وأسألُك القَصدَ[١] في الفَقرِ والغِنى))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشرَبوا وتصَدَّقوا والبَسُوا، في غيرِ مَخِيلةٍ[٣]، ولا سَرَفٍ))[٤].

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

أي: وكان إنفاقُهم مُعتَدِلًا وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ[٥].

---

(١) أي: الاقتِصادَ والتوسُّطَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٧٣٥).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٠٥) واللفظ له، وأحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبَّان في ((صحيحه)) (١٩٧١).
وثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٣٣)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٠٥).

(٣) مَخِيلةٍ: أي: كِبرٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزم قبلَ حديث (٥٧٨٣)، وأخرجه موصولًا النَّسائيُّ (٢٥٥٩) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد (٦٦٩٥).
حسَّنه ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، وصحَّحه الهيتميُّ المكِّيُّ في ((الزواجر)) (٢/ ٣٥)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٢ - ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ تذكيرًا بما هم منه وما يَصيرون إليه، وحثًّا على السَّعيِ في معالي الأخلاقِ للترَقِّي عنه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ استِحبابُ الرِّفْقِ في المَشيِ، وكراهيةُ العُنفِ والاضْطِرابِ، ومِن العُنفِ الضَّربُ بالرِّجلِ والخَفقُ بالنَّعلِ، فإذا كانا بعُجْبٍ وخُيَلاءَ فهو حرامٌ[2]. والمَشيُ الهَونُ مخالِفٌ لمَشْيِ المتجبِّرينَ المُعجَبين بنفوسِهم وقوَّتِهم. وهذا الهَونُ ناشئٌ عن التواضُعِ لله تعالى، والتخَلُّقِ بآدابِ النفْسِ العاليةِ، وزوالِ بطَرِ أهلِ الجاهليَّةِ، فكانت هذه المِشيةُ مِن خلالِ الذين آمنوا على الضِّدِّ مِن مَشيِ أهلِ الجاهليَّةِ... والتخَلُّقُ بهذا الخُلقِ مَظهرٌ مِن مَظاهِرِ التخَلُّقِ بالرَّحمةِ المناسِبِ لعبادِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ، فالهَونُ يناسِبُ ماهيَّتَها، وفيه سلامةٌ مِن صَدمِ المارِّينَ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ليس مِن الهَونِ في المَشيِ التثاقُلُ والتماوُتُ فيه[4]؛ تَصَنُّعًا ورياءً، فقد كان سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ

= قال ابنُ عطية: (القَوامُ، أي: المعتَدِلُ، والقَوامُ في كلِّ واحدٍ بحسَبِ عيالِه وحالِه، وخِفَّةِ ظَهرِه، وصَبرِه وجَلَدِه على الكَسبِ، أو ضِدِّ هذه الخصالِ، وخيرُ الأمورِ أوسَطُها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

صَلَّى الله عليه وسَلَّم إذا مشَى كأنَّما يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ[(١)]، وقد كَرِه بعضُ السَّلَفِ المشيَ بتَضعُّفٍ وتصَنُّعٍ، حتى رُوِيَ عن عُمَرَ أنَّه رأى شابًّا يَمشي رُوَيدًا، فقال: ما بالُك؟! أأنت مَريضٌ؟ قال: لا يا أميرَ المؤمِنينَ، فعلاه بالدِّرَّةِ، وأمَرَه أن يَمشيَ بقُوَّةٍ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ الإغضاءُ عنِ الجاهلِ، ومُقابَلةُ كلمتِه السيِّئةِ بالكلامِ الحسنِ، وكراهةُ مجاراتِه في خِطابِه ومُماثَلتِه، وإذا كان في ذلك فِتنةٌ أو مَفسَدةٌ محقَّقةٌ كان حرامًا[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ اشتمَلت الآيةُ على بيانِ الأدبِ في معاملةِ الجاهلينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، سواءٌ أكانوا مسلمينَ أم غيرَهم، وما اشتملت عليه مِن الأدبِ قد جاء في آياتٍ كثيرةٍ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فهو أدبٌ مشروعٌ مؤكَّدٌ، وحُكمٌ دائمٌ محكَمٌ، وهو في معاملاتِ الأفرادِ كما ترى، فلا ينافي ما شُرِعَ مِن الحربِ عندَ وجودِ أسبابِها، وتوفُّرِ شروطِها بينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧)، وأحمد (٧٤٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٤١٩٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١٠٧)، وصحَّحه البَغَويُّ في ((شرح السنة)) (٦/ ٣٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٦٣٧)، وحسَّن الحديثَ لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٧٤٦).
وقوله: يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ أي: مِن مَوضِعٍ مُنحَدِرٍ، والمعنى: يمشي مشيًا قويًّا سريعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

الأُمَمِ والجماعاتِ، وهي مِن الأمورِ العامَّةِ كما ترى[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ أنْ يُسَلَّمَ على الجاهلِ إذا كان كافرًا، كما قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يَستثْنِ إلَّا قولَه لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهو سلامُ مُوادَعةٍ ومُتارَكةٍ؛ لا سلامُ تحيَّةٍ وكرامةٍ[٢]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ القولُ السَّلامُ مَحمودٌ ومطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وإنما خُصَّتْ حالةُ الخِطابِ بالجاهلِ؛ لأنَّها الحالةُ التي تَثورُ فيها ثائِرةُ الغضَبِ بما يكونُ مِن سَفَهِه ومهاترِته، فعلى المؤمنِ أن يكونَ حاضِرَ البالِ بهذه الآيةِ عندَما تسوقُ إليه الأقدارُ جاهلًا فيُخاطبُه بما لا يُرضيه؛ حتى يَسلَمَ مِن شَرِّه، ويَكسِرَ مِن شِرَّتِه، فيَسلَمَ له عِرْضُه ومروءتُه ودينُه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٦).
ثم قال بعد ذلك: (فبطَلَ قولُ مَن زعمَ أنَّ هذه الآيةَ بالنِّسبةِ لغيرِ المسلمِ مَنسوخةٌ بآيةِ السيفِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ، وآيةَ السيفِ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ أخرى؛ فلا تَنْسَخُ إحداهما الأخرى، وما أكثرَ ما قُتِلَتْ أحكامٌ بآيةِ السيفِ هذه، وهي عندَ التحقيقِ غيرُ معارِضةٍ لها؛ لمُبايَنةِ حالِها لحالِها).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).
وذلك بِناءً على الوجهِ الثاني في الآيةِ، وهو أنَّه يقولُ للجاهلِ هذا اللَّفظَ نفْسَه ﴿سَلَـٰمًا﴾، على أنَّه مفعولٌ به. ويُنظر المصدر السابق أيضًا (ص: ١٩٥).
قال ابنُ عثيمين: (وليس المرادُ ﴿سَلَـٰمًا﴾ يعني: السلامُ عليكم، كما يظُنُّ بعضُ العامَّةِ؛ ولذلك تسلَّط الفعلُ عليها فنصَبها، ولو كان المرادُ بالسلامِ الجملةَ السلاميَّةَ لقال: «قالوا: سلامٌ»). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٢).
وقال السمين: (ورَجَّح سيبويه أنَّ المرادَ بالسَّلام السَّلامةُ لا التسليمُ؛ لأنَّ المؤمنين لم يُؤْمَروا قَطُّ بالتسليمِ على الكفرة، وإنما أُمِروا بالمُسالَمةِ). ((الدر المصون)) (ص: ٣٧١٦).

ويَسلَمَ ذلك الجاهلُ أيضًا مِن اللَّجاجِ في الشَّرِّ والتمادي فيه، فيكونُ المؤمِنُ بقولِه «السَّلام» وتأدُّبِه بأدبِ القرآنِ قد حَصَّلَ السَّلامةَ للجَميعِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ التَّحريضُ على قيامِ اللَّيلِ[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ المُرادُ مِن قولِهم ذلك: فزَعُهم منها، ووَجَلُهم الشديدُ المُستتبِعُ لِتَمسُّكِهم بالتَّقوى، واعتِصامِهم بالسَّببِ الأقوى، لا مجرَّدُ قلقلةِ اللِّسانِ، بلا تأثُّرٍ مِن الجَنانِ؛ فإنَّهم لم يَبتَهلوا إلى المولى ويَتعَوَّذوا به مِن سَعيرِها، إلَّا لعِلمِهم بسوءِ حالِها. ومُقتضى العلمِ بالشَّيءِ إيفاؤُه حقَّه، والعملُ بموجَبِه[3].

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إنَّ جهنَّمَ هي أقبَحُ مُستقَرٍّ، وأقبَحُ مُقامٍ، وإنَّ الدنيا هي مَطيَّةُ الآخرةِ، فمَن ساء مُستقَرُّه ومُقامُه في الدنيا، ساء كذلك مُستقَرُّه ومُقامُه في الآخرةِ، وإنَّ مُلازَمةَ العذابِ في الآخرةِ على قَدْرِ مُلازمةِ المعاصي في الدُّنيا؛ فمَن لازَمَها بالكفرِ ومات عليه دامتْ له تلك الملازَمةُ، ومَن لازَمَها بالإصرارِ على الكبائرِ كانت له على حسَبِ تلك الملازمةِ؛ فعلى العاقلِ أن يُحسنَ مَقرَّه ومُقامَه، وأن يَجتنبَ كلَّ موطنٍ تَلحَقُه فيه المَلامةُ، وأن يَجتنبَ مجالسَ السُّوءِ والبدعةِ، ويلازِمَ مجالسَ الطاعةِ والسُّنَّةِ، وأن يُسرعَ بالتوبةِ مفارِقًا الذنوبَ، وألَّا يُصِرَّ على شَيءٍ مِن القبائحِ والعُيوبِ، وأن يكونَ سريعَ الرُّجوعِ إلى اللهِ، ولو عَظُمَ ذَنبُه وبَلْواه؛ فاللهُ يحِبُّ التوَّابينَ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٧).

ويَغفِرُ للأوَّابينَ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ ذمُّ الإسرافِ والإقتارِ في النَّفَقةِ، ومدحُ التوسُّطِ[(٢)]، فلَمَّا كان المالُ هو أعزَّ شيءٍ في هذه الدنيا، وهو أعظَمُ سببٍ لِنَيلِ مُبتغياتِها؛ وُصِفوا بأنَّهم في تصرُّفاتِهم فيه على أكمَلِ حالٍ، وهي حالةُ العَدلِ التي أثمرَتْها لهم الصَّلاةُ؛ فلا يُمسِكونَه عن حقٍّ، ولا يَبذُلونَه في باطلٍ[(٣)]، وكان التوسُّطُ في الإنفاقِ هو حالَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان مُقتَصِدًا في حالِ فَقرِه وغِناهُ؛ فإن كان فقيرًا لم يقتِّرْ خوفًا مِن نَفادِ الرِّزقِ، ولم يُسرِفْ فيَحمِلَ ما لا طاقةَ له به، كما أدَّب اللهُ تعالى نبيَّه بذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإن كان غنيًّا لم يحمِلْه غِناهُ على السَّرَفِ والطُّغيانِ، بل يكونُ مقتَصِدًا أيضًا، وإن كان المؤمِنُ في حالِ غِناهُ يَزيدُ على نفَقتِه في حالِ فَقرِه، كما قال بعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن الله أدبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّع الله عليه وسَّعَ على نفْسِه، وإذا ضَيَّقَ عليه ضَيَّق على نفْسِه، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]). لكِنْ يكونُ في حال غِناهُ مقتَصِدًا غيرَ مُسرِفٍ، كما يفعلَهُ أكثَرُ أهلِ الغنى الذين يُخرِجُهم الغِنى إلى الطُّغيانِ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[(٤)] [العلق: ٦، ٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٧، ١٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ فأثنَى على عِبادِه بالإعراضِ عن الجاهلينَ ومُتارَكتِهم، وهذا ممَّا يدُلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندَه عزَّ وجَلَّ، وبُغضِه للجَهلِ وأهلِه، وهو كذلك عندَ النَّاسِ؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه، وإن كان فيه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ بيانُ أنَّ هؤلاء يُطيلون القيامَ والسُّجودَ، فما دام بياتُهم على هذا الوَصفِ فمعناه أنَّهم يُطيلون القيامَ والسُّجودَ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ دليلٌ على أنَّ البيتوتةَ هو ضِدُّ الظُّلولِ بالنَّهارِ، لا أنَّه النومُ، وكيف يكونُ نومًا وهو يقولُ: «سُجَّدًا وقيامًا»(٣)؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ زعَم قَومٌ أنَّ أكمَلَ أحوالِ العابدِ أن يعبُدَ اللهَ تعالى لا طمعًا في جنَّتِه، ولا خوفًا مِن نارِه! وهذه الآيةُ وغيرُها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلُها قولُ إبراهيمَ -عليه وعلى آلِه الصلاةُ والسلامُ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي نصوصٍ لا تُحصى كَثرةً، وزعموا أنَّ كمالَ التعظيمِ لله ينافيه أن تكونَ العبادةُ معها خوفٌ مِن عقابِه، أو طمَعٌ في ثوابِه! وأخطؤوا فيما زعموا؛ فإنَّ العبادةَ مَبْناها الخضوعُ والذُّلُّ والافتقارُ، والشعورُ بالحاجةِ والاضْطِرارِ، وإظهارُ العبدِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٣) وسبَق نحوُه مِن كلامِ الزَّجَّاجِ.

هذه العبوديةَ بأتمِّها، ومِن أتمِّ مَظهرٍ لها أن يخافَ ويطمَعَ، كما يذِلُّ ويخضَعُ؛ ففي إظهارِ كَمالِ نَقصِ العبوديَّةِ القيامُ بحَقِّ الإجلالِ والتعظيمِ للربوبيَّةِ؛ ولهذا كان الأنبياءُ -عليهم وآلِهم الصلاةُ والسلامُ- هم أشَدَّ الخلقِ تعظيمًا لله، وأكثَرُهم خوفًا مِن الله، وتعوُّذًا مِن عذابِ الله، وسؤالًا لِما عندَ الله، وكفَى بهم حُجَّةً وقدوةً!

وإنَّ هذه المقالةَ تكادُ تُفضي إلى طرحِ الرجاءِ والخَوفِ، وعليهما مبنى الأعمالِ؛ لِما فيهما مِن ظهورِ العبوديَّةِ بالذُّلِّ والاحتياجِ، ومِثلُ هذه المقالةِ إنما يجُرُّ إليها الغُلوُّ وقلَّةُ الفقهِ في الدينِ، وفي الكتابِ والسُّنةِ، وما كان عليه هَدْيُ السابقينَ الأوَّلينَ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي، ألَا ترى أنَّ اللهَ تعالى جعَلَه في جملةِ ما مدَحَ به عِبادَه في هذا المدحِ؟! ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فسَمَّاه عبادةً[2].

٦- هذه الآيةُ الكريمةُ -التي هي قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ...﴾ الآيةَ- بيَّنَت أحدَ رُكنَي ما يسمَّى الآنَ بالاقتِصادِ، وإيضاحُ ذلك أنَّه لا خِلافَ بيْن العُقَلاءِ أنَّ جميعَ مسائِلِ الاقتصادِ على كَثرتِها واختِلافِ أنواعِها راجِعةٌ بالتَّقسيمِ الأوَّلِ إلى أصلَينِ لا ثالثَ لهما؛ الأوَّلُ منهما: اكتِسابُ المال. والثَّاني منهما: صَرفُه في مَصارِفِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾

- قولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أوصافِ خُلَّصِ عِبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهمُ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ بعْدَ بيانِ حالِ النَّافِرينَ عن عبادتِه والسُّجودِ له[١]. وقيل: إنَّه عطْفُ جُملةٍ على جملةٍ؛ فالجملةُ المعطوفةُ هي: (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) إلخ، والجملةُ المَعطوفُ عليها جُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ...﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ فبِمُناسَبةِ ذِكرِ مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ تُخُلِّصَ إلى خِصالِ المؤْمنينَ أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَستكمِلَ السُّورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَن جاءَ به ومَنِ اتَّبَعوه. وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّصِ؛ إذْ كان مُفاجئًا للسَّامعِ، مُطمِعًا أنَّه استِطرادٌ عارِضٌ كسَوابقِه؛ حتَّى يُفاجِئَه ما يؤْذِنُ بالخِتامِ، وهو: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ...﴾ الآيةَ[٢] [الفرقان: ٧٧].

- وقيل: وُصِلَتِ الجُملةُ بما قبْلَها بالواوِ؛ لاشتِراكِهما في القَصدِ، وهو التَّعريفُ بالرَّحمنِ وبعِبادِه[٣].

- قولُه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ...﴾ أضافَهم إلى الرَّحمنِ؛ تَخصيصًا وتَشريفًا وتَفضيلًا وتَقريبًا، أو لأنَّهمُ الرَّاسِخونَ في عِبادتِه، على أنَّ (عِبَاد) جَمعُ عابِدٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).

كتاجِرٍ وتِجَارٍ. وفيه تَعريضٌ بأُولئِكَ المُتجاهِلينَ المُتكبِّرينَ المُبعَدِينَ[١].

وأضافهم إلى وَصفِ الرَّحمةِ الأبلَغِ الذي أنكرَه أولئك؛ تبشيرًا لهم[٢]، وإشارةً إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه الحالِ بسببِ رحمتِه[٣]، فعبادتُهم للهِ كانت مِن مقتضياتِ رحمتِه، ومِن ناحيةٍ أُخرَى أنَّهم يَرجونَ بهذه العبادةِ رحمةَ ربِّهم، لا يرجونَ بذلك دُنيا، ولا دفْعَ مَذمَّةٍ عنهم، وإنَّما يرجون بهذا رحمةَ الله[٤]. ثمَّ وصفَهم بضِدِّ ما وَصَف به المتكبِّرين عن السُّجودِ؛ إشارةً إلى أنَّهم تخلَّقوا مِن هذه الصِّفةِ التي أُضيفوا إليها بأمرٍ كبيرٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾[٥].

- وأيضًا في تَعريفِ القرآنِ لعِبادِ الرَّحمنِ بعْدَ تَعريفِه بالرَّحمنِ: تَشريفٌ كَبيرٌ لهم، وتَبكيتٌ لأولئك المُتجاهِلين المُتكبِّرين[٦].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ﴿هَوۡنٗا﴾ حالٌ، أو صِفةٌ للمَشيِ، بمعنَى: هَيِّنِينَ. أو: مَشْيًا هَيِّنًا، إلَّا أنَّ في وضعِ المَصدرِ مَوضِعَ الصِّفةِ مُبالَغةً[٧].

- وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كان الخَبرُ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ إلى آخِرِ المَعطوفاتِ، وكان قَولُه الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١).

استئنافًا لبيانِ كَونِهم أَحْرياءَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ. وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ جميعَ المؤْمنينَ المتَّصِفينَ بمَضمونِ تلك الصِّلاتِ؛ كانتْ تلك المَوصولاتُ وصِلاتُها نُعوتًا لـ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وكان الخبرُ اسمَ الإشارةِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥] إلخ(١).

- قولُه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ تركيبٌ كِنائيٌّ، أُريدَ به معناهُ، ولازِمُ معناهُ؛ فهم يَمْشُون هيِّنِينَ برِفْقٍ وتثبُّتٍ، لا يَضْرِبون بأقدامِهم ولا يَخفِقون بنِعالِهم أشَرًا وبطَرًا، هذا أصْلُ المعنى، وهو مُرادٌ. ومُرادٌ أيضًا لازِمُه؛ وهو: سُهولتُهم، وتواضُعُهم، وعدَمُ تكبُّرِهم، ورِفْقُهم في الأمورِ، وبُعدُهم عن الإفسادِ. ومُرادٌ لازمٌ آخَرُ أيضًا: وهو سَيْرُهم في الحياةِ، وتصرُّفُهم في جميعِ الأمورِ، ومُعامَلتُهم للنَّاسِ، فإذا كانوا أهْلَ رِفْقٍ وسُهولةٍ في مِشيَتِهم في الأرضِ، فكذلك هم أهْلُ رِفقٍ وسُهولةٍ في الأمورِ الأخرى ممَّا ذكَرْنا؛ لأنَّ الرِّفقَ والسُّهولةَ خُلُقٌ فيهم، فكما هو في المشْيِ هو في غيرِه. وكانتِ الصِّلةُ بالمُضارِعِ؛ لِيُفيدَ التَّجدُّدَ؛ فإنَّ المشْيَ في الأرضِ ضَروريٌّ للإنسانِ(٢).

- وفي الإطنابِ بصِفاتِهمُ الطَّيِّبةِ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين أبَوُا السُّجودَ للرَّحمنِ وزادَهُم نُفورًا هُم على الضِّدِّ مِن تِلك المَحامِدِ؛ تعَريضًا تُشعِرُ به إضافةُ (عِبَاد) إلى (الرَّحْمَنِ)(٣).

- قولُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ ذِكْرُهم بصِفةِ الجاهِلينَ دُونَ غَيرِها ممَّا هو أشَدُّ مَذمَّةً -مِثلَ الكافِرينَ-؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يُشعِرُ بأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٧).

الخِطابَ الصَّادرَ منهم خِطابُ الجَهالةِ والجَفْوة[١].

- ولأجْلِ المناسَبةِ بيْن الصِّيغتَين -﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ﴿خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾- عُطِفَتْ هذه الجُملةُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ على الصِّلةِ الأُولى، ولم يُكرَّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في الصِّفاتِ بعْدَها[٢]؛ فقولُهم للجاهلينَ: (سَلامًا) مِن مُقْتضى هَوْنِهم ورِفْقِهم؛ فلذلك قُرِنَ به، وعُطِفَ عليه[٣].

- وكان المعطوفُ على الصِّلةِ -﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾- بصُورةِ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾؛ لأنَّ خِطابَ الجاهلينَ لهم ليس ممَّا يكونُ دائمًا. وكان التَّعليقُ بـ (إذا)؛ لأنَّ مُخاطَبةَ الجاهلينَ لهم بالسُّوءِ أمْرٌ مُحقَّقٌ. ومتى سلِمَ أهْلُ العلْمِ والدِّينِ مِن الجاهلينَ؟! ولم يَذكُرْ ما يُخاطِبُهم به الجاهلونَ؛ للعلْمِ بأنَّ خِطابَ الجاهلِ -أي: السَّفيهِ- لا يكونُ إلَّا سوءًا ممَّا يُمْلِيه عليه جهْلُه وسفَهُه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ بيانٌ لحالِهم في مُعامَلتِهم مع ربِّهم[٥].

- وإعادةُ لفْظُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لتأكيدِ أنَّهم يُعرَفون بهذه الصِّلةِ، ولاستقلالِ الحالةِ الثَّانيةِ عن الأُولى[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

- وتَخصيصُ البَيْتوتةِ؛ لأنَّ العبادةَ باللَّيلِ أَبعَدُ عنِ الرِّياءِ[١].

- وقُدِّمَ الجارُّ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لِيُفيدَ تَخصيصَ عِبادتِهم بربِّهم، ويُفيدَ الكلامُ عِبادتَهم وإخلاصَهم[٢]، وأنَّهم لا يقومون رياءً ولا سُمعةً، وإنما يقومون لله وحْدَه[٣].

- قولُه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قُدِّم السُّجودُ وإنْ كان مُتأخِّرًا في الفِعلِ؛ لأجْلِ مُناسَبةِ الفَواصلِ، مع الإشارةِ إلى الاهتِمامِ بالسُّجودِ، وأيضًا لفَضلِ السُّجودِ؛ لأنَّ السُّجودَ أقرَبُ أحوالِ العَبدِ للربِّ، وأَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ فيها مِنَ اللهِ وهو ساجِدٌ[٤].

- وأيضًا لَمَّا كان السُّجودُ أشَدَّ أركانِ الصَّلاةِ تقريبًا إلى اللهِ، لكَونِه أَنْهى الخُضوعِ مع أنَّه الَّذي أَباهُ الجاهِلونَ؛ قدَّمَه لذلك، فقال: ﴿سُجَّدًا﴾، وأَتْبَعَه ما هو تِلْوُه في المَشقَّةِ تحقيقًا، فقال: ﴿وَقِيَامًا﴾[٥].

- وفي الإطنابُ في التَّعبيرِ عنِ الصَّلاةِ برُكْنَيْها في قولِه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾: تَنويهٌ بكِلَيْهما[٦].

- ولم يَذكُرِ اللهُ الرُّكوعَ، ولم يَذكُرِ القُعودَ؛ لأنَّ القيامَ أَشرَفُ ما في الصَّلاةِ مِن حيث ذِكْرُه، أي: مِن حيث الذِّكرُ الَّذي هو القُرآنُ، والسُّجودُ أَشرَفُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

في الصَّلاةِ مِن حيث الحالُ والهَيْئةُ، قال صَّلى اللهُ عليه وسَلَّمَ: ((أَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ))(١)، فذَكَر القيامَ لشَرَفِه بذِكرِه، أي: بما يُقالُ فيه، وذَكَر السُّجودَ لشَرَفِه بهَيْئتِه؛ فدَلَّ لذلك على أنَّ هذا أَفضَلُ حالاتِ الصَّلاةِ، وهو كذلك(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ عَقَّبَ وصْفَهم بإحياءِ اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ بذِكرِ دَعوتِهم هذه؛ إيذانًا بأنَّهم مع اجتِهادِهم خائِفونَ مُبتهِلونَ إلى اللهِ في صَرفِ العذابِ عنهم؛ لعدَمِ اعتِدادِهم بأعمالِهم ووُثوقِهم على استِمرارِ أحوالِهم، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾(٣) [المؤمنون: ٦٠].

- والتَّعليلانِ: قيل: يَصِحُّ أن يَكونَا مُتَداخِلَينِ -أي: يكونَ قَولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، وقَولُه: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾- أو مُترادِفَينِ؛ أي: يَكونَا تَعليلَينِ لقَولِه: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾(٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ تَعليلٌ للجُملةِ الدُّعائيَّةِ، وفُصِلَت عنها لكَمالِ الانقطاعِ بيْنهما، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ مُؤكِّدةٌ لمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها مع اختلافٍ في المعنى؛ فإنَّ ما أفادَتْه الأُولى مِن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).



فَداحةِ عَذابِها ومُلازَمتِه، أكَّدتْه الثَّانيةُ بما أفادَتْه مِن مُقامِه ومُستقَرِّها، ففُصِلَت عنها؛ لِمَا بيْنهما مِن كَمالِ الاتِّصالِ، نَظِيرُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ٢]. والتَّأكيدُ فيها بـ (إنَّ)؛ لأنَّه قد لُوِّحَ وأُشِيرَ في الكلامِ السَّابقِ إلى هذا الخبرِ، وشأْنُ السَّامعِ لهذا أنْ يَستشرِفَ له استشرافَ المُتردِّدِ الطَّالبِ، فيُنزَّلُ مَنزِلةَ المُتردِّدِ، فيُؤكَّدُ له الخبرُ. ووجْهُ التَّلويحِ بهذا الخبرِ: أنَّه لمَّا سُئِلَ صرْفَ عذابِ جهنَّمَ، كان هذا مُشيرًا إلى قُبْحِ هذا العذابِ وشِدَّتِه. فهذا نظيرُ ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[1] [هود: ٣٧].

- وقيل: يَجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ حِكايةً لكلامِ القائِلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتَعليلِهمُ الأوَّلِ. وأن تَكونَ مِن جانبِ اللهِ تعالى دُونَ الَّتي قَبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتَعليلِ القائِلينَ. وأنْ تكونَ مِن كلامِ اللهِ مع الَّتي قَبلَها؛ فتكونَ تَكريرًا للاعتِراضِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها مَضرَّةً خالِصةً عن شَوائِبِ النَّفعِ. وقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها دائمةً[3].

- ويَظهَرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَمُقَامٗا﴾ مَعطوفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ الاستِقرارَ والإقامةَ كأنَّهما مُترادِفانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾

- أفادَ قَولُه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ الإنفاقَ مِن خِصالِهم؛ فكأنَّه قال: والَّذين يُنفِقونَ، وإذا أنفَقوا... إلخ(١).

- قولُه: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ ﴿قَوَامٗا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، فلو قيل: (وكان بيْن ذلك) لكان كافيًا، ولكنْ أكَّدَ بـ ﴿قَوَامٗا﴾؛ لِمَا فيه مِن صَريحِ اللَّفظِ المُفهِمِ للعَدْلِ. والإنفاقُ يكونُ ولا يكونُ، والشَّأنُ أنْ يكونَ؛ ولهذا عُلِّقَ، وكان التَّعليقُ بـ (إذا). وقدَّمَ نفْيَ السَّرَفِ على نفْيِ التَّقتيرِ؛ لأنَّ الإسرافَ شرُّهما؛ ففيه مُجاوَزةُ الحدودِ، وضَياعُ المالِ، وفي التَّقتيرِ مَفسدَتُه مع بقاءِ المالِ، فيُنفِقُه في الخَيرِ، وقد يَبْقى لغيرِه فيَنتفِعُ به(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٧).

الآيات (٦٨-٧١)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثَامًا﴾: أي: عُقوبةً ونَكالًا، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ، والإثمُ مشتقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[١].

﴿مُهَانًا﴾: أي: ذليلًا مُبعَدًا، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذِلَّةٍ[٢].

﴿مَتَابًا﴾: أي: رجوعًا، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٣].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾

﴿يُضَاعَفْ﴾: مضارعٌ مجزومٌ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ ﴿يَلْقَ﴾؛ إذ كان مِن مَعناه؛ لأنَّ مُضاعَفةَ العذابِ لُقِيُّ الأثامِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٣).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين لا يُشرِكونَ باللهِ غَيرَه، ولا يَقتُلون نفْسًا حرَّم اللهُ قَتلَها إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ، ولا يقَعون في فاحِشةِ الزِّنا، ومَن يفعَلْ ذلك الذي نَهَينا عنه مِمَّا تقدَّمْ، يجِدْ عِقابًا شَديدًا؛ يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ، ويَبْقَ في ذلك العذابِ ذليلًا مُهانًا، إلَّا مَن تاب وآمنَ وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً؛ فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه وكَرَمِه، وكان اللهُ تعالى واسِعَ المَغفِرة والرَّحمةِ لِمَن تاب إليه وأناب، ومَن تاب عن المعاصي وداوَمَ على العمَلِ الصالحِ لِيَستدرِكَ ما فاته منه؛ فإنَّه يكونُ قد تاب ورجعَ إلى الله تعالى رُجوعًا صحيحًا مَقبولًا منه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه ما تَحَلَّوا به مِن أصولِ الطَّاعاتِ بما لهم مِن العَدلِ والإحسانِ بالأفعالِ والأقوالِ في الأبدانِ والأموالِ؛ أتبَعَه ما تَخَلَّوا عنه مِن أمَّهاتِ المعاصي التي هي الفَحشاءُ والمُنكَرُ(١).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كفَّارةً، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٥).

مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣])[١].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: والذين لا يَدْعون مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل يُخلِصون العبادةَ للهِ وحْدَه، ولا يُشرِكون به شَيئًا[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ، أو سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الذنبِ عند الله أكبَرُ؟ قال: أن تجعَلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ أن تقتُلَ ولَدَك خَشيةَ أن يَطعَمَ معك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك. قال: ونزَلَت هذه الآيةُ تصديقًا لِقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾))[٣].

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفى عنهم ما يُوجِبُ قتْلَ أنفُسِهم بخَسارتِهم إيَّاها؛ أتبَعَه نفيَ قتْلِ غَيرِهم[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عثيمين: (و﴿لَا يَدْعُونَ﴾... يعني: لا يدْعون دعاءَ مسألةٍ، ولا يَدْعون دعاءَ عبادةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٦١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٤).

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

أي: ولا يَقتُلون مَن حرَّم اللهُ قَتْلَهم إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ يخوِّلُ قَتْلَهم[١].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ[٢]، وحِسابُهم على اللهِ))[٣].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه القتلَ الجليَّ؛ أتبَعَه الخفيَّ بتضييعِ نَسَبِ الولَدِ، فقال: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: رحمةً لِمَا قد يحدُثُ مِن ولَدٍ؛ إبقاءً على نَسَبِه، ورحمةً للمَزْنيِّ بها ولأقاربِها أنْ تُنتَهكَ حُرُماتُهم، مع رحمتِه لنَفْسِه، على أنَّ الزِّنا جارٌّ أيضًا إلى القَتلِ والفِتَنِ، وفيه التسبُّبُ لإيجادِ نَفْسٍ بالباطلِ، كما أنَّ القتلَ تَسَبُّبٌ إلى إعدامِها بذلك[٤].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابنُ عثيمين: (والنَّفسُ التي حرَّم اللهُ: أربعةُ أنفُسٍ: المسلمُ، والذمِّيُّ، والمعاهَدُ، والمستأمِنُ. هذه هي الأنفُسُ التي حرَّم اللهُ، فهذه الأربعةُ أنفُسٍ مُحرَّمةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٤).

(٢) إلَّا بحَقِّ الإسلام: أي: مِن قَتْلِ نَفْسٍ، أو حَدٍّ، أو غَرامةٍ بمُتْلَفٍ، أو تَركِ صَلاةٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

أي: ولا يقعونَ في الزِّنا فيأتونَ الفَرْجَ الحرامَ بلا نِكاحٍ ولا مِلكِ يَمينٍ[١].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر في صدرِ الآيةِ نَفْيَ تلك المعاصي عن عبادِ الرحمنِ -الذي يُفيدُ النهيَ عنها-؛ ذَكَرَ هذا الوعيدَ لبيانِ سوءِ عاقبتِها، وقُبحِ أثَرِها[٢].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

أي: ومَن يفعَلْ تلك الأفعالَ؛ مِن الشِّركِ باللهِ، وقَتلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ، والزِّنا- يجِدْ جزاءَه وعِقابَه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨).

قال ابنُ عاشور: (المتبادِرُ مِن الإشارةِ أنَّها إلى المجموعِ، أي: مَن يفعَلْ مجموعَ الثلاثِ. ويُعلَمُ أنَّ جزاءَ من يفعَلُ بعضَها ويترك بعضًا عدا الإشراكِ: دونَ جزاءِ من يفعَلُ جميعَها، وأنَّ البعضَ أيضًا مراتِبُ، وليس المرادُ: من يفعلْ كُلَّ واحدةٍ مِمَّا ذُكِرْ يلقَ أثامًا؛ لأنَّ لُقِيَّ الآثام بُيِّن هنا بمُضاعفةِ العذابِ والخلودِ فيه، وقد نَهَضت أدِلَّةٌ مُتظافرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ على أنَّ ما عدا الكُفرَ من المعاصي لا يوجِبُ الخلودَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ الجزاءَ هنا على المجموعِ، أي: ما ذُكِر مِن الشِّركِ بالله، وقتلِ النفْسِ بغيرِ حقٍّ، والزِّنا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ جُزي، والقاسميُّ، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨)، =

﴿ يُضَـٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ ﴾.

﴿ يُضَـٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: يُغلِّظِ اللهُ له عذابَه يومَ القيامةِ ويُكَرِّرْه[1].

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٤/ ٣٠١).

وممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: ومَن يفعَلْ شَيئًا ممَّا ذُكِر: مكِّي، والماوردي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال البقاعي: (ولا يُقالُ: إنَّ الإشارةَ تَرجِعُ إلى المجموعِ؛ فالتهويلُ خاصٌّ بمَن ارتكَبَ مجموعَ هذه الذُّنوبِ؛ لأنَّا نقول: السِّياقُ يأباه؛ لأنَّ تكرارَ «لا» أفاد -كما حقَّقه الرَّضِيُّ- وُرودَ النَّفيِ على وقوعِ الخِصالِ الثلاثِ حالَ الاجتِماعِ والانفرادِ، فالمعنى: لا يوقِعون شَيئًا منها، فكان معنى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: ومَن يفعَلْ شَيئًا من ذلك؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على ما ورَدَ عليه النَّفيُ، فيحصُلَ التناسُبُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

قال الزمخشري: (إذا ارتكب المُشرِكُ معاصيَ مع الشِّركِ، عُذِّب على الشِّركِ وعلى المعاصي جميعًا؛ فتُضاعَفُ العقوبةُ لمُضاعَفةِ المعاقَبِ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤).

وقال ابن عثيمين: (إنما ضُوعِفَ له العذابُ لأنَّه فعَل ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وهي: الإشراكُ بالله، وقتلُ النفْسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأسبابَ إذا اجتمعَت صار لكلِّ واحدٍ منها أثَرُه، فمَن فعَل شيئًا واحدًا مِن الثلاثةِ فعليه إثمُه، ومَن فعَل اثنين فعليه إثمُهما، ومَن فعَل ثلاثًا فعليه إثمُهن. فهذا وجْهُ التضعيفِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وقال البقاعي: (ومُضاعَفةُ العذابِ -والله أعلمُ- إتيانُ بعضِه في إثرِ بَعضٍ بلا انقِطاعٍ، كما كان يُضاعِفُ سيِّئتَه كذلك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧).

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

أي: ويَبْقَ المُشرِكُ العاصي في العذابِ المُضاعَفِ إلى الأبَدِ ذَليلًا حَقيرًا[١].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى عظائمَ الذنوبِ وأكبرَ كبائرِها، وتَوَعَّدَ بالوعيدِ الشَّديدِ عليها؛ عَقَّبَها بذِكْرِ التوبةِ منها، ورَغَّبَ فيها؛ لِيُنَبِّهَ عِبادَه على طريقِ الرجوعِ إليه، وأنَّ مَن تاب منهم إلى اللهِ تاب اللهُ عليه[٢].

سَببُ النُّزولِ:

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((نزَلَت هذه الآيةُ بمكَّةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢، ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (الوعيدُ بالخلودِ لمن فعلها كلَّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذا لمن أشرَك بالله، وكذلك الوعيدُ بالعذابِ الشديدِ على كلِّ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ؛ لكونِها إمَّا شركٌ وإما مِن أكبرِ الكبائرِ، وأمَّا خلودُ القاتلِ والزاني في العذابِ، فإنَّه لا يتناوَلُه الخلودُ؛ لأنَّه قد دلَّت النصوصُ القرآنيةُ والسنَّةُ النبويَّةُ أنَّ جميعَ المؤمنينَ سيخرجون من النارِ، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ ولو فعَل مِن المعاصي ما فعَل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وأيضًا قيل: يُرادُ مِن الخُلودِ المُكثُ الطويلُ الصادقُ بالخلودِ الأبَديِّ وغيرِه، ويكونُ لِمَن أشرَك باعتبارِ فَردِه الأوَّلِ، ولِمَنِ ارتكَب إحدى الكبيرتينِ الأخيرتينِ باعتبارِ فَردِه الآخِرِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٤).

مُهَانًا ﴾ فقال المُشرِكون: وما يُغْني عنَّا الإسلامُ، وقد عدَلْنا باللهِ، وقد قتَلْنا النفْسَ التي حرَّم اللهُ، وأتَيْنا الفواحِشَ؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾))[1].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن تاب مِن الشِّركِ وقتْلِ النَّفسِ المحرَّمةِ والزِّنا، فنَدِمَ على ذلك وأقلَعَ عنه، وآمَنَ بما وجَبَ عليه الإيمانُ به، وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِرَسولِه- فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه ورَحمتِه[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦ - ١٢٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (قَوْلُهُ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ اختلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك؛ فقالَ بعضُهم: معناه: فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ، فيُبَدِّلُه بالشِّركِ إيمانًا، وبقِيلِ أهلِ الشِّركِ بالله قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: فأولئك يبدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم في الدُّنيا حسناتٍ لهم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦، ٥١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ اللهَ يبدِّلُ سيِّئاتِهم حسناتٍ يومَ القيامةِ: الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سَلمانُ الفارسيُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، ومَكحولٌ، وعليُّ ابن الحسينِ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال ابن كثير: (... تلك السيِّئاتُ الماضيةُ تنقلِبُ بنفْسِ التَّوبةِ النَّصوحِ حسناتٍ، وما ذاك إلَّا أنَّه كُلَّما تذكَّر ما مضى نَدِمَ واسترجَع واستغفَر، فيَنقلِبُ الذنبُ طاعةً بهذا الاعتِبارِ. فيومَ القيامةِ =

= وإنْ وجَدَه مكتوبًا عليه لكنَّه لا يضُرُّه، ويَنقلِبُ حسنةً في صحيفتِه، كما ثبتَت السُّنَّةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المَرويَّةُ عن السلَفِ رحمهم اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧).

وقال السمعاني: (قال الحسَنُ البَصريُّ ومُجاهِدٌ وجماعةٌ: هذا في الدُّنيا. ومعناه: تَبديلُ الكُفرِ بالإيمانِ، والشِّركِ بالإخلاصِ، والمَعصيةِ بالطَّاعةِ. وقال سعيدُ بنُ المُسيِّبِ وجماعةٌ: هذا في الآخرةِ، واللهُ تعالى يُبدِّلُ سَيِّئاتِ التَّائبِ بالحَسناتِ في صحيفتِه. وقد ورد في القولِ الثاني خبرٌ صحيحٌ ... عن أبي ذَرٍّ، أن النبيَّ قال: «يؤتَى بالمؤمِنِ يومَ القيامة فيُعرَضُ عليه صِغارُ ذنوبِه، ويخبَّأُ عنه كِبارُها، فيُسألُ ويعترِفُ وهو مشفِقٌ من الكبائرِ، فيقولُ الله تعالى: أعطوه مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حَسنةً، فيقولُ: يا ربِّ، إنَّ لي ذنوبًا ولا أراها هاهنا؟ فضَحِك رسولُ الله حتى بدت نَواجِذُه». أخرجه مسلم في صحيحه. وعن أبي هريرة أنه قال: يُعطى المؤمِنُ صَحيفتَه يومَ القيامةِ، فيَقرأُ بَعضَها وإذا هي سيِّئاتٌ، فإذا وصَل إلى الحَسَناتِ ينظُرُ نظرةً فيما قبْلَها، فإذا هي كلُّها صارت حسناتٍ. وقد أنكر جماعةٌ مِن المتقدِّمينَ أن تنقَلِبَ السيِّئةُ حسنةً، منهم الحسنُ البصريُّ وغيرُه، وإذا ثبت الخبَرُ عن النبيِّ لم يَبْقَ لأحدٍ كلامٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤).

وقال ابن القيم: (فهذا حديثٌ صحيحٌ، ولكِنْ في الاستدلالِ به على صِحَّةِ هذا القول نظَرٌ؛ فإنَّ هذا قد عُذِّب بسيِّئاتِه ودخَل بها النارَ، ثمَّ بعْدَ ذلك أُخرِجَ منها، وأُعطِيَ مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً، صَدقةً تصَدَّقَ الله بها عليه ابتِداءً بعددِ ذنوبِه، وليس في هذا تبديلُ تلك الذنوبِ بحسناتٍ؛ إذ لو كان كذلك لَما عوقِب عليها كما لم يعاقَبِ التائِبُ، والكلامُ إنَّما هو في تائبٍ أُثبِتَ له مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةٌ، فزادت حسناتُه، فأين في هذا الحديثِ ما يدُلُّ على ذلك؟

والناسُ استقبَلوا هذا الحديثَ مستدِلِّينَ به في تفسيرِ هذه الآيةِ على هذا القولِ، وقد عَلِمتَ ما فيه، لكنْ للسَّلَفِ غَورٌ ودقَّةٌ فَهمٍ لا يُدرِكُها كثيرٌ مِن المتأخِّرينَ. فالاستدلالُ به صحيحٌ بعْدَ تمهيدِ قاعدةٍ إذا عُرِفت عُرِف لُطفُ الاستدلالِ به ودقَّتُه، وهي أنَّ الذنبَ لا بدَّ له مِن أثرٍ، وأثرُه يرتفِعُ بالتوبة تارةً، وبالحسناتِ الماحيةِ تارةً، وبالمصائبِ المكَفِّرةِ تارةً، وبدخولِ النَّارِ ليتخلَّصَ مِن أثرِه تارةً، وكذلك إذا اشتَدَّ أثَرُه، ولم تَقْوَ تلك الأمورُ على مَحوِه، فلا بدَّ إذنْ مِن دخولِ النارِ؛ لأنَّ الجنةَ لا يكونُ فيها ذرَّةٌ مِن الخبيثِ، ولا يدخلُها إلَّا مَن طاب مِن كلِّ وجهٍ، فإذا بقِيَ عليه شيءٌ مِن خَبَثِ الذُّنوبِ أُدخِلَ كِيرَ الامتحانِ؛ ليَخلُصَ ذهَبُ إيمانِه مِن خَبَثِه، فيصلُحَ حينَئذٍ لدارِ المَلِكِ.

إذا عُلِمَ هذا فزوالُ موجبِ الذنبِ وأثرِه تارةً يكونُ بالتوبةِ النصوحِ، وهي أقوى الأسبابِ، وتارةً يكونُ باستيفاءِ الحقِّ منه وتطهيرِه في النارِ، فإذا تطهَّر بالنارِ وزال أثرُ الوسَخِ والخَبَثِ عنه، =

= أُعطيَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فإذا تطهَّر بالتوبةِ النصوحِ وزال عنه بها أثَرُ وسَخِ الذنوبِ وخَبَثِها، كان أَوْلى بأن يُعطى مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً؛ لأنَّ إزالةَ التوبةِ لهذا الوسخِ والخبَثِ أعظمُ من إزالةِ النارِ، وأحَبُّ إلى الله، وإزالةُ النَّارِ بَدَلٌ منها، وهي الأصلُ؛ فهي أَولى بالتبديلِ ممَّا بعْدَ الدخولِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٠، ٣١١).

وممَّن اختار أنَّ التَّبديلَ في الدُّنيا، وأنَّ المعنى: فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهم حَسَناتٍ، بنَقلِهم عمَّا يَسخَطُه اللهُ مِن الأعمالِ إلى ما يَرضى، ويكونُ ذلك سببًا لِرَحمتهم: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، السمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ، وعطاءُ بن أبي رباح، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال البغوي: (ذهَب جماعةٌ إلى أنَّ هذا التَّبديلَ في الدُّنيا. قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، والضحَّاكُ: يُبَدِّلُهم اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ؛ فيُبَدِّلُهم بالشِّركِ إيمانًا، وبقَتلِ المؤمِنينَ قَتلَ المُشرِكينَ، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا. وقال قومٌ: يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم التي عَمِلوها في الإسلامِ حَسَناتٍ يومَ القيامةِ. وهو قَولُ سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، ومَكحولٍ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨).

وقال ابنُ القيم: (وأصلُ القولَينِ أنَّ هذا التبديلَ هل هو في الدنيا أو يومَ القيامةِ؟ فمَن قال: إنَّه في الدُّنيا؛ قال: هو تبديلُ الأعمال القبيحةِ والإراداتِ الفاسدةِ بأضْدادِها، وهي حَسَناتٌ، وهذا تبديلٌ حقيقةً ... الصوابُ إن شاء الله في هذه المسألةِ أن يُقال: لا ريبَ أنَّ الذنْبَ نفْسَه لا ينقلِبُ حَسنةً، والحسنةُ إنَّما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهيَّاتِ إنَّما يُثابُ على كفِّ نفْسِه وحَبْسِها عن مُواقَعةِ المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو متعلَّقُ الثَّوابِ ... وإذا كانت الحسَنةُ لا بدَّ أن تكونَ أمرًا وجوديًّا فالتَّائِبُ مِن الذُّنوبِ التي عَمِلها قد قارَن كلَّ ذَنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفْسَه عنه، وعَزَم على تركِ معاودتِه، وهذه حَسَناتٌ بلا ريبٍ، وقد محَتِ التوبةُ أثرَ الذَّنبِ، وخَلَفَه هذا النَّدمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ قد بَدَّلت تلك السيِّئةَ حَسنةً... فإذا كانت كلُّ سيئةٍ مِن سيِّئاتِه قد تاب منها فتوبتُه منها حسَنةٌ حَلَّت مكانَها، فهذا معنى التَّبديلِ، =

= لا أنَّ السيِّئةَ نفْسَها تنقلِبُ حسنةً. وقال بعضُ المفَسِّرينَ في هذه الآيةِ: يُعطيهم بالنَّدَمِ على كلِّ سيِّئةٍ أساؤوها حسنةً، وعلى هذا فقد زال -بحمدِ الله- الإشكالُ، واتَّضَح الصَّوابُ، وظهَر أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الطائفتَينِ ما خرجت عن موجبِ العلمِ والحُجَّةِ. وأمَّا حديثُ أبي ذَرٍّ -وإن كان التبديلُ فيه في حَقِّ المُصِرِّ الذي عُذِّب على سيِّئاته- فهو يدُلُّ بطَريقِ الأَولى على حصولِ التبديلِ للتائبِ المقلِعِ النادِمِ على سيئاتِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ التي عُذِّب عليها المصِرُّ لَمَّا زال أثرُها بالعقوبةِ بَقِيَت كأنْ لم تكُنْ، فأعطاه الله مكانَ كُلِّ سيئةٍ منها حسَنةً؛ لأنَّ ما حصَل له يومَ القيامةِ مِن النَّدَمِ المُفرِطِ عليها مع العُقوبةِ، اقتضى زوالَ أثرِها وتبديلَها حَسَناتٍ، فإنَّ النَّدَمَ لم يكُنْ في وقتٍ ينفَعُه، فلمَّا عوقِبَ عليها وزال أثَرُها بدَّلها اللهُ له حسناتٍ، فزوالُ أثَرِها بالتَّوبةِ النصوحِ أعظَمُ من زوالِ أثَرِها بالعُقوبةِ، فإذا بُدِّلت بعْدَ زوالِها بالعقوبةِ حَسَناتٍ فلَأنْ تُبدَّلَ بعْدَ زوالِها بالتَّوبةِ حَسَناتٍ أَولى وأَحرى). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٢٤٥-٢٥٠). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٠ - ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٦).

قال السعدي: (تتبدَّلُ أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مُستَعِدَّةً لعملِ السيِّئاتِ، تتبدَّلُ حَسَناتٍ، فيتبدَّلُ شِركُهم إيمانًا، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفْسُ السيِّئاتِ التي عمِلوها ثمَّ أحدَثوا عن كلِّ ذنْبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تُبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهِرُ الآيةِ، وورد في ذلك حديثُ الرجُلِ الذي حاسبه اللهُ ببعضِ ذنوبِه فعدَّدها عليه، ثم أُبدِلَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ، إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا. واللهُ أعلمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (التبديل: جَعْلُ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَريٌّ أو تبديلٌ جزائيٌّ؟

اختلَف في ذلك أهلُ العِلمِ؛ فمِنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ، ومنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الذين يقولون: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ يقولون: إنَّ معنى تبديلِ السَّيِّئاتِ حَسَناتٍ أنَّه لَمَّا آمَن وعَمِل عمَلًا صالحًا صار بدَلَ الشِّركِ إيمانٌ، وصار بدَلَ الزنا وقَتلِ النَّفسِ عمَلٌ صالحٌ، معناه: أنَّ هذا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ صار بدلًا عن الكُفرِ والزِّنا وقَتلِ النَّفسِ، فالمعنى أنَّ إيمانَه وعمَلَه الصَّالحَ الذي فعَلَه هو الحَسَناتُ التي أبدَل اللهُ السيِّئاتِ بها؛ فيكونُ هذا التبديلُ قدَريًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أن هذه المعاصيَ نفْسَها تكونُ حَسَناتٍ، يُبدِّلُ الله السيِّئاتِ السابقةَ يجعَلُها حسَناتٍ، بالإضافةِ إلى حَسَناتِه الأخيرةِ التي قُدِّرت له ففعَلَها، وكيف ذلك؟ يقولون: =

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجَنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها: رجُلٌ يؤتَى به يومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعَمْ، لا يَستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سَيِّئةٍ حَسَنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رأيتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ضَحِك حتى بَدَت نَواجِذُه))[1].

وعن أبي طويلٍ شَطبٍ الممدودِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه أتى رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ((أرأيتَ رجُلًا عَمِلَ الذُّنوبَ كُلَّها، فلم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجَةً ولا داجَةً[2] إلَّا أتاها، فهل له مِن توبةٍ؟ قال: فهل أسلَمْتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّك رَسولُ الله، قال: نعَمْ، تفعَلُ الخَيراتِ، وتَترُكُ السيِّئاتِ، فيَجعَلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كُلَّهنَّ، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟! قال: نعَمْ، قال: اللهُ أكبَرُ! فما زال يُكبِّر حتى

= لأنَّ هذه السيِّئاتِ لَمَّا تاب منها صار له بكلِّ توبةٍ مِن هذه السيِّئاتِ حَسَنةٌ، فأُبدِلت السيِّئاتُ حَسَناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنَّه كلَّما تذكَّر ما سبَق مِن أعمالِه السيِّئةِ أحدَثَ لها توبةً؛ فصارت هذه الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها. والصحيحُ شُمولُ الآيةِ لهذا ولهذا، وأنَّ الآيةَ شاملةٌ للأمْرينِ؛ فإنَّ مَن تاب وآمَن وعَمِل عملًا صالحًا تبدَّلت سيئاتُه السابقةُ فصارت حسناتٍ، لكنَّها ليست هي الأُولى نفْسَها، وكذلك إذا تاب منها جُوزِيَ على هذه التوبةِ بالثَّوابِ؛ فصارت السيِّئاتُ بالتَّوبةِ منها حَسَناتٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٥، ٣٠٦).

(١) رواه مسلم (١٩٠).

(٢) حاجَةً ولا داجَةً: أي: ما تَرَكْتُ شَيئًا دعَتْني إليه نَفْسي إلَّا رَكِبْتُه مِن الذُّنوبِ. وداجةً: في هذا الموضِعِ: إتْباعٌ. وقيل: الدَّاجَةُ: ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له، أي: قد قَضَيتُ الحوائِجَ التي لها مَوقِعٌ مِن قلبي، وقَضَيتُ ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤١٠)، ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) للأنباري (٢/ ٢٢٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٠٦).

تواري))[(١)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: ولم يَزَلِ اللهُ يسترُ ذُنوبَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها ويَرحَمُهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أفادتِ الآيةُ السابقةُ أنَّ التوبةَ تمحو السيِّئاتِ، جاءتْ هذه الآيةُ إثرَها تُبيِّنُ ما لأهلِها مِن جزيلِ الإنعاماتِ، وعظيمِ الدرجاتِ[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢٧١٨)، والبزَّار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (١/ ٣٦)، والطبراني (٧/ ٣١٤) (٧٢٣٥).
جوَّد إسنادَه وقوَّاه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٢٨)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٤٤): حسنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّحه الألباني في ((الترغيب والترهيب)) (٣١٦٤).
قال ابن حَجر: (قال البغويُّ: أظنُّ أنَّ الصوابَ عن عبد الرحمن بن جُبَيرٍ أنَّ رجُلًا أتىَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم طويلًا شَطبًا، والشَّطبُ يعني في اللغة: الممدودَ، يعني: فظنَّه الراوي اسمًا، فقال فيه: عن شَطبٍ أبي طويلٍ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (٣/ ٢٨٣). ويُنظر: ((معجم الصحابة)) للبغوي (٣/ ٣٢٣)، ((الاستيعاب)) لابن عبد البر (٢/ ٧٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).
وقال السعدي: (﴿رَّحِيمًا﴾ بعبادِه؛ حيثُ دعاهم إلى التوبةِ بعْدَ مبارزتِه بالعظائمِ، ثم وفَّقهم لها، ثم قَبِلها منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١ ﴾.

أي: ومَن تاب إلى اللهِ وعَمِلَ بعْدَ تَوبتِه الأعمالَ الصَّالحةَ، فإنَّه يَرجِعُ إلى اللهِ رُجوعًا صَحيحًا حَسَنًا، مَقبولًا مَرضِيًّا[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مَن راضَ نفْسَه على الطاعةِ، ودانتْ نفْسُه بالإخباتِ والانقيادِ للأوامرِ الشرعيَّةِ؛ ضَعُفَتْ منه أو زالتْ دواعي الشَّرِّ والفسادِ؛ فانكفَّ عنِ المعصيةِ، لذا قدَّم الله تعالى إثباتَ الطاعاتِ في قولِه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ ... ﴾ على انتفاءِ المعاصي في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ ... ﴾؛ تنبيهًا على ذلك، ومِن هنا نعلَمُ أنَّ على المسلمِ الذي يعملُ لتزكيةِ نفْسِه أن يُواظِبَ على الطاعاتِ بأنواعِها، وأن يجتهِدَ في حصولِ الأُنسِ بها، والخشوعِ فيها؛ فإنَّ ذلك -زيادةً على ما يثبِّتُ فيه مِن أصولِ الخيرِ- يَقلَعُ منه أصولَ الشَّرِّ، ويُميتُ منه بواعثَه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ يُذَكِّرُنا القرآنُ بمضاعَفةِ العذابِ على كبائرِ الآثامِ؛ لِنَذكُرَ عندما تُحدِّثُنا أنفُسُنا بالمعصيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

سوءَ عاقبتِها، وتَعَدُّدَ شرورِها، وتَشَعُّبَ مفاسِدِها، ومُضاعَفةَ العذابِ بحسَبِ ذلك عليها؛ لِنَزدجِرَ ونَنكَفَّ، فنَسلَمَ مِن الشَّرِّ المتراكمِ، والعذابِ المضاعَفِ، ونفوزَ بأجرِ التذكُّرِ، وثمرةِ التذكيرِ[(١)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فلْيعلَمْ أنَّ توبتَه في غايةِ الكمالِ؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الطريقِ الموصِلِ إلى اللهِ الذي هو عينُ سعادةِ العبدِ وفلاحِه؛ فلْيُخلِصْ فيها، ولْيُخَلِّصْها مِن شوائبِ الأغراضِ الفاسدةِ، فالمقصودُ مِن هذا الحَثُّ على تكميلِ التوبةِ، وإيقاعُها على أفضلِ الوجوهِ وأَجَلِّها؛ لِيَقدَمَ على مَن تاب إليه فيوفِّيَه أجرَه بحسَب كمالِها[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ دعا اللهُ بهذا عبادَه المذنبينَ حتى لا يَتَسَرَّبَ القنوطُ إلى قلوبِهم -وهو مُحَرَّمٌ عليهم- ولا يَحُولَ بيْنهم وبيْنَ خالقِهم ذنْبٌ وإنْ عَظُمَ، ورغَّبَهم في التَوبةِ بأنَّها رجوعٌ إليه وكفَى، وأنَّ الرجوعَ إليه فيه مِن الخَيرِ والشرفِ فوقَ ما تُصَوِّرُه الألفاظُ، فما أحلَمَه مِن ربٍّ كريمٍ، وما أرحمَه بعبادِه المذنِبين! فهذا داعي اللهِ فأجيبوه، وهذا بابُ اللهِ فَلِجُوه؛ فإنَّكم مهما رجعتُم إليه لا تُطرَدوا، ومهما قصَدتُم إليه تُقبَلوا وتُكْرَموا[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قامتِ الشَّريعةُ على المحافظةِ على حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادِه، وحَقُّ اللهِ على عبادِه أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، فمَن دعا مع اللهِ غيرَه، وأشركَ به سِواه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

فقد أبطَلَ حقَّ اللهِ، وأعدمَ عبادتَه، ومَن قتَلَ النَّفْسَ فقد تعدَّى على أولِ حقٍّ جَعَلَه اللهُ لعبادِه بفضلِه -وهو حقُّ الوجودِ- وعَمِلَ على إبطالِ وجودِهم، وفناءِ نوعِهم، وزوالِ عبادتِهم؛ فلهذا قُرِنَ قَتلُ النَّفسِ بدعاءِ غيرِ اللهِ معه(1).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ هذه أكبَرُ الكبائرِ، وأعظَمُها ضررًا، وأشَدُّها فسادًا للعالَمِ، وإذا تأمَّلَ العاقِلُ فَسادَ الوجودِ رآه مِن هذه الجِهاتِ الثَّلاثِ(2)، وهي: الكفرُ، ثم قتلُ النفْسِ بغَيرِ الحقِّ، ثمِّ الزنا، كما رتَّبها الله(3)؛ فالشِّركُ فيه فَسادُ الأديانِ، والقَتلُ فيه فَسادُ الأبدانِ، والزِّنا فيه فَسادُ الأعراضِ(4).

٣- أصولُ المعاصي كلِّها؛ كبارِها وصغارِها، ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله، وطاعةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ، والقوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، وهي: الشِّركُ، والظُّلْمُ، والفواحِشُ؛ فغايةُ التعلُّقِ بغيرِ الله شِركٌ، وأن يُدعَى معه إلهٌ آخَرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الغضبيَّةِ القَتلُ، وغايةُ القوةِ الشهوانيَّةِ الزِّنا؛ ولهذا جمَع الله سُبحانَه بينَ الثلاثةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾، وهذه الثلاثةُ يدعو بعضُها إلى بعضٍ؛ فالشركُ يدعو إلى الظُّلمِ والفواحشِ، كما أنَّ الإخلاصَ والتوحيدَ يَصرِفُهما عن صاحبِه؛ قال تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوءُ: العِشقُ، والفحشاءُ: الزِّنا، وكذلك الظُّلمُ يدعو إلى الشركِ والفاحشةِ؛ فإنَّ الشِّركَ أظلَمُ الظُّلمِ، كما أنَّ أعدلَ العدلِ التوحيدُ؛ فالعدلُ قرينُ التوحيدِ، والظلمُ قرينُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

الشركِ؛ ولهذا يجمع سُبحانَه بيْنهما: أمَّا الأولُ، ففي قولِه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأما الثاني فكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاحشةُ تدعو إلى الشِّركِ والظُّلمِ، ولا سيَّما إذا قَوِيت إرادتُها ولم تحصُلْ إلا بنوعٍ مِن الظُّلمِ والاستعانةِ بالسِّحرِ والشيطانِ، وقد جمَع سُبحانَه بينَ الزنا والشِّركِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، فهذه الثلاثةُ يجُرُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويأمُرُ بعضُها ببعضٍ؛ ولهذا كلَّما كان القلبُ أضعَفَ توحيدًا وأعظَمَ شِركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعِشقًا لها(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّه ليس بعْدَ الكُفرِ أعظَمُ مِن قَتلِ النَّفسِ بغيرِ الحَقِّ، ثمَّ الزِّنا؛ ولهذا ثَبَت في حَدِّ الزِّنا القَتلُ لِمَن كان مُحصَنًا، أو أقصى الجَلدِ لِمن كان غيرَ مُحصَنٍ(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مضاعفةُ العذابِ: أن يُعَذَّبَ على كلِّ جُرْمٍ ممَّا ذُكِرَ عذابًا مُناسبًا؛ ولا يُكتفَى بالعذابِ الأكبرِ عن أكبرِ الجرائمِ، وهو الشِّركُ؛ تنبيهًا على أنَّ الشِّركَ لا يُنجي صاحبَه مِن تَبِعةِ ما يَقترِفُه مِن الجرائمِ والمفاسدِ؛ وذلك لأنَّ دعوةَ الإسلامِ للناسِ جاءتْ بالإقلاعِ عن الشركِ وعن المفاسدِ كلِّها، وهذا معنى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفارَ مخاطَبون

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦).

بفروعِ الشريعةِ، يَعنون خطابَ المؤاخَذةِ على ما نُهوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنهم يُطْلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصالحاتُ بدونِ الإيمانِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ تمحو آثامَ كلِّ ذنبٍ مِن هذه الذُّنوبِ المعدودةِ، ومنها قتلُ النَّفْسِ بدونِ حقٍّ، وهو المعروفُ مِن عُموماتِ الكتابِ والسُّنَّةِ(٢)، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على صحَّةِ توبةِ القاتلِ، ولا تعارُضَ بينَ هذه وبينَ آيةِ (النساء): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ فإنَّ هذه وإن كانت مدَنيَّةً إلَّا أنَّها مطلقةٌ، فتُحمَلُ على مَن لم يتُبْ؛ لأنَّ هذه مقيدةٌ بالتوبةِ، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقد ثبتت السنَّةُ الصحيحةُ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بصحَّةِ توبةِ القاتلِ(٣)، فالقاتِلُ إذا تاب لا يستحِقُّ الوعيدَ بنَصِّ القُرآنِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٦).

قال ابن تيميَّة: (قاتِلُ النَّفسِ بغير حقٍّ عليه حقَّان: حقٌّ لله بكَونِه تعدَّى حدودَ الله، وانتهَك حُرُماتِه. فهذا الذنْبُ يغفرُه الله بالتوبةِ الصحيحةِ. والحقُّ الثاني: حقُّ الآدميِّينَ، فعلى القاتلِ أن يُعطيَ أولياءَ المقتولِ حقَّهم، فيُمكِّنَهم مِن القِصاصِ، أو يصالحَهم بمالٍ، أو يطلُبَ منهم العفوَ، فإذا فعَل ذلك فقد أدَّى ما عليه مِن حقِّهم، وذلك مِن تمامِ التوبةِ.

وهل يبقَى للمَقتولِ عليه حقٌّ يطالبُه به يومَ القيامةِ؟ على قولينِ للعُلَماءِ في مذهبِ أحمدَ وغيرِه، ومَن قال: يبقَى له فإنَّه يستكثِرُ القاتِلُ مِن الحَسَناتِ حتى يعطيَ المقتولَ مِن حَسَناتِه بقَدْرِ حقِّه، ويبقَى له ما يبقَى، فإذا استكثَرَ القاتِلُ التائبُ مِن الحسناتِ رُجِيَت له رحمةُ الله، وأنجاه مِن النَّارِ). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٤٠٧، ٤٠٨).
=

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنتَقِلَ مِن الضَّلالِ إلى الهُدى يُضاعَفُ له الثَّوابُ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ سؤالٌ؛ ما فائدةُ هذا التَّكريرِ مع ما سَبَقَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأولُ: أنَّ هذا ليس بتَكريرٍ؛ لأنَّ الأولَ لَمَّا كان في تلك الخصالِ بَيَّنَ تعالى أنَّ جميعَ الذُّنوبِ بمنزلتِها في صِحَّةِ التَّوبةِ منها.

الثاني: أنَّ التَّوبةَ الأُولى رجوعٌ عن الشِّركِ والمعاصي، والتَّوبةَ الثَّانيةَ رُجوعٌ

= وأمَّا ما ورد عن ابنِ عبَّاسٍ، وزَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّ القاتِلَ لا تَوبةَ له، فقد حُمِلَ على التَّغليظِ؛ فقد رُوِيَ عنهما أنَّ له توبةً، أو: أنَّه لا توبة له بالنِّسبةِ لحقِّ المقتولِ؛ فإنَّه لا يمكنُ استحلالُه.

أمَّا إن مات القاتِلُ مِن غيرِ توبةٍ فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله تعالى؛ إنْ شاء غَفَر له، وأرضى خَصْمَه، وإنْ شاء عذَّبه على فِعْلِه، ثم يُدخِلُه الجنَّةَ بإيمانِه؛ فضلًا منه ورَحمةً. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٠).

قال القرطبي: (ثمَّ إنَّ الجمعَ بيْنَ آيةِ «الفُرقانِ» وهذه الآيةِ -أي: قَولِه: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]- مُمكِنٌ، فلا نَسْخَ ولا تعارُضَ؛ وذلك أن يُحمَلَ مُطلَقُ آيةِ «النساء» على مُقيَّدِ آيةِ «الفرقان»، فيكونَ معناه: فجزاؤُه كذا إلَّا مَن تاب، لا سيَّما وقد اتَّحَد المُوجِبُ، وهو القَتلُ، والموجَبُ وهو التوعُّدُ بالعِقابِ. وأمَّا الأخبارُ فكثيرةٌ؛ كحَديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ الذي قال فيه: «تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَزْنُوا، ولا تَسرِقوا، ولا تَقتُلوا النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، فمَن وَفَى منكم فأجرُه على اللهِ، ومَن أصاب شيئًا مِن ذلك فعُوقِبَ به فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب مِن ذلك شَيئًا فسَتَرَه اللهُ عليه فأمْرُه إلى اللهِ؛ إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عَذَّبه»). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٩).

إلى اللهِ تعالى للجَزاءِ والمكافأةِ، كقَولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: مَرجِعي(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾

- هذا شروعٌ في نفي أُمَّهاتِ المعاصي عنهم بعدَما أثبَت لهم أصولَ الطاعاتِ؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتنبيهًا على أنَّ الإيمانَ الكاملَ هو ما تثبتُ معه الطاعاتُ، وتنْتَفي المعاصي، وذلك هو غايةُ الامتثالِ للأوامرِ والنَّواهي، وإشعارًا بأنَّ الأجرَ المذكورَ موعودٌ للجامعِ بينَ ذلك، وفيه تعريضٌ بما كان عليه المشركونَ مِن الاتِّصافِ بهذه المعاصي؛ مِن دعائِهم آلهتَهم معَ الله، وقتلِهم النفسَ، وارتكابِهم فاحشةَ الزِّنا. كأنَّه قيل: والذين برَّأهم الله وطهَّرهم ممَّا أنتم عليه، ولذلك عقَّبه بالوعيدِ تهديدًا لهم؛ فقال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾(٢).

- والتَّصريحُ بوصفِ عباد الرحمن بنَفيِ الإشراكِ -معَ ظُهورِ إيمانِهم-؛ لإظهارِ كمالِ الاعتِناءِ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ، وتَهويلِ أمْرِ القَتلِ والزِّنا بنَظْمِهما في سِلْكِه(٣).

- وقد جُمِع في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ التَّخلِّي عن هذه الجَرائمِ الثَّلاثِ في صِلَةِ مَوصولٍ واحدٍ، ولم يُكرَّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في ذِكرِ خِصالِ تَحلِّيهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَمَّا أقلَعوا عنِ الشِّركِ، ولمْ يَدْعوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ؛ فقد أَقلَعوا عن أشدِّ القبائحِ لُصوقًا بالشِّركِ، وذلك قَتْلُ النَّفْسِ والزِّنا. فجُعِل ذلك شَبيهَ خَصلةٍ واحدةٍ، وجُعِل في صِلَةِ مَوصولٍ واحدٍ. وقد يكونُ تكريرُ (لا) مُجْزِئًا عن إعادةِ اسمِ المَوصولِ، وكافيًا في الدَّلالةِ على أنَّ كلَّ خَصلةٍ مِن هذه الخِصالِ مُوجِبةٌ لمُضاعَفةِ العذابِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وَصْفُ النَّفْسِ بـ ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيانٌ لحُرمةِ النَّفْسِ الَّتي تَقرَّرَتْ مِن عهْدِ آدَمَ فيما حكَى اللهُ مِن مُحاوَرةِ ولَدَيْ آدَمَ بقَولِه: ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧] الآياتِ، فتَقرَّرَ تحريمُ قتْلِ النَّفْسِ مِن أقدَمِ أزمانِ البَشرِ، ولم يَجْهَلْه أحدٌ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فذلك معنَى وصْفِ النَّفْسِ بالمَوصولِ في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّه وصَف النَّفْسَ بالاسمِ الموصولِ المعروفِ الصِّلةِ؛ لأنَّ تَحريمَ اللهِ لها أمرٌ مَركوزٌ في النُّفوسِ، معروفٌ للبشَرِ بما جاءَهم مِن جَميعِ الشَّرائعِ[2].

- وكان النَّفيُ للفعلِ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ ذلك النَّفيِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: التي حرَّمَها، بمعنى: حَرَّم قتْلَها، فحُذِف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

المُضافُ، وأُقيمَ المُضافُ إليه مقامَه؛ مُبالَغةً في التَّحريم[1].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ مِن بَلاغةِ القرآنِ: أنَّه إذا أمَرَ بشَيءٍ ذكَرَ فائدتَه وثمرتَه للعِبادِ في الدَّارينِ، وكذلك إذا نهَى عن شَيءٍ ذكَرَ مضرَّتَه، وسُوءَ عاقبتِه عليهم فيهما؛ فلمَّا ذكَرَ في صدْرِ الآيةِ نفْيَ تلك المعاصي عن عِبادِ الرَّحمنِ الَّذي يُفيدُ النَّهيَ عنها؛ ذَكَر هذا الوعيدَ؛ لبَيانِ سُوءِ عاقبتِها، وقُبْحِ أثَرِها[2].

- الإشارةُ بأداةِ البُعدِ في قولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: الفعلَ العظيمَ القُبحِ، مع قُربِ المذكوراتِ؛ دلَّ على أنَّ البعدَ في رُتَبِها[3].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿أَثَامًا﴾ للتَّفخيمِ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾

- قولُه: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تَضعيفُ العذابِ: مُضاعَفتُه؛ لانضِمامِ المعصيةِ إلى الكُفرِ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مضاعَفةُ العذابِ مُستعمَلةً في معنى قُوَّتِه، أي: يُعَذَّبُ عذابًا شديدًا، وليستْ لتكريرِ عذابٍ مُقدَّرٍ[5].

- قولُه: ﴿مُهَانًا﴾ حالٌ قُصِد منها تَشنيعُ حالِهم في الآخِرةِ[6].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ رُوعِيَتِ الحالةُ الأُولى فذُكِرَتِ التَّوبةُ، والثَّانيةُ فذُكِرِ الإيمانُ، والثَّالثةُ فذُكِرِ العملُ الصَّالحُ؛ لأنَّ العاصيَ يكونُ في غَمَراتِ مَعصيتِه، فإذا ذكَرَ اللهَ، ووفَّقَه اللهُ، أَسِفَ على حالِه، ورجَعَ إلى ربِّه، وهذه أوَّلُ الدَّرجاتِ في تَوبتِه، فإذا استشعَرَ قلْبُه اليقينَ، واطمأَنَّ قلْبُه بذِكْرِ اللهِ؛ صمَّمَ على الإعراضِ عن المعصيةِ، والإقبالِ على الطَّاعةِ، فإذا كان صادقًا في هذا العزمِ، فلا بُدَّ أن يَظهَرَ أثرُ ذلك على عمَلِه[١].

- وعَطْفُ ﴿وَءَامَنَ﴾ على ﴿مَن تَابَ﴾؛ للتَّنويهِ بالإيمانِ، ولِيُبْنَى عليه قَولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو شرائعُ الإسلامِ؛ تحريضًا على الصَّالحاتِ، وإيماءً إلى أنَّها لا يُعتَدُّ بها إلَّا مع الإيمانِ، كما قال تعالى في سورة (البلد): ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: ١٧]، وقال في عكسِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[٢] [النور: ٣٩].

- وقولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فيه ذِكرُ المَوصوفِ مع جرَيانِ الصَّالحِ والصَّالحاتِ مَجرَى الاسمِ؛ للاعتِناءِ والتَّنصيصِ على مُغايَرتِه للأعمالِ السَّابقةِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وقال في سورةِ (طه): ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢]؛ وذلك لأنَّه في سُورةِ (طه)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

أَوْجَزَ في ذِكرِ المعاصي فأَوجَزَ في التَّوبةِ، وأطالَ في الفُرقانِ فأطالَ في التَّوبةِ[١].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ...﴾ كلامٌ مَسوقٌ لبيانِ فضلِ التَّوبةِ المَذكورةِ، واسمُ الإشارةِ أفادَ التَّنبيهَ على أنَّهم أَحْرياءُ بما أخبَرَ عنهم به بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر مِنَ الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]. واسمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ (مَن)، والجَمعُ باعتِبارِ معناهُ، كما أنَّ الإفراد في الأفعالِ الثَّلاثةِ -(تَابَ)، و(آمَنَ)، و(عَمِلَ)- باعتِبارِ لفْظِه[٣].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ ...﴾ ذكَر الاسمَ الأعظَمَ؛ تعظيمًا للأمرِ، وإشارةً إلى أنَّه سبحانَه لا منازِعَ له[٤].

- ولم تَتعرَّضِ الآيةُ لِمقدارِ الثَّوابِ، وهو مَوكولٌ إلى فضلِ اللهِ؛ ولذلك عَقَّبَ هذا بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المُقتضِي أنَّه عظيمُ المغفرةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ المَحوِ والإثباتِ[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ تعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ[٧]؛ فهو تَذْييلٌ لِما قبْلَه[٨].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).
(٨) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥).

- والتَّوكيدُ بـ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ مَضمونِ الخبرِ[١].

- وقد وقَعَ الإخبارُ عنِ التَّائبِ بأنَّه تائبٌ؛ إذِ المَتابُ مَصدرٌ مِيميٌّ بمعنَى التَّوبةِ، فيَتعيَّنُ أن يُصرَفَ إلى معنًى مُفيدٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المُقصودُ هو قولَه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فيكونَ كِنايةً عن عظيمِ ثَوابِه. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما في المضارعِ مِنَ الدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، أي: فإنَّه يَستمِرُّ على تَوبتِه، ولا يَرتَدُّ على عَقِبَيْهِ؛ فيكونَ وعْدًا مِنَ اللهِ تعالى أن يُثبِّتَه على القَولِ الثَّابتِ إذا كان قد تابَ وأيَّدَ تَوبتَه بالعملِ الصَّالحِ. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما للمفعولِ المُطلَقِ مِن معنَى التَّأكيدِ، أي: مَن تاب وعمِلَ صالحًا فإنَّ تَوبتَه هي التَّوبةُ الكاملةُ الخالِصةُ للهِ[٢].

- وخالَفَ جوابُ الشَّرطِ -وهو ﴿يَتُوبُ﴾- فِعلَ الشَّرطِ -وهو ﴿تَابَ﴾- بمُتعلَّقِه -وهو ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾- ومَعمولِه -وهو ﴿مَتَابًا﴾-، وعُبِّرَ بالمُضارعِ في الجوابِ؛ لِيُفيدَ التَّجدُّدَ باعتِبارِ تجدُّدِ المَثوباتِ للرَّاجعينَ إلى اللهِ[٣].

- وتَنوينُ ﴿مَتَابًا﴾ تَنوينُ تَفخيمٍ وتَعظيمٍ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿الْغُرْفَةَ﴾: أي: الدَّرَجةَ الرَّفيعةَ في الجنَّةِ، والغرفةُ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ، وأصلُ (غرف): يدُلُّ على رَفعِ الشَّيءِ[١].

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: أي: ما تَقَرُّ به أعْيُننا، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ الله عينَه، أي: أنامَها[٢].

﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: أي: يُستقبَلونَ، وتَتَلَقَّاهُم الملائِكةُ، يُقال: تَلَقَّاهُ كذا، أي: لَقِيَه، ولَقِيتُه بكذا: إذا استقْبلتَه به، وأصلُ (لقي) هنا يدُلُّ على المُلاقاةِ، وتوافِي شيئَيْنِ متقابلَيْنِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، =

﴿يَعۡبَؤُاْ﴾: أي: يُبالي، وأصلُ (عبأ): يدُلُّ على اجتِماعٍ في ثِقلٍ[1].

﴿لِزَامَۢا﴾: أي: مُلازِمًا، وقيل: جَزاءً، وقيل: هلاكًا، وأصلُ (لزم): يدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ للشَّيءِ دائِمًا[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن صِفةِ عِبادِ الرَّحمنِ أيضًا أنَّهم لا يَحضُرونَ مواضِعَ الباطِلِ، وإذا مرُّوا باللَّغْوِ -مِن غيرِ قَصدٍ منهم- أعرَضوا عنه؛ وهم الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم لم يُعرِضوا عنها صامِّينَ آذانَهم وعامِينَ عنها، والذين يَدْعونَ رَبَّهم: ربَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنا وذرِّيَّاتِنا ما تَقَرُّ به أعيُنُنا برؤيتِهم على طاعتِك في الدُّنيا، وبدُخولِ جَنَّتِك في الآخرةِ، واجعَلْنا قُدوةً في الخَيرِ للمُتَّقينَ مِن عبادِك؛ فهؤلاء المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يَجزيهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجِنانِ بسَبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا، ويُستقبَلون بالتحيَّةِ والسَّلامِ، ماكثينَ في تلك الغُرَفِ أبدًا، حَسُنَت لهم قرارًا ومُقامًا.

قُلْ -يا محمَّدُ: لولا دعاؤُكم اللهَ تعالى لَما اكترَث بكم، فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكون- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم.

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥).

(١) ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٦) (ص: ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٦)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

عَقَّبَ سُبحانه ترْكَهم الزِّنا بالإعراضِ أصلًا عن اللَّغوِ الذي هو أعظَمُ مقَدِّماتِ الزِّنا[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَهم سُبحانه بالصِّفاتِ المتقَدِّمةِ الدالَّةِ كلِّها على كَمالِ أخلاقِهم، واستقامةِ أعمالِهم في ظواهرِهم وبواطنِهم بانبِنائِها على قوَّةِ إيمانِهم، وصحَّةِ عِلْمِهم؛ فكانوا أهلَ الحقِّ المتَّصِفين به في عِلْمِهم وعَمَلِهم، القائمينَ عليه في جميعِ أحوالهِم- وَصَفَهم هنا ببُعدِهم عن الباطلِ ومَشاهِدِه، ومجانبتِهم لأهلِه[2].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه وتعالى عبادَه بأنهم تَحلَّوا بأصولِ الفضائلِ، وتَخلَّوا عن أمَّهاتِ الرَّذائلِ، ورَغَّبَ في التَّوبةِ؛ لأنَّ الإنسانَ لِعَجزِه لا يَنفَكُّ عن النَّقصِ- مَدَحَهم بصفةٍ أخرى، وهي الصفةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى[3]:

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾.

أي: والذين لا يَحضُرون شَيئًا مِن الباطِلِ، ويجتنبونَ جميعَ المجالِسِ المشتمِلةِ على أقوالٍ أو أفعالٍ محرَّمةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤٧٩ - ٤٨٣)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٤٤، =

= ١٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).
قال ابن عاشور: (فِعلُ «شَهِد» يُستعملُ بمعنى «حضَر»، وهو أصلُ إطلاقِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويُستعملُ بمعنَى: أخبَر عن شَيءٍ شَهِدَه وعَلِمَه؛ كقولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]. والزُّورُ: الباطلُ مِن قَولٍ أو فعلٍ، وقد غلَب على الكذبِ... فيَجوزُ أن يكونَ معنَى الآيةِ: أنَّهم لا يَحضُرونَ مَحاضرَ الباطلِ الَّتي كان يَحضُرُها المشركون، وهي مَجالسُ اللَّهوِ والغِناءِ والغِيبةِ ونَحوِها، وكذلك أعيادُ المشركين وألعابُهم؛ فيكونَ الزُّورُ مفعولًا به لـ﴿يَشۡهَدُونَ﴾. وهذا ثَناءٌ على المؤمنينَ بمُقاطَعةِ المشركينَ وتجنُّبِهم... ويجوزُ أن يكونَ فِعلُ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنَى الإخبارِ عمَّا عَلِموه، ويكونَ الزُّورُ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لا يَشهَدون بالزُّورِ، أو مفعولًا مُطلقًا لبيانِ نوعِ الشَّهادةِ، أي: لا يَشهدون شهادةً هي زُورٌ لا حقٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).
وقال ابن الفَرَس: (الزُّورُ: كلُّ الباطلِ، فأعظَمُه: الشِّركُ، وبه فسَّرَ الضحَّاكُ وابنُ زَيدٍ. ومنه: الغِناءُ، وبه فسَّر مجاهِدٌ. ومنه: الكذِبُ، وبه فسَّر ابنُ جُرَيجٍ. و﴿يَشۡهَدُونَ﴾ على القولينِ الأوَّلينِ مِنَ المُشاهَدةِ، وعلى القولِ الثالثِ مِنَ الشَّهادةِ لا مِن المشاهَدةِ، فالمُرادُ: الشَّهادةُ بالزُّورِ، وهو قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وغيرِه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٠). ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الشِّركُ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ أبي زمنين، والسمعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩).
ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٦/ ٦٠١).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الكذِبُ: أي: لا يَشهدون بالزُّورِ أو شهادةَ الزُّورِ: ابنُ جُزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٢).
قال ابن تيميَّةَ: (قال قومٌ: إنَّ المُرادَ: شَهادةُ الزُّورِ الَّتي هي الكذبُ، وهذا فيه نظَرٌ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقُلْ: لا يَشهدون بالزُّورِ. والعربُ تقولُ: شهِدتُ كذا: إذا حضَرْتَه... وأمَّا: شَهِدتُ بكذا، فمعناه: أخبرتُ به). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤٨٢).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لا يَشهدون شَيئًا مِن الباطلِ؛ لا شِركًا، ولا غِناءً، ولا كَذِبًا ولا غيرَه مِن الباطلِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وعن أبي بكْرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ألَا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادةُ الزُّورِ أو قَولُ الزُّورِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُتَّكِئًا فجلَسَ، فما زال يُكَرِّرها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَت))(١).

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا نفَى عنهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- حضورَ مَشاهِدِ الزُّورِ؛ أخبرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندَما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطِلِ والإثمِ

= الثعالبي)) (٤/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: لا يحضُرون الزُّورَ، أي: القولَ والفِعلَ المحَرَّمَ، فيجتنبون جميعَ المَجالسِ المشتَمِلةِ على الأقوالِ المحرَّمةِ أو الأفعالِ المحرَّمةِ... وإذا كانوا لا يَشهَدون الزُّورَ فمِن بابِ أَولى وأَحرى ألَّا يقولوه ويفعلوه، وشهادةُ الزُّورِ داخلةٌ في قَولِ الزورِ، تدخُلُ في هذه الآيةِ بالأولويَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن عثيمين: (فالزُّورُ: كُلُّ مَيلٍ قوليٍّ أو فعليٍّ؛ إن كان قولًا وُصِف بالكَذِب، وإن كان فِعلًا وُصِف بالباطِلِ. فكلُّ قولٍ أو فعلٍ مائلٍ عن الطريقِ فإنَّه زورٌ؛ فالكَذِبُ زورٌ، والشَّتمُ واللَّعنُ والغِيبةُ زورٌ أيضًا، والغَصبُ والسَّرِقةُ والزِّنا وغيرُ ذلك: زورٌ أيضًا، لكن قد نُسَمِّيه باطلًا إذا كان فِعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٥).

وقال السيوطي: (قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ هو شامِلٌ لكُلِّ باطلٍ؛ فمِنه الشِّركُ، وبه فسَّره الضحَّاكُ، واللَّهوُ والغناءُ، وبه فسَّر ابنُ الحنفيَّةِ، والكَذِبُ، وبه فسَّر قَتادةُ، والنِّياحةُ، وبه فسَّر الحسَنُ). ((الإكليل)) (ص: ١٩٨).

(١) رواه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) واللفظ له.

والعبثِ، ومجانبةِ أهلِه[١].

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

أي: وإذا صادَف أنْ مَرُّوا باللَّغوِ[٢] فسَمِعوه أو رَأَوْهُ -مِن غَيرِ قَصدٍ منهم-،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٢) قال السعدي: (﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه، ولا فيه فائدةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ؛ ككلامِ السفهاءِ ونحوِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

وقال ابن جُزي: (اللَّغوُ: هو الكلامُ القبيحُ على اختِلافِ أنواعِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ اللَّغوُ الصوابُ أنَّه ليس الكلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكلامَ القبيحَ داخِلٌ في الزُّورِ، لكنِ المُرادُ باللَّغوِ: ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فيه فهو لَغْوٌ؛ وذلك لأنَّه لا يُقصَدُ، وما لا يُقصدُ فهو لَغْوٌ، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فاللَّغوُ ما لا فائدةَ فيه؛ سواءٌ كان قولًا أو فعلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦).

وقيل في معنى اللَّغوِ أيضًا: هو ما كان المشركونَ يَقولونَه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمونَهم به مِن الأَذَى، وقيل: اللَّغوُ هو ما كان المشركونَ فيه مِن الباطِلِ، وقيل: هو المعاصي كُلُّها... إلى غيرِ ذلك.

قال ابنُ جريرٍ بعْدَ أن ذكَر الخلافَ في معنَى اللَّغوِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أخبَرَ عن هؤلاءِ المؤمنينَ الَّذينَ مَدَحهم بأنَّهم إذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كرامًا، واللَّغوُ في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فِعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبَحُ... فلا وجْهَ إذْ كان كلُّ ذلك يَلْزَمُه اسمُ اللَّغْوِ أن يُقالَ: عُنِيَ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ، إذ لم يَكُنْ لخصوصِ ذلك دَلالةٌ مِن خبرٍ أو عقلٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣- ٥٢٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ اللَّغوَ: كلُّ ما يَنبغي أن يُلغى ويُطَّرَحَ، وكلُّ سَقَطٍ مِن قولٍ أو فعلٍ: الزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٤).

أعرَضوا عنه، وأكرَموا أنفُسَهم عن الخَوضِ والمشاركةِ فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- بإعراضِهم عن الباطلِ، ومجانبتِهم لأهلِه، وبُعْدِهم عنه؛ وَصَفَهم هنا بإقبالِهم على الحقِّ، وإكبابِهم عليه، متفهِّمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠، ٨١)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

قال الرسعني: (﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: مرُّوا مرَّ الكرماءِ، مُعرضينَ عنهم، مُكرمينَ أنفسَهم عن التوقُّفِ عليهم، والخوضِ معهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البقاعي: (﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: آمِرينَ بالمعروفِ، ناهينَ عن المنكَرِ -إن تعلَّقَ بهم أمرٌ أو نهيٌ- بإشارةٍ أو عبارةٍ، على حسَبِ ما يَرَونَه نافعًا، أو مُعرِضينَ إن كان لا يصلُحُ شَيءٌ من ذلك؛ لإثارةِ مَفسدةٍ أعظَمَ مِن ذلك أو نحوِه؛ رحمةً لأنفُسِهم وغيرِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكلامِ: وإذا مَرُّوا بالباطلِ فسَمِعوه أو رَأَوْه، مَرُّوا كِرامًا؛ مُرورُهم كِرامًا في بعضِ ذلك بأنْ لا يَسْمَعوه، وذلك كالغناءِ. وفي بعضِ ذلك بأنْ يُعْرِضوا عنه ويصفحُوا، وذلك إذا أُوذُوا بإسماعِ القبيحِ مِن القولِ. وفي بعضِه بأنْ يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأنْ يَرَوْا مِن المُنكَرِ ما يُغَيَّرُ بالقولِ فَيُغَيِّرُوه بالقولِ، وفي بعضِه بأنْ يُضارِبوا عليه بالسُّيوفِ، وذلك بأنْ يَرَوْا قومًا يَقْطَعونَ الطَّريقَ على قومٍ، فيَستَصْرِخُهم المُرادُ ذلك منهم، فيُصْرِخونَهم، وكلُّ ذلك مُرورُهم كِرامًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥).

مُستبصِرينَ[١].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾.

أي: والذين إذا ذكَّرَهم مُذَكِّرٌ بآياتِ رَبِّهم[٢]، لم يُقابِلوها بالإعراضِ عنها، والصَّمَمِ عن سَماعِها، وصَرفِ النَّظَرِ والقلوبِ عنها، كالكُفَّارِ الذين إن ذُكِّروا بها أنكَروا وكَذَّبوا، وأقاموا على كُفرِهم، كأنَّهم لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١).

وقيل: المرادُ بها: عمومُ الآياتِ، شَرعيَّةً كانت أو كونيَّةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالقرآنِ، أو بما فيه موعظةٌ وعِبرةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٠، ٨١).

قال الزمخشري: (﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ليس بنَفيٍ للخُرورِ، وإنَّما هو إثباتٌ له، ونَفيٌ للصَّمَمِ والعَمَى، كما تقولُ: لا يَلقاني زيدٌ مُسَلِّمًا، هو نَفيٌ للسَّلامِ لا للِّقاءِ. والمعنى: أنَّهم إذا ذُكِّرُوا بها أكَبُّوا عليها حِرصًا على استِماعِها، وأقبَلوا على المُذَكِّرِ بها، وهُم في إكبابِهم عليها سامِعون بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرونَ بعُيونٍ راعيةٍ، لا كالذين يُذَكَّرونَ بها فتراهم مُكِبِّينَ عليها مُقبِلينَ على مَن يُذَكِّرُ بها، مُظهِرينَ الحِرصَ الشَّديدَ على استِماعِها، وهم كالصُّمِّ العُميانِ؛ حيث لا يَعُونَها، ولا يَتبَصَّرونَ ما فيها، كالمُنافِقينَ وأشباهِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتَمِلُ تأويلينِ:

أحدُهما: أن يكونَ المعنى: لم يكُنْ خرورُهم بهذه الصِّفةِ، بل يكون سُجَّدًا وبُكِيًّا، وهذا كما تقولُ: لم يخرجْ زيدٌ للحربِ جَزِعًا، أي: إنما خرَج جريئًا مُقْدِمًا. وكأنَّ الذي يَخِرُّ أصَمَّ =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانه في الآياتِ المتقدِّمةِ بما دلَّ على أنَّهم أهلُ خَيرٍ وكمالٍ في أنفُسِهم؛ وَصَفَهم في هذه بما دلَّ على محبَّتِهم الخَيرَ والكمالَ لغَيرِهم مِن قرابتِهم: أزواجِهم، وذُرِّيَّتِهم، ومَن سِواهم[(١)].

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

أي: والذين يَدْعُونَ اللهَ قائلينَ: ربَّنا أصلِحْ أزواجَنا وأولادَنا وأحفادَنا، فنُسَرَّ في الدُّنيا برُؤيتِهم على طاعتِك، وفي الآخرةِ بدُخولِ جَنَّتِك[(٢)].

= وأعمى هو المنافِقُ أو الشاكُّ.

والتأويلُ الثاني ذهب إليه الطبريُّ، وهو: أنَّ ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هي صِفةٌ للكافِرِ، وهي عبارةٌ عن إعراضِهم وجهدِهم في ذلك، وقَرَنَ ذلك بقَولِه: قعَد فلان يشتُمُني، وقام فلانٌ يبكي، وأنت لم تَقصِدِ الإخبارَ بقعودٍ ولا قيامٍ، وإنما هي توطئاتٌ في الكلامِ والعبارةِ. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الخرورُ واقِعًا منهم أو مِن بَعضِهم حقيقةً؛ لأنَّهم يكونون جلوسًا في مجتمعاتِهم ونَواديهم، فإذا دعاهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ طأطؤوا رؤوسَهم وقَرَّبوها مِن الأرض؛ لأنَّ ذلك للقاعد يقومُ مقامَ الفرارِ، أو سَترِ الوجهِ... وقريبٌ مِن هذا المعنى قولُه تعالى حكايةً في سورة نوح: ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير =

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أي: واجعَلْنا قُدوةً للذين يمتَثِلونَ أوامِرَك، ويجتَنِبونَ نواهيَك، فيَقتَدون بنا في الخَيرِ[1].

= البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن العربي: (معناه: أنَّ النفوسَ تتمنَّى، والعيونَ تمتدُّ إلى ما ترى مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ، حتى إذا كانت عندَه زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه مِن جمالٍ وعِفَّةٍ ونظَرٍ وحَوطةٍ، أو كانت عندَه ذريَّتُه محافِظينَ على الطاعة، معاوِنينَ له على وظائفِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لم يلتَفِتْ إلى زوجِ أحدٍ، ولا إلى ولَدِه؛ فتسكُنُ عينُه عن الملاحظةِ، وتزولُ نفْسُه عن التعلُّقِ بغيرِها؛ فذلك حينَ قُرَّةِ العَينِ، وسُكونِ النَّفسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

لكن قال الرازي: (لا شُبْهَةَ أنَّ المرادَ أنْ يكونَ قُرَّةَ أعينٍ لهم في الدِّينِ لا في الأمورِ الدُّنيويَّةِ مِن المالِ والجمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦).

وقال الزمخشري: (﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا﴾ ... يحتمِلُ أن تكونَ بيانيَّةً... وأن تكونَ ابتدائيَّةً). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦).

وقال أبو حيان: (قُرَّةُ العينِ فيمَنْ ذكروا رُؤْيَتُهم مُطيعينَ لِلَّهِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢).

وقال الرازي: (فيه وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم سألوا أزواجًا وذرِّيَّةً في الدُّنيا يُشارِكونهم، فأَحَبُّوا أن يكونوا معهم في التمسُّكِ بطاعةِ الله، فيَقْوى طمَعُهم في أن يَحصُلوا معهم في الجنَّةِ؛ فيَتكامَلَ سرورُهم في الدُّنيا بهذا الطمعِ، وفي الآخرةِ عندَ حصولِ الثَّوابِ. والثَّاني: أنَّهم سألوا أن يُلحِقَ اللهُ أزواجَهم وذريَّتَهم بهم في الجنَّةِ؛ لِيَتِمَّ سرورُهم بهم). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: يَقتدون بنا في الدِّينِ، ويأتمون بنا في الخَيرِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير البغوي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥)﴾.

= (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ: أئمَّةً يُقتدى بنا في الخيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال السعدي: (من المعلومِ أنَّ الدُّعاءَ بحُصولِ شَيءٍ: دُعاءٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدَّرَجةُ دَرَجةُ الإمامةِ في الدِّينِ التي لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ واليَقينِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فهذا الدُّعاءُ يَستلزِمُ مِن حُصولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والصَّبرِ على طاعةِ الله، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، ومن العِلمِ النَّافِعِ التامِّ الرَّاسخِ الذي يُوصِلُ صاحِبَه إلى درجةِ اليَقينِ- خَيرًا كثيرًا، وعَطاءً جزيلًا). ((تيسير اللطيف المنان)) (ص: ٦٧).

وقيل: معنى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: نأتَمُّ بهم، ويأتَمُّ بنا مَن بَعْدَنا. وممَّن قال به مِن السلَفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦).

وعن مجاهدٍ -في روايةٍ أخرى-، قال: (اجعَلْنا مؤتَمِّينَ بهم، مُقتَدينَ بهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢).

قال ابنُ القيِّم عن تفسير مجاهدٍ المذكورِ: (أَشكَلَ هذا التفسيرُ على مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ فَهمِ السلَفِ وعُمقَ عِلمِهم، وقال: يجبُ أن تكونَ الآيةُ على هذا القولِ مِن بابِ المقلوبِ، على تقديرِ: واجعَلِ المتَّقينَ لنا أئمَّةً، ومَعاذَ اللهِ أن يكونَ شَيءٌ مقلوبًا على وَجهِه! وهذا مِن تمامِ فَهمِ مجاهدٍ رحمه الله؛ فإنَّه لا يكونُ الرجُلُ إمامًا للمتَّقينَ حتى يأتمَّ بالمتَّقينَ، فنَبَّهَ مجاهدٌ على هذا الوجهِ الَّذي يَنالون به هذا المطلوبَ، وهو اقتِداؤُهم بالسلَفِ المتَّقينَ مِن قَبْلِهم، فيَجعَلُهم الله أئمَّةً للمتَّقينَ مِن بَعدِهم. وهذا مِن أحسَنِ الفَهمِ في القرآنِ وألطَفِه، ليس مِن باب القلبِ في شَيءٍ، فمَنِ ائتَمَّ بأهلِ السنَّةِ قبْلَه، ائتَمَّ به مَن بعْدَه ومَن معه). ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: ١٢، ١٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَدَّدَ سُبحانَه صِفاتِ المتَّقينَ المخلِصينَ؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنواعَ إحسانِه إليهم، وهي مجموعةٌ في أمْرينِ: المنافعِ، والتَّعظيمِ؛ فالمنافِعُ في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، والتعظيمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

أي: عِبادُ الرَّحمنِ المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يُثيبُهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجنَّةِ[٢]؛ بسبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٢) قيل: الغرفةُ: المنزلةُ الرَّفيعةُ، والدرجةُ العاليةُ في الجنَّةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ، وجلال الدين المحليُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال الزمخشري: (المرادُ: يُجزَونَ الغُرُفاتِ، وهي العَلاليُّ في الجنَّةِ، فوَحَّدَ اقتِصارًا على الواحِدِ الدالِّ على الجنسِ، والدَّليلُ على ذلك قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢).

وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ المرادَ بالغُرفةِ في هذه الآيةِ الكريمةِ جِنسُها الصادِقُ بغُرَفٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١).

وقيل: هي الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ، وقال: (قال أبو جَعفرٍ الباقِرُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بذلك؛ لارتِفاعِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ فيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الغُرفةَ الجنَّةُ، قاله الضحَّاكُ. الثَّاني: أنَّها أعلى مَنازِلِ الجنَّةِ وأفضَلُها، كما أنَّ الغُرفةَ أعلى مَنازِلِ الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المَنزِلُ لا يَطيبُ إلَّا بالكرامةِ والسَّلامةِ؛ قال تعالى[1]:

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾.

أي: ويُستقبَلُ عِبادُ الرَّحمنِ في الغُرَفِ بالتحيَّةِ والسَّلامِ عليهم[2].

= كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١).

قال القرطبي: (﴿أُولَئِكَ﴾ خبرُ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ»... وما تخلَّل بيْن المبتدأِ وخبَرِه أوصافُهم مِن التحلِّي والتخلِّي، وهي إحدى عَشْرَةَ: التواضُعُ، والحِلمُ، والتهجُّدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّركِ والزِّنا والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّبُ الكَذِب، والعفوُ عن المسيءِ، وقَبولُ المواعظ، والابتهالُ إلى الله). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال البغوي: (وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾، أي: مُلْكًا. وقيل: بقاءً دائمًا، ﴿وَسَلَامًا﴾ أي: يُسلِّمُ بعضُهم على بعضٍ. وقال الكَلْبيُّ: يُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، ويُرسِلُ الرَّبُّ إليهم بالسَّلامِ. وقيل: سلامًا: أي سلامةً مِنَ الآفاتِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠).

وقال البقاعي: (﴿فِيهَا تَحِيَّةً﴾ أي: دُعاءً بالحياةِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ومِن الملائكةِ الذين لا يُرَدُّ دعاؤُهم، ولا يُمترَى في إخبارِهم؛ لأنَّهم عن الله يَنطِقون، وذلك على وجهِ الإكرامِ والإعظامِ مكانَ ما أهانهم عبادُ الشيطان. ﴿وَسَلَامًا﴾ أي: مِن الله، ومِن الملائكة وغيرِهم، وسلامةً مِن كلِّ آفةٍ مكانَ ما أصابوهم بالمصائبِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٧).

وقال السعدي: (﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ مِن رَبِّهم، ومِن ملائكتِه الكرامِ، ومِن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميع المنَغِّصاتِ والمكَدِّراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ هل هما مُترادِفان أو مُتغايِران؟ =

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَعَدَ سُبحانَه بالمنافِعِ أولًا، وبالتَّعظيمِ ثانيًا؛ بيَّنَ أنَّ مِن صفتِهما الدَّوامَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان ما سبَقَ ناطِقًا بدوامِ حياتِهم، سالِمين بصَريحِه، وبعَظيمِ شَرَفِهم بلازِمِه؛ دلَّ على أنَّهم لا يبرَحون عنه، بقَولِه[(٢)]:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

= التحيَّةُ أعمُّ؛ فكُلُّ سَلامٍ تحيَّةٌ، ثم أيضًا التحيَّةُ كما تكونُ بالقَولِ تكونُ بالفعلِ؛ ولهذا يُقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبطِيبِ المنزِلِ، وما أشبَهَ ذلك. قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ يعني: أنَّهم يُلَقَّونَ بالتحيَّةِ قولًا، وبالسلامةِ بقاءً، يعني: يبقَونَ سالمينَ، وهذه المعاني ثابتةٌ بالنِّسبةِ لأهلِ الجنةِ؛ فإنَّهم يُحَيَّون بأنواعِ التحياتِ المَرْضيَّةِ المُفرِحةِ المسِرَّةِ، وكذلك أيضًا يَسلَمونَ من كلِّ الآفاتِ... يُحيِّي بعضُهم بعضًا، ويحَيِّيهم الله سبحانه وتعالى، وكذلك الملائكةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٧).

أي: ماكِثينَ في الغُرَفِ، لا يموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾.

أي: حَسُنَت تلك الغُرَفُ قرارًا لأهلِها، ومكانَ إقامةٍ لهم[٢].

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استَوعبتِ السورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وما تضمَّنَتْه مِن توحيدِ اللهِ، ومِن صفةِ كبرياءِ المعانِدين وتعلُّلاتِهم، وأحوالِ المؤمنين، وأُقيمتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

قال أبو منصور: (﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾): تأويلُه -واللهُ أعلم- أي: حَسُنت لهم الجنَّةُ مُستقَرًّا ومُقامًا؛ حتى لا يَمَلُّوا فيها ولا يَسْأموا، ولا تأخُذَهم الوحشةُ والكآبةُ؛ كنَعيمِ الدُّنيا يُمَلُّ ويُسأَمُ عندَ الكثرةِ وطُولِ المُقامِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ أي: حسُنت منظرًا، وطابت مَقِيلًا ومَنزِلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

وقال القاسمي: (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾؛ لسَلامةِ أهلِها عن الآفاتِ، وخلودِهم أبَدَ الآبادِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (المستَقَرُّ باعتِبارِ المكانِ، والمُقامُ باعتبارِ ما يحصُلُ لهم مِن النعيمِ والسرورِ والتحيَّةِ وغيرِ ذلك، تقولُ: مُقامي فيكم سرورٌ، أو مُقامي في هذا المكان حُزنٌ، أو ما أشبَهَ ذلك. ويمكنُ أيضًا أن يُقالَ: المقامُ بالنِّسبةِ للزمنِ، يعني: أنَّ الله أثنى عليها مكانًا وزمنًا، وكَوْنُنا نُحاوِلُ أن يكونَ بينَ اللفظينِ تغايرٌ أَولى مِن الترادُفِ؛ لأنَّنا إذا قُلْنا بالترادُفِ في هذا وغيره صار في المسألةِ تَكرارٌ، والأصلُ عدمُ التَّكرارِ؛ فحاوِلْ ما استطعْتَ أن تجعلَ اللَّفظينِ متغايرينِ إذا أمكَنَ في كلِّ آيةٍ في آياتِ القرآنِ، وغيرِ القرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤١، ٣٤٢).

الحُجَجُ الدامغةُ للمعرِضينَ؛ خُتِمَتْ بأمرِ اللهِ رسولَه عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يُخاطِبَ المشركينَ بكلمةٍ جامعةٍ يُزالُ بها غرورُهم وإعجابُهم بأنفُسِهم؛ فبَيَّنَ لهم حقارتَهم عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه ما بَعَثَ إليهم رسولَه وخاطبَهم بكتابه إلَّا رحمةً منه بهم لإصلاحِ حالِهم، وقطعًا لعُذْرِهم، فإذا كذَّبوا فسوف يَحُلُّ بهم العذابُ[1].

وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى قد أضاف هؤلاءِ العِبادَ إلى رحمتِه، واختَصَّهم بعبوديَّتِه لِشرَفِهم وفَضلِهم؛ رُبَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّه: وأيضًا غيرُهم لِمَ لا يدخُلُ في العبوديَّةِ؟! فأخبَرَ تعالى أنَّه لا يُبالي ولا يَعبَأُ بغيرِ هؤلاء، وأنَّه لولا دعاؤُكم إيَّاه دُعاءَ العبادةِ ودُعاءَ المسألةِ، ما عبأَ بكم ولا أحَبَّكم، فقال[2]:

﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أُرسِلتَ إليهم: لولا دُعاؤُكم إيَّاه لَمَا بالى، ولا اكترَث بكم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و(٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختلَفوا في المصدَرِ في قَولِه: ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾: هل هو مُضافٌ إلى فاعِلِه، أو إلى مَفعولِه، وعلى أنَّه مُضافٌ إلى فاعِلِه فالمخاطَبونَ بالآيةِ داعُونَ لا مَدْعُوُّونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له. وأمَّا على أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى مَفعولِه فالمُخاطَبونَ بالآيةِ مَدْعُوُّونَ لا داعُونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى توحيدِه وعبادتِه على ألْسِنَةِ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١). =

= وممَّن اختار أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: لولا أنَّكم تَدْعونَه: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وأبو السعود، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و (٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (أشهَرُ الأقوالِ وأكثَرُها قائِلًا، وهو أنَّ المعنى: لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له وحْدَه ... واعلَمْ أنَّ قَولَ مَن قال: لولا دعاؤُكم، أي: دعاؤُكم إيَّاي لأغفِرَ لكم، وأُعطيَكم ما سألتُم: راجِعٌ إلى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ دُعاءَ المسألةِ داخِلٌ في العبادةِ، كما هو معلومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٣).

وقال ابنُ القيم في قولِه تعالى: ﴿دُعَآؤُكُمۡ﴾: (المرادُ به نوعَا الدُّعاءِ، وهو في دُعاءِ العبادَةِ أظهرُ، أي: ما يَعْبَأُ بكم لولا أنَّكم تَعبدونه، وعِبادَتُه تَستلْزِمُ مسألَتَه؛ فالنَّوعانِ داخِلانِ فيه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٢).

وقال السعدي: (﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ إيَّاه دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال الشنقيطي: (وعلى هذا القولِ فالخِطابُ عامٌّ للكافرينَ والمؤمنينَ، ثُمَّ أفرَد الكافرينَ دونَ المؤمِنِينَ بقولِه: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ ...﴾ الآيَةَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وذكَر الشنقيطي قولينِ آخَرينِ مبنيَّينِ أيضًا على كونِ المصدرِ مُضافًا إلى فاعلِه:

الأول: أنَّ المعنَى: لولا دُعاؤُكم أيُّها الكفَّارُ له وحْدَه عندَ الشَّدائدِ والكروبِ، أي: ولو كنتُم تَرجِعونَ إلى شِرْكِكم، إذا كَشَف الضُّرَّ عنكم.

وممَّن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وأنَّ المرادَ دعاؤُهم عندَ الشدائدِ: جلال الدين المحليُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٥).

الثاني: أنَّ معنَى ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾، أي: ما يصنَعُ بعذابِكم، لولا دُعاؤُكم معه آلِهةً أُخرى.

وقال عن هذا القولِ الأخيرِ: (ولا يخفَى بُعْدُ هذا القولِ، وأنَّ فيه تقديرَ ما لا دلِيلَ عليه، ولا حاجةَ إليه). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وقيل: إنَّ المصدرَ في قولِه: ﴿دُعَآؤُكُمۡ﴾ مُضافٌ إلى مفعولِه، فالمخاطَبونَ بالآيةِ مَدعُوُّونَ، فالمعنى: ما يصنَعُ بكم ربِّي لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى الإيمانِ به وتوحيدِه وعبادتِه. وممَّن قال =

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

أي: فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكونَ- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم[1].

= بذلك: الفرَّاءُ، وابنُ العربي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١ - ٨٥).

وقال البقاعي: (أي: أيُّها الكافِرون... ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: نداؤُكم له في وقتِ شدائدِكم الذي أنتم تبادِرونَ إليه فيه؛ خضوعًا له به ليُنجيَكم، فإذا فعلتُم ذلك أنقَذكم مما أنتم فيه؛ معاملةً لكم معاملةَ مَن يبالي بالإنسانِ، ويعتدُّ به ويُراعيه، ولولا دعاؤُه إيَّاكم لتَعبُدوه؛ رحمةً لكم؛ لِتَزْكُوا أنفسُكم، وتَصْفوا أعمالُكم، ولا تكونوا حطبًا للنارِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٨).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥، ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٤).

قال ابن جُزي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: سوف يكونُ العذابُ لِزامًا ثابتًا، وأضمَرَ العَذابَ، وهو اسمُ كان؛ لأنَّه جزاءُ التَّكذيبِ المتقدِّمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال البيضاوي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ لازِمًا يَحيقُ بكم لا محالةَ، أو أثَرُه لازِمًا بكم حتى يَكُبَّكم في النَّارِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابنُ جرير: (يكونُ تكذيبُكم رَسولَ رَبِّكم، وخِلافُكم أمرَ بارِئِكم: عَذابًا لكم مُلازِمًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧).

وقال القرطبي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكونُ تكذيبُكم مُلازِمًا لكم. والمعنى: فسوف يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ... وحَسُنَ إضمارُ التكذيبِ؛ لتقدُّمِ ذِكرِ فِعلِه؛ لأنَّك إذا ذكَرْتَ الفِعلَ دَلَّ بلَفظِه على مَصْدَرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥).

وقال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل يُرادُ بالعَذابِ هنا القَتلُ يومَ بَدرٍ، أو عذابُ الآخرةِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال القرطبي: (جمهورُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ باللِّزامِ هنا: ما نَزَل بهم يومَ بَدرٍ، وهو قَولُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وأبي مالِكٍ، ومجاهِدٍ، ومُقاتِلٍ، وغيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: (خمسٌ قد مَضَيْنَ: الدُّخانُ، والقَمَرُ، والرُّومُ، والبَطشةُ، واللِّزامُ[1] ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾)[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ ولم يَقُلْ: بالزُّورِ؛ لأنَّ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى: «يَحضُرونَ»، فمدَحَهم على تَركِ حُضورِ مجالسِ الزُّورِ، فكيف بالتكَلُّم به وفِعلِه[3]؟!

٢- لا يجوزُ الاستِماعُ إلى الكلامِ الفاحشِ؛ لأنَّ اللهَ وصَفَ عِبادَ الرحمنِ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾، فكلُّ شيءٍ حرامٍ لا تستمِعْ إليه، ولا تقرَأْه[4].

٣- بعْدَما ذكَرَ تعالى مِن صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ ما ذكَرَ، ذكَرَ استماعَهم للتَّذكيرِ،

= وقال ابنُ كثير: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكونُ تكذيبُكم لِزامًا لكم، يعني: مُقتَضِيًا لهلاكِكم وعَذابِكم ودَمارِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ويَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ، كما فَسَّره بذلك عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يعني: يومَ القيامةِ. ولا مُنافاةَ بَينَهما). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤).

(١) الدُّخانُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].
والقَمَرُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].
والرُّومُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢].
والبَطْشةُ: المشارُ إليها في قَولِه جَلَّ وعَلَا: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان: ١٦]، وهو القَتلُ يومَ بَدرٍ.
واللِّزامُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾). قيل: يَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ. وقيل: يعني: يَومَ القيامةِ؛ لأنَّه لتحقُّقِ وقوعِه عُدَّ ماضيًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٦٨).

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ التَّذكيرَ مُحتاجٌ إليه في كلِّ حالٍ، فإذا كان الموصوفونَ بتلك الصِّفاتِ يَحتاجون إليه فغيرُهم أَولى؛ وذلك لأنَّ الغفلةَ مِن طَبْعِ الإنسانِ، ودوامُ الغفلةِ صدَأُ القلوبِ، وصِقالُها هو التَّذكيرُ[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ كما تُقْبَلُ كلمةُ الحقِّ مِن كلِّ قائلٍ، كذلك يُقْبَلُ التذكيرُ مِن كلِّ مُذَكِّرٍ، ولو كان المذكَّرُ مِن أكملِ العِبادِ، والمذكِّرُ مِن أوساطِهم أو أدناهم، وفي عِبادِ الرحمنِ المذكورِينَ؛ في استِماعِهم إذا ذُكِّروا مِن أيِّ مُذَكِّرٍ: القدوةُ الحسنةُ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ فيه تقبيحٌ لعدَمِ التفهُّمِ والتدبُّرِ للآياتِ، وتحذيرٌ منه، وتنبيهٌ على أنَّ الانتِفاعَ بالقرآنِ الذي تتفتَّحُ به البصائرُ، وتتَّسِعُ به المدارِكُ، وتتهذَّبُ به الأخلاقُ، وتتزَّكى به النفوسُ، وتتقوَّمُ به الأعمالُ، وتستقيمُ به الأحوالُ: إنَّما يكونُ بتفهُّمِه وتدَبُّرِه، دونَ مجردِ الانكبابِ عليه بلا تَفَهُّمٍ ولا تدبُّرٍ[3]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ سؤالُ العبدِ مِن ربِّه أن يَهَبَ له مِن الزَّوجِ والذرِّيَّةِ ما تَقَرُّ به عَيْنُه، وهذا يقتضي سَعْيَه بقَدْرِ استِطاعتِه لتحصيلِ ذلك فيهما؛ لِيَقومَ بالسَّببينِ المشروعينِ مِن السعيِ والدعاءِ؛ فعليه أنْ يختارَ ويجتهِدَ عندما يريدُ التزوُّجَ، وأنْ يَقصِدَ إلى ذاتِ الدِّينِ، وفي اختيارِه واجتهادِه في جانبِ الزوجةِ سَعْيٌ في اختيارِ الولدِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

الزوجةَ الصالحةَ شأنُها أن تُربِّيَ أولادَها على الخَيرِ والصَّلاحِ، ثمَّ عليه أنْ يقومَ بتعليمِ زوجِه وأولادِه، وتهذيبِهم وإرشادِهم، فيكونَ قد قام بما عليه في الابتِداءِ والاستِمرارِ، مع دوامِ التضرُّعِ إلى اللهِ تعالى والابتهالِ[1].

٧- قال عكرمةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾: (لم يُريدوا بذلك صباحةً ولا جمالًا، ولكنْ أرادوا أن يكونوا مُطيعينَ)[2].

وقال الحسنُ في هذه الآيةِ: (واللهِ ما شيءٌ أحبَّ إلى المرءِ المسلمِ مِن أنْ يرَى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مُطيعًا للهِ عزَّ وجلَّ)[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ طَلَبُ الرُّتَبِ العُليا في الخَيرِ والكمالِ، والسَّبْقُ إليها، والتقدُّمُ فيها: هو ممَّا يَدْعونا إليه اللهُ، ويُرَغِّبُنا بمِثلِ هذه الآيةِ فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لأنَّ طَلَبَ الكمالِ كمالٌ، ولأنَّ مَن كانت غايتُه الرُّتَبَ العليا إنْ لم يَصِلْ إلى أعلاها لم يَنحَطَّ عن أدناها، وإنْ لم يُساوِ أهلَها لم يَبْعُدْ عنها، ومَن لم يَطْلُبِ الكمالَ بقِيَ في النقصِ، ومَن لم تكن له غايةٌ ساميةٌ قَصَّرَ في السَّعيِ، وتوانَى في العملِ؛ فالمؤمنُ يَطلُبُ أسمَى الغاياتِ، حتى إذا لم يَصِلْ لم يَبْعُدْ، وحتى يكونَ في مَظِنَّةِ الوصولِ بصحَّةِ القصدِ، وصِدْقِ النِّيَّةِ[4].

٩- هذا الدعاءُ ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يتضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: العِلمَ، والتَّقوى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/ ٤٠٢) (٨٦٦٨)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

والتأثيرَ؛ لأنَّ مَن لم يكُنْ عالِمًا لم يكُنْ قُدوةً، ومن لم يكُنْ مُتَّقيًا لم يكُنْ قدوةً، ومَن لم يكُنْ مؤثِّرًا لم يكُنْ قُدوةً أيضًا، والتأثيرُ بالقولِ والفعلِ له دَورٌ كبيرٌ، تَجِدُ مثَلًا رجُلينِ مُتقارِبينِ في العِلمِ، لكنْ أحدُهما يَصرِفُ اللهُ القلوبَ إليه فيَتَّخِذونه قُدوةً، والآخَرُ لا يحصُلُ له هذا الأمرُ؛ فلهذا نقولُ: نَزيدُ على العِلمِ والتَّقوى التأثيرَ، والتأثيرُ -كما هو معروفٌ- يكونُ سببُه قوَّةَ البيانِ والفصاحة، إذا كان التأثيرُ بالقولِ، ويكونُ سببُه أيضًا الاستِقامةَ وحُسْنَ السُّلوكِ إذا كان تأثيرًا بالفعلِ. وعلى كلِّ حالٍ فلا تتِمُّ الإمامةُ إلَّا بهذه الأمورِ الثَّلاثةِ: العِلمِ، والتَّقوى، والتَّأثيرِ بالقولِ أو بالفعل[(١)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ دَلالةٌ على السَّببِ الذي أفضَى بهم إلى هذا الجزاءِ العظيمِ، وهو أعمالُهم، ودَلالةٌ على السببِ الذي تَمَكَّنوا به مِن القيامِ بهذه الأعمالِ، وهو الصَّبرُ، فلا يَنهَضُ بامتِثالِ المأموراتِ وترْكِ المنهيَّاتِ إلَّا مَن صَبَرَ، والصبرُ خُلُقٌ مِن الأخلاقِ التي تتربَّى وتنمو بالمِرانِ والدَّوامِ؛ فواجبٌ على المكلَّفِ أنْ يَجعَلَ تربيةَ نَفْسِه عليه وتعويدَها به مِن أكبرِ هَمِّه؛ إذْ لا يقومُ بالتكاليفِ الشرعيةِ إلَّا به، بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدارِ الدُّنيا الموضوعةِ على المحنةِ والابتلاءِ إلَّا إذا تمسَّك بسببِه[(٢)].

١١- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ لَمَّا ذَكَرَ سبحانَه في الآياتِ المتقَدِّمةِ صفاتِهم وأعمالَهم؛ ذَكَر ما أَعَدَّ لهم مِن عظيمِ الجزاءِ على تلك الأعمالِ؛ تنبيهًا على ما وَضَعَه تعالى -بمشيئتِه وحكمتِه ورحمتِه- مِن الارتباطِ بيْن هذه الأعمالِ وهذا الجزاءِ، وإفضائِها إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٢).

إفضاءَ السببِ لمسبَّبه؛ لِيَسعَى الراجونَ لهذا الجزاءِ مِن طريقِ هذه الصفاتِ وهذه الأعمالِ، كما يُسعَى لسائرِ المسَبَّباتِ مِن طريقِ أسبابِها، وتُؤتَى جميعُ الأمورِ مِن أبوابِها، وفي هذا حَثٌّ لأهلِ هذه الأعمالِ على التمسُّكِ بما هم به عامِلون، وتنبيهٌ لأهلِ الغرورِ على بُطلانِ ما هم به مُغتَرُّون، والكَيِّسُ مَن دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَن أتبَعَ نَفْسَه هواها، وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ[١].

١٢- قد أفادت الآياتُ السَّابقةُ كَمالَ حالِ عِبادِ الرَّحمنِ في نفوسِهم وعُقولِهم، وأخلاقِهم وأعمالِهم، وأفادت عظيمَ مَنزلتِهم عندَ ربِّهم، ورفيعَ ما أعَدَّ لهم مِن درجاتِهم؛ جزاءً على صالحاتِهم وحَسَناتِهم، وجاءتْ هذه الآيةُ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ لِتُفيدَ أنَّ ذلك المقامَ العظيمَ -الذي كان عندَ ربِّهم- إنَّما هو بسبَبِ عبادتِهم، وتُعلِنَ للنَّاسِ أنَّ عبادتَهم هي الشَّيءُ الوحيدُ الذي يكونُ لهم به قدْرٌ وقيمةٌ عندَ ربِّهم، وبدونها لا يكونُ لهم وزنٌ عندَ خالقِهم، ولا يكونون شيئًا يُبالى به، وأنَّ مَن كَذَّبَ وخَلَعَ بتكذيبِه رِبقةَ العبادةِ، فقد حَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ، وهو واقعٌ به لا محالةَ[٢].

١٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، قد بُيِّنَ لك الطريقُ الذي يُوصِلُك إلى مولاك، ويُرقيك في مراتبِ كمالِك وعُلاك، وما هو إلَّا عبادةُ ربِّك، فكُنْ عبدًا له في اختيارِك واضْطِرارِك، وفي جميعِ أحوالِك، واحذَرْ أنْ تعتمدَ على شَيءٍ غَيرِ عبادتِه، واحذَرْ أنْ تتوجَّهَ بشَيءٍ مِن عبادتِك لغيرِه، ومِن عبادتِك -بل هو أصلُ عبادتِك- دعاؤُك وسؤالُك واستِغاثتُك؛ فإيَّاك إيَّاك أنْ تتوجَّهَ منه بشَيءٍ لغيرِه، فكُنْ دائمًا عبدًا للهِ، وكُنْ دائمًا عبدًا له

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

وحْدَه؛ فذلك حَقُّه عليك، وذلك هو السببُ الوحيدُ الذي يُنجيك ويُعليك[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ فيه ثَناءٌ على المؤمنينَ بمقاطَعةِ المشركينَ وتَجنُّبِهم[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَقصِدون حُضورَه ولا سماعَه، ولكنْ عندَ المصادَفةِ -التي مِن غيرِ قصدٍ- يُكرِمون أنفُسَهم عنه[٣].

٣- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ ما أحسَنَ اقترانَ هذا الوصفِ مع قَولِه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾! لا يَختلِطُ جِدُّهم بهَزْلٍ، وحقُّهم بباطِلٍ، فإذا اعتَراهُمُ الهَزْلُ تَنزَّهوا عنه كلَّ تَنزُّهٍ، وإذا اشتَغَلوا بالحقِّ لا يَحومُ الباطلُ حَوْلَه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ الدُّعاءُ بصَلاحِ الزَّوجاتِ والأولادِ والذريَّةِ[٥].

٥- قد فُطِرَ الإنسانُ على محبَّتِه لنفْسِه؛ لِتَحمِلَه هذه الفِطرةُ على المُحافظةِ عليها، والدِّفاعِ عنها، وتكميلِها بكلِّ وُجوهِ الكَمالِ، وكان مِن مُقْتضى هذه المحبَّةِ رغْبتُه في الوجودِ والبقاءِ، وممَّا هو قوَّةٌ في وُجودِه ومُظهِرٌ لبقائِه: أنْ يَرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

النَّاسَ على فِكْرِه وصِفاتِه وأحوالِه؛ فيَرى نفْسَه مُمثَّلةً في غيرِه، وأفكارَه وصِفاتِه وأحوالَه باقيَّةً ببقاءِ النَّاسِ؛ فالخيرُ الكاملُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الخيرِ والكمالِ في النَّاسِ. والشِّرِّيرُ النَّاقصُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الشَّرِّ والنَّقصِ فيهم؛ فلذا كان لازمًا لتَتميمِ وصْفِ عِبادِ الرَّحمنِ ذِكْرُ محبَّتِهم الخيرَ والكمالَ لغيرِهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

وقد تخفَى عليك دخيلةُ نَفْسِ الإنسانِ، فيُمكِنُك أن تَعْرِفَها بما يجري به لسانُه؛ فإذا جَرَتْ كلماتُه بمحبَّةِ انتشارِ الخَيرِ والكمالِ فهو مِن أهلِهما، وإذا جَرَتْ بالضِّدِّ فهو على الضِّدِّ؛ فما يُحِبُّ الإنسانُ انتشارَه هو الدليلُ على صِفاتِ نَفْسِه، وهو ميزانٌ تَزِنُه به في الشَّرِّ والخَيرِ، والنَّقصِ والكمالِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فيه جوازُ الدُّعاءِ بالولدِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أنَّ التزوُّجَ وطَلَبَ النَّسْلِ هو السُّنَّةُ؛ سُنَّةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وسُنَّةُ أصحابِه عليهم الرِّضوانُ، وسُنَّةُ عِبادِ الرحمنِ، وليس مِن شريعتِه الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ الرَّهبانيَّةُ والتَّبتُّلُ، وقد رأى قومٌ مِن الزهَّادِ رُجحانَ الانقِطاعِ إلى العبادةِ على التزوُّجِ، والاشتغالِ بالسَّعيِ على الزوجِ والذريَّةِ، فردَّ عليهم أئمَّةُ الدِّينِ والفتوى بأنَّ في التزوُّجِ اتِّباعًا للسُّنَّةِ، وفي السَّعيِ على الأهلِ ما هو مِن أعظَمِ العبادةِ، وفي التزوُّجِ تكثيرَ سَوادِ الأمَّةِ والمدافعينَ عن المِلَّةِ والقائمينَ بمصالحِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

الدِّينِ والدنيا، وفي هذا ما فيه مِن الأجرِ والمثوبةِ، وفي التبتُّلِ مخالفةَ السنَّةِ، وانقِطاعَ النسلِ، وضَعفَ الأمَّةِ، وتعطيلَ المصالحِ، وخرابَ العُمرانِ، وكفَى بهذا كلِّه شرًّا وفَسادًا(١)!

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ ما تقَرُّ به الأعينُ يحصُلُ به الفرَحُ والسرورُ؛ فالفرَحُ والسرورُ بما هو خيرٌ وطاعةٌ، مِن حيثُ إنَّه نعمةٌ مِن اللهِ وفَضلٌ: محمودٌ ومَشروعٌ(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ حُجَّةٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الإمامةَ في الدِّينِ لا تكونُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ، فدلَّ على أنَّ العِلمَ والعمَلَ إنَّما يكونان بجَعلِ اللهِ تعالى وخَلقِه(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ حُبَّ المنزلةِ الرَّفيعةِ والإشارة به إلى مُحِبِّه في الدِّينِ، ليس بمُنكَرٍ إذا أحبَّه المُحِبُّ جلالةً للإسلامِ، وظُهورًا لنعمةِ اللهِ عليه فيه، بل هو طاعةٌ؛ إذْ قد أثنى اللهُ على طالِبيه فيما دَعوه به، كما ترى(٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دَليلٌ على فضيلةِ الإمامةِ في الدِّينِ، ومنها إمامةُ المساجِدِ؛ فإنَّ الإمامَ في المسجدِ إمامٌ للمتَّقينَ؛ لأنَّ الذين يأتون للصَّلاةِ متَّقونَ إنْ شاء اللهُ، فهو إمامٌ لهم، فيدُلُّ ذلك على فَضيلةِ تولِّي الإمامةِ في المساجِدِ، وفَضلُ الإمامةِ في المساجِدِ مَعلومٌ، ولو لم يكُنْ منها إلَّا أنَّ الإنسانَ يكونُ قُدوةً، وأنَّ الإمامةَ تُعينُه على أداءِ الصَّلاةِ، فالإمامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٨).



لا تفوتُه الصَّلاةُ كُلَّ يَومٍ، وغيرُه تفوتُه أو يفوتُه بعضُها، كذلك الإمامُ إذا تكَلَّم يُسمَعُ له أكثَرَ، وكم مِن إنسانٍ ما برَز وظهرَ إلَّا بسبَبِ إمامتِه، لا سيَّما إذا تولَّى الخَطابةَ[1].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ مِن الدِّينِ الاقتداءُ بأهلِ العلمِ والعمَلِ والاستقامةِ في الهَدْي والسَّمتِ[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لا يكونُ الإمامُ إلَّا تقيًّا فاق غيرَه في التقوى[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أنَّ اقتداءَ المتَّقين بأئمَّتِهم إنَّما هو في التقوى؛ لأنَّهم ما كانوا أئمةً إلَّا بها، فالآيةُ أفادتْ أنَّ المتَّقين يَقتدون بأئمَّتِهم، وأنَّ أئمَّتَهم متَّقون مِثْلَهم، وأكمَلُ منهم تَقوى، وأنَّ اقتداءَهم بهم في التقوى لا في غيرِها، فمَن حاد عنها فلا إمامةَ له[4].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ كمالُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يَعبأُ بأحَدٍ مِن خلقِه مهما كَثُروا عَددًا وعُدَّةً[5].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ عِظَمُ فضيلةِ الدُّعاءِ[6].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مانِعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

مِن العُقوبةِ[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- الأمنُ مِن عذابِ اللهِ وحُصولُ السَّعادةِ إنَّما هو بطاعتِه تعالى؛ لِقَولِه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: لو لم تَدْعُوه كما أمَرَ فتُطيعوه فتَعبُدوه وتُطيعوا رسُلَه؛ فإنَّه لا يَعبأُ بكم شَيئًا[٢].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وفيه أيضًا إثباتُ الموانِعِ لِمَا انعقَدَ سبَبُه، وإثباتُ الأسبابِ لِمَا لم يوجَدْ حتَّى يكونَ[٣].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لَمَّا كانت مقاديرُ العِبادِ عندَ ربِّهم بحسَبِ عبادتِهم، فالأنبياءُ عليهم السلامُ أعلى النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ؛ فهم أعظمُهم عبادةً للهِ، وهم أتقاهم له، وأشدُّهم خشيةً منه[٤].

٢١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ في قَولِه: ﴿لِزَامًۢا﴾ تنبيهٌ على ضَعفِهم وعَجزِهم، وذُلِّهم وقَهرِهم؛ لأنَّ الملزومَ لا يكونُ إلَّا كذلك، فأَسْرُهم يومَ بدرٍ مِن أفرادِ هذا التَّهديدِ؛ فقد انطبقَ آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها بالإنذارِ بالفُرقانِ لِمَن أنكَرَ حقيقةَ الرَّحمنِ[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٩).

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ إذا فُسِّر قولُه: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ بأنَّهم يَنفِرون عن مَحاضرِ الكذَّابينَ والخَطَّائينَ، على أنَّ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنى يَحضُرون؛ كانت كالتَّتميمِ له، وإذا فُسِّر بأنَّهم لا يَشهَدونَ شَهادةَ الزُّورِ كانت كالتَّكميلِ له، ويجوزُ أن يكونَ تَتميمًا على تفسيرِ ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾: لم تُسفِّهْهُم المعاصي؛ لأنَّ مَن وقَفَ مواقفَ السُّفهاءِ سُفِّهَ، ويكونُ قدْحًا في عدالتِه[1]؛ فمِن بلاغةِ القرآنِ: أنْ تأتيَ مِثلُ هذه الآياتِ بوُجوهٍ مِن الاحتمالاتِ مُتناسِباتٍ غيرَ مُتناقضاتٍ؛ فتكونَ الآيةُ الواحدةُ بتلك الاحتمالاتِ كأنَّها آياتٌ، فهذه الآيةُ باحتمالِها معنيينِ -الَّذين لا يَحضُرون مجالِسَ الزُّورِ، أو الَّذين لا يَشهَدُون شَهادةَ الزُّورِ ولا يُخبِرون إلَّا بالحقِّ الواقعِ- مُفيدةٌ تنزُّهَهم عن شُهودِ الباطلِ، وعن شَهادتِه[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ مَعنَى المُرورِ باللَّغوِ: المرورُ بأصحابِه اللَّاغينَ في حالِ لَغْوِهم؛ فجُعِلَ المرورُ بنَفْسِ اللَّغوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ أصحابَ اللَّغوِ مُتلبِّسونَ به وقتَ المُرورِ[3]، وقدْ أخبَرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ والعبثِ، ومُجانبةِ أهْلِه[4]. وتَخصيصُ المرورِ بالذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك دأبُهم وعادتُهم[5].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿مَرُّواْ﴾؛ لبناءِ الحالِ عليه، وذلك مِن مَحاسنِ الاستِعمالِ[6].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: أكَبُّوا عليها سامِعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرينَ ناظِرينَ لها بعُيونٍ راعيةٍ؛ وإنما عَبَّر عن ذلك بنَفيِ الضِّدِّ تَعريضًا بما يَفعَلُه الكفرةُ والمُنافِقون[1].

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ عبَّر بـ(إذا)؛ لأنَّ التَّذكيرَ ممَّا هو واقعٌ مُحقَّقٌ كالَّذي يُسمَعُ مِن القرآنِ في الصَّلاةِ، ومِن الخُطَبِ في الجُمَعِ[2].

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمُفعولِ، ولم يُبيِّنِ المُذكِّرَ (الفاعِل)؛ إشارةً إلى أنَّهم يَقْبَلون الحقَّ لأنَّه حقٌّ، لا مِن أجْلِ مَن قال به، فهُم لا يَقبَلون التَّذكيرَ لأجْلِ شَخصِ المُذكِّرِ، أو يَرُدُّونه مِن أجْلِ شخصِ المُذكِّرِ، وإنَّما يَقبَلونه لأنَّه تَذكيرٌ؛ لأنَّ التذكيرَ بالآياتِ يَجِبُ قَبولُه مِن أيِّ مُذكِّرٍ كانَ، وهذه هي الفائدةُ في حَذْفِ الفاعِلِ[3].

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أُريدَ تمييزُ المؤمنينَ بمُخالَفةِ حالةٍ هي مِن حالاتِ المشركينَ، وتلك هي حالةُ سماعِهم دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما تَشتمِلُ عليه مِن آياتِ القُرآنِ، وطلَبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ؛ فلذلك جيءَ بالصِّلةِ مَنفيَّةً لتحصيلِ الثَّناءِ عليهم، مع التَّعريضِ بتَفظيعِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ المُشرِكينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ اللهِ خَرُّوا صُمًّا وعُمْيانًا، كحالِ مَن لا يُحِبُّ أن يرَى شيئًا فيَجعَل وجْهَه على الأرضِ[4].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠).

- قولُه: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ حالانِ مِن ضَميرِ ﴿يَخِرُّواْ﴾، مرادٌ بهما التَّشبيهُ بحذْفِ حرْفِ التَّشبيهِ، أي: يَخِرُّون كالصُّمِّ والعُميانِ في عدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعِ مِنَ الآياتِ، والمُبصَرِ منها، ممَّا يُذَكَّرونَ به؛ فالنَّفيُ -على هذا- مُنصَبٌّ إلى الفِعلِ وإلى قَيْدِه، وهو استِعمالٌ كثيرٌ في الكلام. وقيل غيرُ ذلك[1].

- وفيها تَنديدٌ وتَقريعٌ للكافِرينَ؛ لأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ؛ لا يَتجاوَزُ آذانَهم ما يَسمَعون، ولا يَنتفِعونَ بما يَقرؤون، ولا يَعتَبِرون بما يُشاهِدون[2].

- وقَيَّده بهاتينِ الحاسَّتينِ؛ لأنَّهما الوسيلةُ إلى وُصولِ الشَّيءِ إلى القلبِ؛ إذ الأشياءُ إمَّا مرئيَّةٌ فوسيلتُها النظَرُ، وإمَّا مسموعةٌ فوسيلتُها السَّمعُ، فنفَى أن يكونوا صُمًّا، ونفَى أن يكونوا عُميانًا[3].

- قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ صِفةٌ سلبيَّةٌ، ولم يَقُلْ: (إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم أَقبَلوا عليها مُبصِرينَ سامِعينَ)، معَ أنَّ الصِّفاتِ الثبوتيَّةَ أبلَغُ في الثَّناءِ؛ وذلك لأنَّ هذه السورةَ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها في مُجادَلةِ المُنكِرينَ لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم إذا كانوا مُنكِرين فإنَّهم يَخِرُّون على الآياتِ صُمًّا وعُميانًا، فهذا -واللهُ أعلمُ- وجْهُ المناسبةِ في العُدولِ عن ذِكْرِ الصِّفةِ الثبوتيَّةِ إلى ذِكْرِ الصِّفةِ السَّلبيَّةِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

- إعادةُ المَوصولِ في المواقعِ السَّبعةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا ...﴾ مع كِفايةِ ذِكرِ الصِّلاتِ بطَريقِ العَطفِ على صِلَةِ المَوصولِ الأوَّلِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا ذُكِر في حَيِّزِ صِلَةِ المَوصولاتِ المذكورةِ وصْفٌ جليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خطيرٌ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعلَ شَيءٌ مِن ذلك تَتِمَّةً لغَيرِه. وتَوسيطُ العاطفِ بيْن المَوصولاتِ؛ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختِلافِ الذَّواتِ[1]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تَستقِلُّ بالقَصدِ؛ لعِظَمِ خطَرِها، وكِبَرِ أثَرِها[2].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾، أي: هَبْ لنا أزواجًا وذُرِّيَّاتٍ مُطيعِينَ لك، ولَمَّا كانت طاعتُهم سببًا لسُرورِهم؛ وُضِع المُسبَّبُ مَوضَعَ السَّببِ للمُبالَغةِ، وأنَّ المطلوبَ الأوَّليَّ بالأولادِ طاعةُ اللهِ، وجُعِل هذا الدُّعاءُ مِن جُملةِ صِفاتِ الكَمَلةِ مِنَ المؤْمنينَ؛ للدَّلالةِ على عِظَمِ منزلةِ مَن يَطلُبُ النِّكاحَ لذلك، وهذا بالنِّسبةِ إلى الدَّاعي، فكيف بمَن يتَّصِفُ بذلك[3]؟

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا﴾ يحتمِلُ أن تكونَ بَيانيَّةً، كأنَّه قيل: هَبْ لنا قُرَّةَ أعْيُنٍ، ثمَّ بُيِّنَتِ القُرَّةُ وفُسِّرَتْ بقَولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾. ومعناه: أنْ يَجعَلَهُمُ اللهُ لهم قُرَّةَ أعْيُنٍ، وهو مِن قَولِهم: رأيتُ منك أَسَدًا، أي: أنتَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

أَسَدُّ. وأن تكونَ ابتِدائيَّةً، على معنَى: هَبْ لنا مِن جِهَتِهم ما تَقَرُّ به عُيونُنا مِن طاعةٍ وصلاحٍ[١].

- وقدَّمَ الأزواجَ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم ألْصَقُ، ولأنَّهم الأصلُ[٢].

- وقولُه: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تَركيبٌ كِنائيٌّ؛ فإذا كانتِ القُرَّةُ مِن (القُرِّ) فهي كِنايةٌ عن السُّرورِ؛ لأنَّ العَيْنَ في حالةِ السُّرورِ باردةٌ، وإذا سالَتْ منها دُموعٌ في حالةِ الفرحِ كانت باردةً؛ فقُرَّةُ أعينِهم على هذا كِنايةٌ عن سُرورِهم بأزواجِهم وذُرِّيَّتِهم، بما هم عليه مِن الخَيرِ والكمالِ، وإعانتِهم لهم عليهما. وإذا كانت القُرَّةُ مِن القُرورِ، فهي كِنايةٌ عن سُكونِ النَّفْسِ بحُصولِها على ما يُرْضِيها مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ[٣].

- في قولِه تعالى: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ نُكتَتانِ؛ الأُولى: التَّنكيرُ، وإنَّما جُنِح إليه لأجْلِ تَنكيرِ القُرَّةِ، والمُضافُ لا يُمكِنُ تَنكيرُه إلَّا بتَنكيرِ المُضافِ إليه؛ لِيَكونَ السُّرورُ غَيرَ مُتَناهٍ ولا محدودٍ. وإنَّما قَلَّل الأعْيُنَ -أي: جُمِع جَمْعَ القِلَّةِ-؛ لأنَّ أَعْيُنَ المُتَّقينَ قِلَّةٌ بالإضافةِ إلى غَيرِهم، يدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٤] [سبأ: ١٣]. وهناك وجْهٌ آخَرُ لعلَّه أَبلَغُ ممَّا تَقدَّمَ، وهو أنَّ المَحكيَّ كلامُ كلِّ أحدٍ مِنَ المُتَّقينَ، فكأنَّه قال: يَقولُ كلُّ واحدٍ مِنَ المُتَّقينَ: اجعَلْ لنا مِن ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ؛ فإنَّ المتَّقينَ وإنْ كانوا بالإضافةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

إلى غَيرِهم قليلًا فإنَّهم في أنفُسِهم على كَثرةٍ مِنَ العددِ، والمُعتبَرُ في إطلاقِ جَمعِ القِلَّةِ أن يكونَ المجموعُ قليلًا في نفْسِه، لا بالنِّسبةِ والإضافةِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ كالتَّكميلِ للدُّعاءِ، أي: اجعَلْنا كامِلينَ في أنفُسِنا، ومُكمِّلينَ لغَيرِنا، وفي جَعلِ المُقتدينَ مُتَّقِينَ إشارةٌ إلى عُلُوِّ درجةِ الإمامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمامُ هو المُتَّبَعُ المُقتْدَى به، وأُفرِدَ (إمامًا)؛ إمَّا اكتِفاءً بالواحدِ عنِ الجَمعِ، ويدُلُّ على الجنسِ ولا لَبْسَ، وإمَّا لأنَّه مَصدَرٌ في أصْلِه، وإمَّا لأنَّ المعنى: واجعَلْ كلَّ واحدٍ منَّا إمامًا، وإمَّا لاتِّحادِهم واتِّفاقِ كَلِمَتِهم قالوا: واجعَلْنا إمامًا واحدًا، وقيل غيرُ ذلك. وحَسَّنَ الإفرادَ مِن جِهةِ اللَّفظِ: وُقوعُه فاصلةً على وَزنِ ما قَبْلَها وما بَعْدَها. ومِن جِهةِ المعنى: أنَّ أئمَّةَ الهُدَى كنَفْسٍ واحدةٍ؛ لاتِّحادِ طَريقِهم بالسَّيرِ على الصِّراطِ المستقيمِ، واتِّحادِ وِجهتِهم بالقَصدِ إلى اللهِ تعالى وحْدَه[٣].

- ومَدارُ الكُلِّ صُدورُ هذا الدُّعاءِ إمَّا عنِ الكُلِّ بطريقِ المَعيَّةِ وأنَّه محالٌ؛ لاستِحالةِ اجتِماعِهم في عصرٍ واحدٍ، فما ظَنُّك باجتِماعِهم في مجلسٍ واحدٍ، واتِّفاقِهم على كلمةٍ واحدةٍ؟! وإمَّا عنْ كلِّ واحدٍ منهُم بطريقِ تَشريكِ غَيرِه في استِدعاءِ الإمامةِ، وأنَّه ليس بثابتٍ جَزْمًا، بلِ الظَّاهرُ صُدورُه عنهم بطريقِ الانفِرادِ، وأنَّ عِبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عِندَ الدُّعاءِ: (واجعَلْني للمتَّقينَ إمامًا)،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣، ١٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

خَلَا أنَّه حُكيَتْ عِباراتُ الكلِّ بصيغةِ المُتكلِّمِ مع الغَيرِ؛ للقَصدِ إلى الإيجازِ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[1] [المؤمنون: ٥١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفينَ بما فُصِّل في حينِ صِلَةِ المَوصولاتِ الثَّمانيةِ من حيثُ اتِّصافُهم به. وفيه دَلالةٌ على أنَّهم مُتميِّزونَ بذلك أكمَلَ تَميُّزٍ، مُنتَظِمونَ بسببِه في سِلكِ الأمورِ المُشاهَدةِ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضلِ. والجملةُ مُستأنفةٌ مُبيِّنةٌ لِما لهُم في الآخرةِ مِنَ السَّعادةِ الأبديَّةِ، إثْرَ بَيانِ ما لهُم في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ السَّنيَّةِ[2].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ التَّصديرُ باسمِ الإشارةِ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعْدَه كانوا أَحْرياءَ به؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَ اسمِ الإشارةِ من صِفاتٍ[3].

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ مُستأنَفةٌ؛ فإنَّ تلك الصِّفاتِ والأعمالَ تُشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ مآلِهم، وثمرةِ أعمالِهم، فيَسأَلُ عنهما؛ فكانت الجُملةُ جوابًا لذلك السُّؤالِ المُقدَّرِ[4].

- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُجْزَون غُرفةً واحدةً، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ كقَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠]، وكقولِه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

والجوابُ: أنَّ الغُرفةَ هنا بمعنَى الغُرَفِ؛ اسمُ جِنسٍ أُريدَ به الجَمْعُ. وقيل: إنَّ المرادَ بالغُرفةِ الدَّرجةُ العُلْيا في الجنَّةِ؛ وعليه فلا إشكالَ. وقيل: الغُرفةُ الجنَّةُ؛ سُمِّيَتْ غُرفةً لارتِفاعِها[1].

- قولُه: ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ لم يؤْتَ بمُتعلِّقِ ﴿صَبَرُواْ﴾؛ لئلَّا يُقتصَرَ عليه، فيَتناوَلُ كلَّ مَصبورٍ عليه إلى أن يُحاطَ به[2]، ولِيَعُمَّ جميعَ أنواعِ المشاقِّ[3].

- فإنْ قيل: قد تَقرَّرَ أنَّ اسمَ الإشارةِ إذا عُقِّب به مَن أَجرى عليه الأوصافَ دَلَّ على أنَّ المَذكورَ قَبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه لأجْلِ تلك الأوصافِ الجاريةِ عليه، فإذَنِ السَّببُ في أنَّهم يُجْزَونَ الغُرفةَ تلك الأوصافُ الَّتي أُجريَتْ على عِبادِ الرَّحمنِ، فكان مِن حقِّ الظَّاهرِ أنْ يُجاءَ بدَلَ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بما فَعَلوا؛ كِنايةً عن تلك المَذكوراتِ بأسْرِها، فما فائدةُ العُدولِ؟

فالجوابُ: الإيذانُ بأنَّ مِلاكَ العِباداتِ الصَّبرُ، وأنَّ حَبْسَ النَّفْسِ على طاعةِ اللهِ هي الطَّلِبةُ، وقَطْعَها عن مُشتَهياتِها هي المَرامُ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).

- قولُه: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاءَ قَولُه: ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ مُفرَدًا، وجاء في سورةِ (سبأ) بالجَمعِ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]؛ وفائدةُ العُدولِ في هذا المَقامِ إلى المُفرَدِ ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ فلاتِّحادِ تَرتُّبِ الحُكمِ على الأوصافِ المُشترَكةِ، بخِلافِه في (سبأ)؛ فإنَّه مُرتَّبٌ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ مُطْلَقًا. ولا ارتيابَ في التَّفاوُتِ في الأعمالِ، فناسَبَ الجَمعُ؛ ليَتفاوَتَ الجزاءُ بحسَبِ العامِلينَ. وأمَّا على قراءةِ الإفرادِ في سورةِ (سبأ)[١] فيُقالُ: إنَّ المرادَ مِنَ الإفرادِ الجِنسُ؛ ليتوافَقَ القِراءتانِ. ويُمكِنُ أن يُقالَ: القَرينةُ هي إثباتُ الغُرفةِ الواحدةِ للجَماعةِ[٢].

- قولُه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾، جُمِع بيْن التَّحيَّةِ والسَّلامِ، مع أنَّهما بمعنًى؛ لقَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]؛ لأنَّ المُرادَ هنا بالتَّحيَّةِ: سَلامُ بعضِهم على بعضٍ، أو سلامُ الملائكةِ، وبالسَّلامِ: سلامُ اللهِ عليهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، أو المرادُ بالتَّحيَّةِ: إكرامُ اللهِ لهم بالهَدايا والتُّحَفِ، وبالسَّلامِ: سَلامُه عليهم بالقَولِ. ولو سُلِّمَ أنَّهما بمعنًى، فساغَ الجَمْعُ بيْنَهما؛ لاختِلافِهما لفظًا[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

- جُملةُ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مُستأنَفةٌ بيانيَّةٌ؛ لأنَّ مَن عرَفَ حالتَهم مِن الحياةِ والسَّلامةِ والبقاءِ يَتشوَّفُ لمعرفةِ حالِ مكانِ هذه الحياةِ السَّالمةِ

---

(١) قرأ بالإفرادِ حمزةُ، والباقون بالجمع. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥١).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦).

الباقيةِ، فيَسأَلُ عنه؛ فوقعَتْ جُملةُ ﴿حَسُنَتْ﴾ موقعَ الجوابِ عن هذا السُّؤالِ المُقدَّرِ. وهي إنشائيَّةٌ أفادتْ إنشاءَ مدْحِ الغُرفِ بالحُسنِ، وتَعظيمِ ذلك الحُسنِ[١].

- وقدَّمَ المُستقَرَّ؛ لأنَّ أوَّلَ الحُلولِ استِقرارٌ، والمُقامَ ببقاءِ الاستِقرارِ واستِمرارِ المُكثِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (ما) يَجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً فيها معنَى النَّفيِ، كأنَّه قيل: وأيُّ عبءٍ يَعبأُ بكم لولا دُعاؤُكم؟! ويجوزُ أن تكونَ نافيةً[٣]، وتَركيبُ: ما يَعبأُ به، يدُلُّ على التَّحقيرِ، وضِدُّه (عَبَأَ به) يُفيدُ الحَفاوةَ. فأصلُ ﴿مَا يَعْبَؤُا﴾: ما يَحمِلُ عِبْئًا؛ تمثيلًا بحالةِ المُتعَبِ مِنَ الشَّيءِ، فصار المقصودُ: ما يَهتَمُّ وما يَكترِثُ، وهو كِنايةٌ عن قِلَّةِ العنايةِ[٤].

- وجَوابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ، وتقديرُ الكلامِ: لولا دُعاؤُكم ما عبَأَ بكم. وجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لكلامٍ مُقدَّرٍ تَقديرُه -واللهُ أعلَمُ-: لا يَعبأُ بكم فقد كذَّبْتم، أي: لأنَّكم قد كذَّبْتم، فالفاءُ تَعليليَّةٌ. وأمَّا جُملةُ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ فمُتسبِّبةٌ عمَّا قبْلَها؛ فالفاءُ فيها سَببيَّةٌ. وضَميرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

﴿يَكُونُ﴾ عائدٌ على العذابِ المفهومِ مِن المقامِ[(١)].

- وفائدةُ قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الإيذانُ بأنَّ مَناطَ فَوزِ أحدِهما، وخُسرانِ الآخَرِ -مع الاتِّحادِ الجِنسيِّ المُصحِّحِ للاشتِراكِ في الفَوزِ- ليس إلَّا اختلافَهما في الأعمالِ[(٢)]. وأيضًا فيه تهديدٌ للمُشركينَ[(٣)].

- وحُذِفَ مُتعلِّقُ الدُّعاءِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: الدَّاعيَ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٤)]، وذلك على أنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: الدعوةُ إلى الإسلامِ.

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ تُرِكَ اسمُ كان غَيرَ مَنطوقٍ به بعْدَما عُلِمَ أنَّه ممَّا تُوعِّدَ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِه، وتَهويلِ أمْرِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه ممَّا لا يَكتنِهُه البيانُ، كما تَقولُ للجاني: قد فعلْتَ كذا فسوف تَتحمَّلُ ما فعلْتَ[(٥)].

- واللِّزامُ: مَصدَرُ لازَمَ، وقد صِيغَ على زِنَةِ المُفاعَلةِ لإفادةِ اللُّزومِ، أي: عدَمِ المُفارَقةِ؛ فالإخبارُ باللِّزامِ مِن بابِ الإخبارِ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ بيْنَ المُكذِّبينَ والعذابِ مُلازَمةً مِن الطَّرفينِ: فهُم بتَكذيبِهم قد ألْزَموا أنفُسَهم العذابَ، فلازَمَهم العذابُ. وقد اجتَمَع فيه مُبالَغتانِ: مُبالَغةٌ في صيغتِه تُفيدُ قوَّةَ لُزومِه، ومُبالَغةٌ في الإخبارِ به تُفيدُ تَحقيقَ ثُبوتِ الوَصفِ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

- وهذه الخاتمةُ ناظرةٌ إلى الفاتحةِ، أي: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ١]، المعنى: قد أَنذَرَ وبالَغَ فيه، وبيَّن بالآياتِ الظَّاهرةِ، والبَراهينِ الباهِرةِ، تَصريحًا وتَعريضًا: أنَّ الحكمةَ في الإيجادِ مَعرفةُ الخالِقِ وعبادتُه؛ أمَّا تَصريحًا ففي قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وأمَّا تَعريضًا ففي عَدِّ فضائِلِ المؤْمنينَ، وإذا أَعلَمَكُم رَسولي أنَّ حُكْمي ذلك، وأنِّي لا أعتَدُّ بعِبادي إلَّا بعِبادتِهم، فقد خالَفْتُم أنتُم بتَكذيبِكم كِتابي ورَسولي حِكمتي في الإيجادِ، فسوف يَلزَمُكُم أثَرُ تَكذيبِكُم، وهو الاستِئصالُ يومَ بَدْرٍ، والعذابُ السَّرْمَدُ في النَّارِ يومَ القِيامةِ(١).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ العِشرونَ

ويليه المجلدُ الحادي والعِشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سُورةِ الشُّعَراءِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٨).









الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠